إهداء خاص إلى الإنسان ...
المثقف ... المتواضع
مسيو زونيه
أنور زناتي
١٥/٧/٢٠٠٧م.

علم التاريخ واتجاهات تفسيره

(اقتراب جديد)

أنور محمود زناتي
جامعة عين شمس



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

الزناتى ، أنور محمود .

علم التاريخ واتجاهات تفسيره / أنور محمود الزناتى .

ـ ط١. ـ

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٧ .

١٦٥ ص ،١٧× ٢٤ سم

١- التاريخ أ- العنوان

٢- التاريخ ـ مصادر

رقم الإيداع : ١٥٥٢

ردمك :٩-٢٢٨٩-٠٥-٩٧٧ تصنيف ديوى : ٩٠٠

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

ت : ٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

الإهداء

إلى المفكر الجليل .....

الذي علمني الكثير

الأستاذ الدكتور/ محمود إسماعيل

الفهرس

الفصل الثاني
آليات علم التاريخ

الفصل الثالث
اتجاهات تفسير التاريخ

الفصل الرابع
مذاهب نقدية في تفسير التاريخ

المستقبل بيد من يقرأ التاريخ !

مقدمة

يعتـــبر الـــتاريخ وإشكالية تفسيره من أكثر القضايا خصوبة في مجال الدراسات الإنســـانية، وقد شُيِّد تحت اسمها مدارس متعددة لتفسير التاريخ ضرب كل فريق منها بســـهم ونَعَـــى على أنقاضها ناعون، وما زالت تحظى قضية المنهج باهتمام الباحثين وتتعرض لجدل واسع الأرجاء حتى أنها شغلت عدد كبير من المفكرين ومعاهد علمية عريقة، واستنفذت الكثير من مجهودات المؤرخين والفلاسفة.

فقـــد بدأ اهتمام الإنسان بالتاريخ وتفسيره منذ فجر الخليقة، وكان تفكير الإنسان وقتها تفكيرا أسطوريًا.

ومـــع تقـــدم الإنســـان تطورت حياته، كما تقدمت وسائل التعبير عن أفكاره ومعتقداته، وأسلوب حياته حتى حدثت طفرة عظيمة في مجال تفسير التاريخ نتيجة لتقدم المنهج العلمي.

وقـــد شـــاعت روح الـــنقد والتحلـــيل والتعليل في مختلف العلوم استناداً إلى نظريات علمية.

وزادت أهمـــية البحـــث في التاريخ في وقتنا الحاضر أكثر منها في أي وقت مضـــى، حيـــث أصـــبح العالم في سباق محموم للوصول إلى أكبر قدر ممكن من المعرفة الدقيقة المثمرة التي تفسر وتعلل الأحداث التاريخية.

وكمـــا يقول الدكتور حسن عثمان أن الإنسان لا يستطيع أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهـــم الماضـــي ومعـــرفة الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة والتأمل في الماضـــي يـــبعد الإنســـان عن ذاته، فيرى ما لا يراه في نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائـــه، ويجعلـــه ذلك اقدر على فهم نفسه وأقدر على حسن التصرف في الحاضر والمستقبل بعد أن يأخذ الخبرة والعظة من الماضي.

إن ماضي الشعوب وماضي الإنسان حافل بشتى الصور وهو عزيز عليه في كل أدواره، ســـواء أكانـــت عهـــود المجـــد والقوة والرفاهية أم عهود الكوارث والآلام والمحن، والشعوب التي لا تعرف لها ماضياً محدداً مدروساً بقدر المستطاع، لا يعدون من شعوب الأرض المتحضرة.

وعلـــى ذلك نجد انه لا غنى للإنسان عن دراسة ماضية باعتباره كائناً اجتماعياً فينبغـــي عليه أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماله وآثاره ليدرك من هو حقاً وإلى من ينتمي.

إن ما تحقق من تقدم في علم التاريخ ونظرياته يعتبر بحق من أعظم إنجازات الفكـــر البشري وخطي خطوات واسعة في مجال البحث العلمي؛ ودفع ذلك للبحث في طائفة جديدة من المسائل التاريخية لم تكن مطروقة من قبل، كما دفع إلى وضع مناهج متميزة للمعرفة التاريخية.

وانـــتهى عصر النقل إلى غير رجعة وأتى عصر العقل الذي يُعد ركناً أساسياً مـــن أركـــان المعرفة الإنسانية في ميادينها كافة وأصبح روح التطور الذي يعيشه العالم اليوم.

وســـوف نحاول فى هذا البحث الوقوف على مسارات التاريخ وطفرات تفسيره وفـــي إرهاصـــاته وتحولاته وانعطافاته والوقوف على أحدث النظريات التي حاولت تفسير التاريخ بطرق مختلفة وبعيدة عن النمطية والتقليد.

ونـــنوه إلـــى أننا سوف نستعرض تلك النظريات دون تبني وتأييد لنظرية أو اتجاه بعينه.

والله الموفق ،،،

انور زناتي
جامعة عين شمس

١

الفصل الأول

مـــا التاريـــخ ؟!

الشئ الوحيد الذي تعلمناه من التاريخ أن لا أحد يتعلم من التاريخ

هيجل

الفصل الأول
مــا التاريـــخ ؟!

فـــي ظاهـــره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل. (ابن خلدون)

التاريخ الإنساني تاريخٌ طويل؛ فقد بدأ الإنسان البدائي في التأريخ لحياته اليومية وذلـــك من خلال تلك الرسوم التي خطّتها يداه على جدران الكهوف والتي تعتبر، من المصـــادر الرئيســـة التـــي استقى منها المؤرخون والباحثون كل ما دون ويدون عن التاريخ القديم.

ولمـــا اســـتقر الإنسان في الوديان، وعرف التحضُّر؛ بدأ يؤرِّخ الوقائع الكبرى وحـــوادث الدول والملوك؛ فكانت مصر القديمة من أولى الحضارات الإنسانية التي عرفت التدوين التاريخي؛ وهو ما نراه أيضاً في الحضارات الشرقية الأخرى: البابلية .. الآشورية .. الصينية .. الخ.

وتعـــددت أصول كلمة التاريخ ومعانيها وإن لم تبعد كثيرا عن مضمونها، فقد قـــيل أن أصل كلمة تاريخ قد أخذ من الأصل السامي العام لكلمة (ورخ) وهى التي جاءت في اللغة العربية في كلمتى (ياريخ) بمعنى القمر و(تدخ) بمعنى الشهر، ومن ثم يكون معنى كلمة تاريخ هو التوقيت، أي تحديد الشهر القمري[١] .

وقد فرق الأصمعي بين اللغتين فقال: بنو تميم يقول ورخت الكتاب توريخا.

وقيس تقول أرخته تأريخًا.

وعن هذه الكلمة أيضاً يقول الصولى: تاريخ كل شئ غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه، ويقول السخاوى أنه التعريف بالوقت الذي تضبط فيه الأحوال من مولد الـــرواة، والأئمـــة ،ووفـــاة، وصحة، وعلل، وبدن ورحلة، وحج، وحفظ، وضبط، وتوثيق، وتجريح[٢] .

ويـــرى البعض أن كلمة: "تاريخ" أو "تأريخ" أو "توريخ" معربة عن الفارسية؛ فقد ذكر البيروني، والخوارزمي أن كلمة تاريخ فارسية الأصل وعربت.

---

١ – أحمد رمضان أحمد: تطور علم التاريخ الإسلامي. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م، ص١٥.

٢ – عبد المنعم الجميعي: منهج البحث التاريخي. ط١، القاهرة ١٩٩٢ م، ص٩.

ويـــرى الـــبعض أن الكلمـــة لها أصل فارسي من (ماه روز)، مما يدعو إلى الاعتقاد أنهما أرادا من ذلك القول بأن كلمة تاريخ تعنى تعيين بدء الشهر.

ومـــن ثـــم فقـــد ربطـــا بين هذا المعنى وبين الرواية التي رواها العديد من المؤرخين والتي تقول بأن المسلمين أخذوا من تاريخ الهجرة تقويما لهم وذلك عملا بنصيحة الهرمزان للخليفة عمر بن الخطاب.

كما قيل أن التقويم الهجري أخذ في الأصل من اليمن، فقد ذكر السخاوى، أن أول مـــن أرخ الـــتاريخ هو يعلى بن أمية الذي كان باليمن، فقد كتب إلى عمر بن الخطاب كتابا من اليمن مؤرخا فاستحسنه عمر، فشرع في التاريخ.

وروى ابن أبى خثيمة قال: قدم رجل من اليمن فقال رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا فقال عمر: هذا حسن فأرخوا.

ويعلـــق روزنتال عن أصل كلمة (تاريخ) فيقول: وأغلب الظن أن أصلها من العربـــية الجنوبـــية، حيـــث يوجد مركز ثقافي يمكن أن يصاغ فيه مثل هذا التعبير الفـــنى، وليس ببعيد أن يكون شكلها الأصلى هو (توريخ) وان (تاريخ) هو التكوين الفنى القديم من (مؤرخ، ومورخ).

ويبدوا واضحا أن كلمة (تاريخ العربية) تعنى كلا من (الزمن) (والحقبة) وأنها لم تظهر في الأدب قبل الإسلام، كما أنها غير مذكورة في القرآن ولا في الأحاديث النـــبوية، وأن الحديث الوحيد الذي أشار إلى التقويم الإسلامي، استعمل كلمة (عد) وأنها استعملت الأول مرة في الآداب العربية مع أخبار التقويم الهجري.

كذلـــك اختلف العرب قبل الإسلام في تعريف الوقت والزمن وذلك من الناحية اللغوية، فالوقت كما يقول علماء العربية، هو مقدار من الزمن، وكل شئ قدرت له حينا، فهو موقت، وإن الوقت تحديد الأوقات كالتوقيت.

وقالوا في الزمان، أنه الدهر، وعارضهم آخرون فقالوا: يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر. أما الدهر فلا ينقطع، والزمان يعنى كذلك الفصل من فصول السنة.

كذلـــك اخـــتلفوا فـــي معنى الدهر، وذلك بسبب مسألة القدم والحدوث، وصلة التفاســـير بهمـــا، فقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوه: " لا تسبوا الدهر

فـــإن الله هو الدهر " وجاء في الحديث عن أبى هريرة، قال الله تعالى: "يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وإنما أنا الدهر، أقلب الليل والنهار" (٣) .

وتدل الكلمة على معان متعددة، منها: تعريف الوقت، أو ذكر الأخبار الخاصة بمصر أو جيل. وكيفما كان فإن كلمة: " تاريخ "، تدل بصفة عامة على العلم الذي يســمى إلى إنقاذ الحقائق الماضية من النسيان، وهى تقابل الكلمة: Historia، التي تــدل – هي الأخرى – على العلم الذي يبحث حوادث الماضي، وإلى اشتقت منها أسماء علم التاريخ في معظم اللغات الأوربية(٤) .

وقـــد دار نقـــاش طويل حول مدلول هذه الكلمة في اللغات العربية والأوربية، ففي اللغة العربية يرى البعض أن كلمة تاريخ بالهمزة أدق من كلمة تاريخ " بالألف الليـــنة " ويـــرى الـــبعض الآخر عكس ذلك، ويبدو أن هذا اللبس ذاته موجود في اللغـــات الأوربـــية فكلمـــة History الإنجليزية، وكلمة Histoir الفرنسية، وكلمة Geschichte الألمانـــية تســـتعمل غالبا للمعنيين وأن كان بعض العلماء قد حاول التميـــيز بينهما فأطلق بعض الفرنسيين مثلا Histoir بـــ H كبرى على الماضي، وكلمـــة Histoir علـــى العلـــم، واحتفظ الالمان بكلمة Geschichte للمعنى الأول وكلمة Histoire للمعنى الثاني(٥) .

إرهاصات (مقدمات) علم التاريخ :

وقد تقدم أسلوب التأريخ في الحضارتين اليونانية والرومانية , وكان قد بدأ هناك أســطورياً – كمـــا هـــو الحال في الإلياذة والأوديسة لهوميروس – ثم تخلّص من الأســطورة والصـــياغة الشعرية شيئاً فشيئاً، ليظهر مؤرّخون من أمثال: هيرودت وثوكوديدس، وبوليبيوس، واسترابون الخ.

وبظهور الإسلام وجدنا أن القرآن الكريم قد عمق الإحساس التاريخي عند العرب حيـــن أشار إلى الأمم والقبائل والأنبياء المسلمين، وقص عليهم قصص الأمم الخالية بهدف إثارة العبرة في نفوسهم كما أدت أن التاريخ معنى معينا على الإنسان أن يتبعه دائما، وهو أن الإنسان هو الذي يصنع مصيره بنفسه خيرا كان أم شراً فان حسن عمله فـــي حياته ازدهرت حضارته، وازدانت معيشته وأن أفسد حق عليه العذاب والدمار.

٣ – أحمد رمضان: المرجع السابق، ص١٧.

٤ – عبد المنعم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي. ط٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٧ م، ص١٣.

٥ – عبد المنعم الجميعي: منهج البحث التاريخي. ط١ ، القاهرة ١٩٩٢ م المرجع السابق، ص١٣.

يقول تعالى " قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين". وقال تعالى: "يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم، ويتوب عليكم والله عليم حكيم".

فعند مجئ الإسلام تطلبت الظروف الجديدة التي طرأت على المجتمع الإسلامي ظهور أنماط جديدة من المعرفة التاريخية وكان من أبرزها ظهور الوثائق السياسية فقد كان من أول أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم الذي نظم به التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود.

وقد كان ذلك بمثابة المعاهدة الأولى في الإسلام، ثم الرسالة التي أرسلها صلى الله عليه وسلم لعبيد الله بن جحش في سريته المعروفة، وتوالت بعد ذلك المعاهدات والأحلاف بين الرسول والمشركين، كما توالت الرسائل بينه وبين قواده، وبينه وبين ملوك وحكام البلدان المجاورة أمثال ملوك فارس، والروم، ومصر والحبشة وغيرها.

ومع ذلك، فان التدوين في التاريخ الإسلامي، لم ينتشر إلا حينما أقبل أهالي البلاد المفتوحة على الإسلام، وأقبلوا على تعلم العربية وذلك ابتداء من القرن الأول الهجري، فكان معظم المؤرخين الأوائل في الإسلام، هم المستعربون من العجم، لأن العرب في أول الأمر، كانت تلحقهم أنفه من انتحال العم، لكونه من جملة الصنائع، وقد لاحظ ابن خلدون ذلك، فذكر في مقدمته أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم[٦] .

وكان أول ما دون في التاريخ الإسلامي – بطبيعة الحال – يعتمد على الذاكرة الإنسانية، لبعد التدوين عن أخبار الجاهلية، والعصر الإسلامي الأول، وان من يقرأ ما دون من الذاكرة العربية، يتجلى له أن أغلب التاريخ الأول، مستمد من السماع والمشاهدة، التي تنقل عن شاهد العيان، بحكم أن الشاهد العيان يدرك الصورة والزمن، ولذا لجأ المؤرخون الأوائل إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة ،بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما عرف بالأسانيد (جمع سند)، أو حتى العنعنة، بمعنى رفع القول إلى قائله، أو ما يسميه المؤرخون المسلمون فيما بعد بالنقل المتواتر، الذي لا شبهة فيه، فكان الحفاظ هم الوسطاء، بين الخبر والمؤرخ، وهى طريقة للإجماع على صحة الخبر.

فكانت طريقة الأسانيد للتحقق من صحة الخبر، أول ما ظهرت على أيدي المسلمين، إذ كانت مستلهمة من الطريقة نفسها، التي كانت قد اتبعت عن جمع

٦ – أنظر ، عبد المنعم ماجد: ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي ص٣٦ – ٣٩.

الأحاديث النبوية، ليطمئن جامعو الأحاديث إلى اتصال الأحاديث بالرسول (صلى الله علـــيه وســـلم)، ممـــا يبين أن التاريخ قد أخذ طريقة الحديث في أول تدوينه، بل أن التاريخ، كان يجمع من نفس رواة الحديث، في سلسلة من الإسناد الموثوق بهم، بحيث أصـــبح المـــؤرخ نفسه يعرف باسم: "رواية"، أو "صاحب الأخبار"، ولكي تكون هذه الـــرواية التاريخية سليمة، فإنها لا بد أن تكون من مسلم، لان الرواية مثل البينة، لا تؤخـــذ إلا من مسلم، ومن ناحية أخرى، اعتبر التاريخ نفسه من وسائل الحديث، في الجرح والتعديل، بحيث يقول المؤرخ السخاوى أن التاريخ استعمل لما استعمل الرواة الكذب، فكان هذا دلالة على جدية المسلمين، في دراسة علم التاريخ.

وأكـــثر مـــن ذلك، فان المؤرخ الإسلامي، لم يلبث أن تحول من مجرد إخباري، غرضـــه اســـتيعاب الأخـــبار، والمحافظـــة علـــى كيفية اتصالها من حيث رواتها أو مصادرها، إلى البحث عن الخبر في ذاته، زيادة في تحرى الحقيقة، وأصبح هذا تطوراً جديـــداً في كتابة التاريخ، إذ تخلص التاريخ من طريقة الحديث إلى مجال أوسع مستقل، فالمؤرخ لم يعد همزة الوصل بين الخبر وقارئه، إنما أصبح يعالج الخبر في ذاته.

وبعـــد انتشار التدوين، وتمكن التاريخ في النفوس، فان الرواية المسندة، لم تعد مصـــدراً كافـــيا لعلـــم التاريخ، فأبدلت أسانيد الأخبار بأسانيد الكتب، وهو ما عرف بالـــتاريخ الســـندى، أو أســـانيد الكتـــب، وفـــي ذلك تطور علمي واضح في اتجاه الموضـــوعية التاريخـــية، لا ســـيما وأن المؤرخين المسلمين في أي وقت لم يكونوا يستطيعون أن يكتبوا التاريخ دون أن يذكروا المصادر التي استقوا منها أخبارهم، فكان حـــرص المؤرخيـــن المسلمين، على ذكر الكتب التي استقوا منها أخبارهم في معظم تأليفهم، إضافة جديدة لإبداعهم في هذا العلم.

بداية التدوين التاريخي عند المسلمين :

– وهب بن منبه :

لقـــد بـــدأ التدوين التاريخي عند المسلمين. منذ القرن الأول للهجرة. ولاتزال بعـــض هذه المدوَّنات باقيةً إلى اليوم، مثل كتاب" التيجان في ملوك حِمْيَر" لوهب بن منـــبه[٧] (المتوفى ١١٠ هجرية) غير أنه كتابٌ ملىء بالإسرائيليات والروايات التي كانت متداولة آنذاك شفاهة).

---

٧ – ابـــو عـــبد الله وهب بن منبه. مؤرخ يمني ، نشأ في صنعاء من اصل فارسي، وولي قضاءها للخليفة عمر بن عبد العزيز، ولكـــنه اتهـــم بالزندقة فعزل وحبس ثم افرج عنه. وكان وهب متبحرا في الاساطير القديمة، خصوصا الاسرائيلية منها،

– ابن هشام :

ثـم ظهرت كتب السيرة النبوية بعد ذلك بقليل، وأقدم ما وصلنا منها السيرة لابن هشـام[٨] وهى مختصرٌ لسيرة ابن إسحاق (المتوفى ١٥١ هجرية) وهو الكتاب الذي اعتنى مؤلفه بجمع الأخبار من مظانها المختلفة، وارتحل في سبيل ذلك إلى عدة بلاد، ساعياً للإحاطة بكافة التفاصيل والأخبار.

وقد تناول ابن هشام هذه الرواية التي وقعت له من سيرة ابن إسحاق، بكثير من الـتحرير والاختصار والإضافة، والنقد أحياناً، والمعارضة بروايات أخر لغيره من العلماء[٩] .

ثـم تـداول الناس قديماً وحديثاً سيرة ابن هشام، حتى كادوا ينسون واضعها الأول. يقول ابن خلكان: "وهذا ابن هشام هو الذي جمع سيرة رسول الله صلى الله علـيه وسلم من المغازي والسير لابن إسحاق، وهذبها ولخصها .. وهي الموجودة بأيدي الناس، المعروفة بسيرة ابن هشام.

– عروه بن الزبير :

وهـناك عـروه ابن الزبير صاحب كتاب "المغازي" أيضاً، وينتسب عروه بن الزبير من جهة الأب والأم إلى أسرتين من أشراف قريش، فأبوه القائد العربى الزبير بـن العـوام، وأمة أسماء بنت أبى بكر. ولد عام ٢٣هـ، وكان زاهدا في الدنيا، محبا للعلـم، أمضـى حياته بين الدرس والتدريس حتى أصبح من فقهاء المدينة، ولم يزج بنفسـه في الأحداث السياسية في زمنه. وقد اهتم عروة في كتاباته بالإسناد في غالب الأحيان وهذا يضفي أهميه خاصة على كتاباته. وقد تناول بالكتابة الأحداث الآتيه:

١– بعث الرسول، ونزول الوحي ،وبداية الدعوة، وموقف قريش من المسلمين.
٢– الهجرة إلى الحبشة وأسبابها ومقاومة قريش للدعوة.

وهـو من اوائل المؤرخين المسلمين الذين احاطوا باخبار الانبياء والاقدمين، ويشتهر بكتابه (التيجان في ملوك حمير)، أو (ذكر الملوك المتوجة من حمير)، و(قصص الانبياء)، و(قصص الاخبار).

٨ – وهو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المصري (٢١٨هـ).
وأصل هذه السيرة هو ما وضعه أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار المدني القرشي (١٥٢هـ). وقد رواها ابن هشام عـن أبي محمد زياد ابن عبد الله البكائي العامري الكوفي (١٨٣هـ)، عن ابن إسحاق، وفي خزانة القرويين أيضاً نسخة من سيرة ابن هشام، بقلم أندلسي نفيس، كتبت سنة (٧١٩هـ)، وبحواشيها معارضات وتقييدات قيمة. والجزء الثالث من نسخة أخرى، بقلم أندلسي عتيق، على رق غزل. وصور ذلك كله في معهد المخطوطات بالقاهرة .

٩ – عبد السلام هارون: مقدمة تهذيب سرة ابن هشام. ص١١ .

٣- المغازى ورسائل النبي إلى الجهات المختلفة.
٤- الفترة الأخيرة من حياة الرسول.

ولـــم يقتصر عروة على المغازى بل تعرض لفترة الخلفاء الراشدين فتحدث عن حـــروب الردة في خلافة أبى بكر، وعن مواضيع أخرى جاءت في رسالة عبد الملك بن مراون له. ويتميز أسلوبه بالسلامة والبعد عن المبالغة وكان يمهد للحادثة بمقدمة.

- الواقدي :

أمـــا كتاب المغازى للواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر ٢٠٧هـــ)؛ فهو يحتل مكانةً خاصة في تاريخ التأريخ العربي الإسلامي، باعتباره من أبرز الأعمال المدوَّنة في القرن الثاني الهجرى.

وكـــتاب المغـــازى هذا يقتصر على الفترة المدنية ويتمشى بدقة أكثر من ابن اســـحق مـــع مدرســـة المدينة في المادة والأسلوب. فهو منتظم ومنطقى في تناول مادتـــه. إذ يعـــرض أولا الإطار الموضوعي ثم يعقبه بذكر التفاصيل؛ ويبدأ بقائمة لمصادره الأساسية وبقائمة بمغازى الرسول وتواريخها، وحين يذكر الغزوات التي قادهـــا الرســـول يورد أسماء أمراء المدينة في غيابه، ثم يتناول تواريخ الغزوات واحدة بعد الأخرى حسب تسلسلها التاريخي ويبدى اهتماما خاصا بالتواريخ.

- الزهري :

ثم جاء كتاب الزهري صاحب (مغازى الرسول)

وقـــد ولد أبى بكر بن مسلم بن عبد الله بن عبد الله بن شهاب عام ٥١ه، وقد أخـــذ عـــن أعلام المحدثين الذين يقول عنهم أنهم بحور العلم، ويذكر أنه قام بجمع واســـع في المدينة عن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة، ساعده في ذلك مكانته الاجتماعية، وذاكرتها القويه.

واشتهر الزهرى كمحدث وفقيه بالإضافة إلى كونه مؤرخا. ونجد ان الزهرى قد وضع إطارا واضحا للسيرة النبوية، وقد راعى بصورة عامة التسلسل التاريخي للحـــوادث، وذكـــر بعـــض التواريخ مثل تاريخ الهجر ة وتواريخ بعض الغزوات. وهـــو يهتم إلى حد كبير بالإسناد، وأسلوبه يتصف بالصراحة والبساطة والتركيز، وقلمـــا يلجـــأ للمبالغة، ويورد الزهرى أحيانا بعض الأشعار المتعلقة بالأخبار التي ذكرها.

- أبو مخنف :

أمـــا أبى مخنف (١٥٧هـ/٧٧٤م) فهو إخباري كوفي له اهتمام بالأنساب. وقد كتـــب عن الردة، وعن فتوح الشام والعراق ،و الشورى ،وصفين. وعن الحوادث التالـــيه فـــي العراق حتى نهاية العصر الأموي وخاصة الثورات والمعارك وعن الخـــوارج. تعـــامل أبـــو مخنف مع الإسناد بشئ من التسامح. واستعمل الروايات العائليه في صفين، واعتمد بكثرة على روايات قبيلة الأزد.

كما أنه استفاد من الروايات الكوفية الأخرى _فمثلا يأخذ عن الشعبى_ويورد عادة الصورة الكوفية للحوادث. فهو أميل للعراق تجاه الشام.

ونـــرى في كتابة أبى مخنف تسلسلا متصلا، ولكن التماسك ضعيف في بعض الأحـــيان. وهى تقدم أحيانا صورة حيه للحوادث مع كثير من المحاورات، ويتخللها الشعر في بعض المناسبات. وهكذا نجده يعكس أثر مجالس السمر وشيئا من وجهة قصص الأيام في أسلوبه.

- عوانة بن الحكم :

وهناك عوانة بن الحكم (ت١٤٧هـ/٧٦٤م)صاحب "سيرة معاوية وبنى أميه":

هو إخباري متبحر في الشعر والأنساب، وتناول مؤلفه "كتاب التاريخ الإسلامى" القرن الأول الهجري.

وكتـــب عـــن الخلفاء الراشدين والردة والفتوحات، والصراع بين الإمام على وخصـــومه، وتـــناول الحسن وشئون العراق والشام حتى نهاية فترة عبد الملك بن مروان. وتدل رواياته على معرفة داخليه بشئون الأمويين، ويقدم عوان على الأكثر الرواية الأموية للحوادث مقابل الرواية العراقية، ثم إن خطته في التسلسل التاريخي أو على سير الخلفاء تمثل خطوة لها دلاله في التطور التاريخي.

- سيف بن عمر :

وهـــناك ســـيف بـــن عمر (ت١٨٠ هـ /٧٩٦م) صاحب "كتاب الردة" و"كتاب الفتوحات":

ويتناول سيف بن عمر الكوفي أخبار الردة وأسبابها وكذلك الفتوحات، ويتناول كـــتابه الثاني الفتنه وخاصة واقعه الجمل ويقدم سيف بن عمر في الأساس النظرة

العراقـــية، ويستفيد بالدرجة الأولى من روايات قبيلته تميم. وأخباره عن الفتوحات وخاصة فتح العراق تميميه الميول وتتجه لأن تكون عاطفية على أسلوب الأيام.

– نصر بن مزاحم :

وهـــناك نصر بن مزاحم(٢١٢هـ/٨٢٧م) وهو كوفي أول أخبارى شيعى ونجد ان كتـــبه تهم الشيعة "الجمل"، "صفين"، "مقتل الحسين"، "أخبار المختار"، "المناقب"، "مناقب الأئمة":

جمـــع نصر بن مزاحم كتابه "صفين" من المقتبسات الموجودة ويمكننا فحصه للحصول على فكرة تقريبية. ففي "صفين" نلاحظ أن ميول نصر بن مزاحم عراقية علويـــة. فهـــو يورد الحديث ضد معاوية وحزبه، ويورد الأحاديث والأخبار وحتى القصـــص ليســـاند قضـــية الإمام على. ومع ذلك فإنه حين يتناول مسالب معاوية لا يخفـــي بعض النقد الموجه للحزب العلوي من خصومه. ويعطينا نصر الأسباب التـــي أدت إلـــى صفين وانتهت بالتحكيم ويكثر من الشعر والحوار والخطب خلال رواياتـــه. ويلاحظ أن العناية بالتواريخ ضعيف، كما أن الإسناد يستعمل بكثير من التســـاهل. أم أســـلوب الكتابة فهو مثل واضح لأسلوب قصص الأيام ،وهو يعكس مجـــالس السمر، وينتهي بقائمة بأسماء أنصار الإمام على البارزين الذين استشهدوا في صفين.

– المدائنى :

وهناك المدائنى صاحب "أخبار الخلفاء الكبير":

والمدائـــنى بصري استقر بعدئذ في بغداد، ويظهر أثر الإسناد عليه أقوى ممن ســـبق نتيجة للتطورات الثقافية، ويظهر عنده الاتجاه نحو جمع أوسع وتنظيم أو في للـــروايات التاريخـــية، فـــنراه يأخذ من الأخبار بين السابقين مثل أبى مخنف وابن اســـحق والواقـــدى، ويـــبدو أنـــه قـــد جمع في كتابه هذا بين الدراسات التاريخية والأدبية،ونجد أنه يتناول الفترة من خلافة أبى بكر حتى المعتصم وقد كتب بأسلوب الإخبارييـــن، واتبع أسلوب المحدثين في نقد الروايات ثم أنه تنوع أكثر ممن سبقه في الأخذ من روايات البصرة، خاصة عن الخوارج وعن مدينة البصرة وعن فتوح خراســـان ومـــا وراء النهر. وقد جاء المدائنى بأخبار أوفي وأكثر توازنا ممن لف عن الحوادث والموضوعات التي تناولها.

- **محمد بن السائب الكلبى :**

وهناك محمد بن السائب الكلبى (ت١٤٦هـ/٧٦٣م):

وقـــام محمد بن السائب الكلبي بدراسات في الأنساب واللغة والتاريخ. وتشير دراساته للأنساب إلى محاولة لجمع الروايات القبلية. كما أدى على أفضل نسابه في كـــل قبـــيلة. وبالإضافة إلى ذلك فإنه رجع لشعر النقائض المتعلقة بالفرزدق على الشاعر نفسه.

- **هشام بن محمد الكلبى :**

وهناك هشام بن محمد الكلبي صاحب (جمهرة الأنساب):

وتـــناول فـــي دراســـاته تاريخ الأنبياء، والجزيرة العربية قبل الإسلام ،وأيام العرب، والتاريخ الإيراني، والتاريخ الإسلامي، ومصادر أخباره مختلفة.

ففـــي تاريخ الأنبياء يأخذ عن أهل الكتاب ،وفي تاريخ إيران يأخذ من الترجمات الفارســـية، وبالإضافة إلى ذلك فهو يتحدث عن تاريخ اليمن ولكنه لم يكن مدققاعبى ،ومن مواد أسطورية، ومن بعض الأخبار الموضوعة عن شعراء الجاهلين.

- **مصعب الزبيرى :**

وهناك مصعب الزبيرى (ت ٢٣٣-٢٣٦هـ/٨٤٧-٨٥٠م):

وهو من سلالة ابن الزبير وكان مصعب عالما بالأنساب وكتب كتابين "النسب الكبـــير" و"نســـب قريش"، ويعتبر كتاب نسب قريش هو أفضل من كتب عن نسب قريش. وتدل خطة الكتاب على أنه اتبع إطارا ثابتا للكتابة، وهو يشير في كتابه إلى الزهـــرى وإلـــى والده وإلى أهل النسب، وأحيانا إلى بعض الرواة، ويلقى الكتاب الضـــوء علـــى التحولات في الروابط القبلية وعلى التبدلات في خطوط الأنساب، ويعطـــى الزبـــيرى إضافة إلى سلسلة الأنساب، بعضها مفصل وهام، عن بعض الشخصـــيات الهامـــة من العصر الجاهلي حتى زمنه، ويورد الشعر ،وخاصة في الفترة الأولى للاستشهاد أو التأييد.

- **البلاذرى :**

وهـــناك أحمـــد بـــن يحيى بن جابر البلاذرى: صاحب "كتاب فتوح البلدان"، "أنساب الإشراف":

وكتاب فتوح البلدان يبحث تاريخ الفتوحات الإسلامية ويقدم قصة متسلسلة لفتح كل مصر. وقد عمل على إعطاء صورة متزنة للحوادث، وطريقته في الكتابة هي فـــي انـــتقاء المادة بعد الغربلة والنقد، وهو يعتمد كثيرا على روايات المدينة التي تتصـــف بالحياد والدقة أكثر من غيرها ،كما إنه استفاد من الروايات المحلية. وقد أورد الـــبلاذرى كثـــيرا مـــن المعلومـــات القيمة عن النواحي الثقافية والاقتصادية والإدارية.

أمـــا أنساب الأشراف فهو كتاب عام للتاريخ الإسلامي في إطار الأنساب.وهو يمـــثل مـــزيجا فذ في الخطة والمادة. فخطته تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتـــب الأخبار وكتب الأنساب. وتشمل سيرة كل خليفة الأحداث التي وقعت على عهـــده بمـــا فـــي ذلـــك فعاليات الأحزاب السياسية، وهذا الكتاب يراعى التسلسل التاريخي، ومع ذلك توجد استثناءات فرضتها ضرورة مراعاة تسلسل النسب (مثلا يـــرد الكلام عن يزيد قبل عثمان بن عفان). ويظهر أن البلاذرى في انتقائه لمادته التاريخـــية أعطى أهميه خاصة للروايات التي تعود للمنطقة التي وقع فيها الحادث وأتمهـــا بروايات أخرى حول الموضوع. ويعبر البلاذرى في أنساب الأشراف عن فكـــرة وحدة الأمة واتصال خبراتها في التاريخ الإسلامي، أما فتوح البلدان فيظهر فيه خبرة الأمة للأغراض الإدارية والتشريعية.

– اليعقوبى :

وهناك اليعقوبى صاحب "كتاب البلدان"

نجـــد أن اليعقوبى يعبر عن فكرة التاريخ العالمي. واليعقوبى مؤرخ من طبقة الكـــتاب يجمع بين الثقافة والخبرة العلمي في الإدارة.و تاريخ اليعقوبى عبارة عن خلاصة وافية للتاريخ العالمي (قبل الإسلام) وللتاريخ الإسلامي حتى سنة ٢٥٩ هـ: فهو يبدأ بالخليقة وتاريخ العرب قبل الإسلام بل يتناول تاريخ أمم أخرى كالرومان.

ويمكـــن القـــول أن المادة التي عرضها في كتابة تعكس امتزاج الثقافات في المجتمع الإسلامي ونلاحظ أثر اهتمامه بالجغرافية في كتابة.

ونجـــد اليعقوبى عندما يتحدث عن التاريخ الإسلامي يتبع أسلوب الانتقاء من الـــروايات بعد التدقيق وعمل على تمحيص المعلومات التي قرأها من قبل ونلاحظ أن اليعقوبى متزن في اخباره وأنة بصورة عامة دقيق فيما أورد من معلومات وقد جـــاء أحـــياناً معلومـــات فـــردية .وهذا لا يمنع من ظهور شيء من اتجاهاته في

التفصـــيل، فهـــو في حديثة عن الراشدين الأمويين يظهر ميول علوية ويسهب في ذكر أقوال الأئمة وخطبهم ويعطى عند ذكر وفياتهم.وفي حديثة عن العباسيين يظر شيئا من المجاملة كما أن حديثة عن المهدي العباسي يعكس بصورة هادئة شيئا من دعايات العباسيين في ان هذا الخليفة مهدى ينشر العدل.

وقـــد صار اليعقوبى على خطة دراسة التاريخ الإسلامي حسب توالى الخلفاء إلا أنة مع ذالك راعى خطة تسلسل الحوادث على السنين.

– ابن قتيبة :

وهناك ابن قتيبة صاحب "كتاب المعارف"

هذا الكتاب هو دائرة تمتزج فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية؛ إذ نجد فية فكرة كتابة تاريخ عالمي يبدأ بالخليقة وينتهي بالمعتصم. وتظهر فيه وجهة أصحاب الأخـــبار والأنساب في كتابة التاريخ؛ كما أنة يتناول أيام العرب بايجاز ويبدو فيه اهـــتمام الفقـــيهة بطريقة الفتح هل هي صلح أم عنوة؛ واستفاد ابن قتيبة في كتاب المعـــارف مـــن مصادر مكتوبة ومن الروايات ومن الروايات الشفوية ؛ولك سبيل انـــتقاء معلوماتـــه التاريخية بعد نقد مصادرة.وتتميز مادتة الترحية بالحياد والتأكيد على الحقائق.

– ابو حنيفة الدينورى :

وهناك الدينورى (ت ٢٨٢هـ /٨٩١م) صاحب "الأخبار الطوال"

وأبـــو حنـــيفة احمـــد بـــن داود الحنفي. موسوعي ومؤرخ ورياضي ولغوي عراقـــي. توفي ٨٩٥ م. نسب إلى موطنه دينور قرب حمدان بالعراق وقد ولد في عائلـــة مـــن اصـــل فارسي واشتهر برصده من مرصد دينور. ولكنه اشتغل بعلوم كثيرة وترك اكثر من عشرين كتابا. وقد ألف في الحساب (البحث في حساب الهند) وفـــي الـــتاريخ (الأخبار الطوال) الذي يولي الحياة الاجتماعية عند الفرس اهتماما خاصـــا. وفـــي النبات (كتاب النبات) الذي رتب فيه النباتات على حروف المعجم، واهـــتم بكـــامل ما قيل فيها نثرا وشعرا. ولعل أهم ما خلفه الدينوري هو كتابه في الأنواء، أي الطقس أو الظروف الجوية، المسمى (تقويم قرطبة).

وتدل هذه البدايات على أنَّ نشأة علم التاريخ – وتطوره بعد ذلك – كان بمعزل عـــن أى تأثـــيرات من خارج النطاق الحضاري للجماعة العربية الإسلامية، فأوائل

المؤرّخيــن العــرب / المسلمين لم يتأثروا بأعمالهم التاريخية بالمدوّنات الفارسية أو اليونانــية – أو غيرها – وإنما جاءت جهودهم نابعةٌ من مقتضيات خاصة بالجماعة العربية الإسلامية.

ووجدنا في كتب المؤرخين المسلمين آراء اجتهادية جديرة بالتأمل عن مفهوم التاريخ تدل على وعى المؤرخ المسلم بعلم التاريخ(١٠) .

ففــي رأى كثيرين من مؤرخي الإسلام القدامى، أن التاريخ أساسا هو لتسجيل أعمــال الإنســان فــي الماضي، حيث عرفه مؤرخو الإسلام الأوائل علم التاريخ بأنــه هــو الرواية أو الأخبار ومن يقوم به يسمى: إخباريا، أو راوية، أو صاحب أخبار، فعمل المؤرخ المسلم الأساسي هو جمع الأخبار، حقاً أن الشئ المسجل قــد لا يعنى شيئا عند المؤرخين، أو يوحى للإنسانية بشئ، حتى ولو كان خاصا بأناس وحــوداث لا تهــم أناسا آخرين، وأنه وان كان التسجيل يجوز على أساس مبدئي لمــا يقــوم بــه المــؤرخ فــي كتابة التاريخ، إلا أنه يجعل من فكرة التاريخ مادة بــلا روح، ومــن المــؤرخ أشبه بآلة تسجيل، وهو غير كاف لمجهوده في وقتنا الحاضر، فضلا عن أن كثيرين من المؤرخين الإسلاميين كانوا يأتون بأخبار قد لا يقبلها العقل.

أو يــرون في التاريخ أنه يكتب لإبقاء الذكر، بالعمل على تتبع أخبار الصفوة، من الخلفاء والملوك والوزراء والعلماء وغيرهم، حتى أنهم كانوا يرددون من أقوال النبي من ورخ مؤمنا، فكأنما أحياه، وأن ما أنفق الملوك والأغنياء من الأموال على المصــانع والحصــون لا يعادل الذكر في التاريخ، بحيث اعتبر التاريخ أحسن ما يجــب أن يعتني به بعد الكتاب والسنة، ولكن المؤرخين بعامة لا يرون إطلاقاً أن الــتاريخ للصفوة وحدهم، حتى ولو كانوا من الأنبياء، ذلك لأن هؤلاء بشر ن وأن حــياتهم ملــك للتاريخ، وأن السرد يكون أولاً وأخيراً على أساس المناقشة قبل كل شــئ أو يرون – مثل المؤرخ المصرى السخاوى – أن التاريخ بالأولى هو كيان الأمــم، فــلا توجد أمة أو دولة الا ولها تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه، ينقلها خلفهــا عــن سلفها، وحاضرها عن غابرها، ولولا ذلك لانقطع الوصل، اذ النظرة السليمة تستشرف إلى معرفة البدائيات، وتشرئب إلى أدراك المنشئات.

١٠– أنظــر ، عــبد المــنعم مــاجد: ذيــل عــلى مقدمــة لدراسة التاريخ الإسلامي. مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٩م، ص١١– ١٥.

وهــذا مفهوم صائب للتاريخ، بسبب أن الماضي يعنى الروابط المشتركة بين عناصــر الأمة الواحدة، حتى أعتبر التاريخ من أقوى الأسباب في حفظ الأنساب، وأن تصــرفاتها تكــون على أسس من تقاليدها، وعصور التاريخ بالنسبة لها، هى عصور المجد والقوة، بحيث أن الحاضر هو عصر النمو لها، فهذه النظرة القومية للتاريخ، تحرص عليها كل الأمم، لا سيما الأمة العربية، التي ارتبط بعضها ببعض مــنذ نشأة الإسلام، ومع ذلك، فإن قصر التاريخ على كيان الأمم وحدها، قد يعتبر تعــريفاً ناقصــاً، وقصــره علــى الماضي قد لا يجعل معنى للتاريخ في الحاضر والمستقبل أيضاً.

أو يــرون فــي التاريخ الحصول على ملكة التجارب، بقصد المنفعة والعبرة، بــالوقوف علــى تقلبات الزمن، بحيث يكون من عرفه كمن عاش وجرب الأمور بأســرها، وباشر الأحوال بنفسه، فيغزر عقله، ويصير مجرباً، ويتجمل به الإنسان فــي المجالس والمحافل، فالتاريخ هو حقل التجربة، فيه نماذج للأخلاق والوطنية، والأمــثلة الصالحة، والقدوة الحسنة، يتقصى أحوال الماضيين من الأمم وأخلاقهم، والأنبياء وسيرهم، والملوك ودولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك، في أحــوال الدنــيا، فكــانوا في ذلك يقتدون بالقرآن الكريم، الذي يتقصى أخبار الأمم الماضــيين، وهــذا دلالة على جلالة علم التاريخ، ولذلك كانت المؤلفات الإسلامية الأولــى، يتوســع فيها لبدء خلق الأرض، حتى أنهم رددوا هذه الجملة المعرفة من حفظ التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره.

والواقــع أن هذا المفهوم، وإن كان مقبولا من البعض على أساس أن كل علم يظهــر نتيجة للتجربة، فالطب ظهر من المعالجة، والتاريخ من تجارب الإنسانية، بحيــث يجعل من يقرأه يدرك أشياء كثيرة من الحوادث والتغييرات في الأزمنة في وقــت قصير، آلا أن هذا المفهوم غير مقبول، بسبب أن التجربة الإنسانية واسعة، وأن الــتاريخ ســوف يرتــبط حينــئذ بكل التجارب الإنسانية، التي لا تظهر قيمة المــؤرخ، إلا من حيث أنه جامع لتجربة الغير، وقد نقرأ آلاف المعارك ولا نزداد فــنا فــي الحرب، ونقرأ ما حدث للأقوام ولا نتعظ، ونقرأ نصوص المعاهدات ولا نــزداد حكمــة، ومــع ذلك، فانه ينبغي وضع دروس الماضي في خدمة المجتمع الحديــث للإقــتداء بهــا، وإن كان لا يقصد طبعا التجربة في ذاتها، المتخلصة من الشــوائب، التــي تعتــبر تجربة مثالية، وأنما يقصد بها ما مر بالإنسان من تجربة لــتعرض كما هي، مملوءة بالخير والشر فمن خلال هذا الاستعراض لمفهوم التاريخ

في بعض الكتب المؤرخين المسلمين، تبدو أقوالهم عنه غير محددة أو واضحة بل وأحيانا ساذجة، وهى آراء تتردد كثير بهذا المحتوى المقتضب في كتب مؤرخى الإسلام القدامى.

- الطبري :

وأصبح التاريخ علماً مكتمل البنيان، مع جهود كبار المؤرخين من أمثال محمد بن جرير الطبري وكتابه "تاريخ الأمم والملوك[١١] "، ويمثل كتاب الطبري قمة ما وصلت الية الكتابة التاريخية عند العرب في فتر التكوين. فقد كان الطبري طالب علم لا يعرف الكلل فدرس على يد أساتذة في بغداد والكوفة والشام ومصر وأستقر في أخيراً في بغداد. وقد بلغ في علمه بالروايات التاريخية والروايات الفقهية منزلة لا تبارى إن نظرة الطبري إلى التاريخ وألوبة في كتابات متأثرة بدرايتة وثقافته كمحدث وفقهيه.

ولذا فإن طريقة في نقد الروايات تتجه الى الإسناد في حين أن مصادر مؤرخون لهم منزلة موثوقة في حقولهم أو في الموضوعات التي كتبوا عنها.

وهو يعبر في كتابة عن فكرتين أساسيتين في التاريخ: وحدة الرسالات من جهة وأهمية خبرات الأمة واتصالها عبر الزمن من جهة أخرى.

ومثل هذه الخبرات العظيمة الأهمية في سلوك الأمة في حالات الوحدة أو اختلاف؛ وهى في الحالين توضح ما يصيب الأمة في تاريخها ؛لأن قيم الروايات في نظر الطبرى تعتمد على قوة أسانيدها؛ وكلما كان السند أقرب إلى الحادثة كان أفضل؛ فإن رأى الطبري فيما أوردة يظهر في تمحيصه للروايات والأخبار وأحذ البعض منها دون الآخر.

وهو يتجنب أعطاء حكم ؛ويندر أن فضا رواية على أخرى مادام قد أورد روايات مقبولة. وقد تأثر أسلوب كتابته بنظرته إلى الروايات؛ فهو في حرصه على إعطاء الروايات المختلفة حول حادث أو موضوع لا يستطيع تقديم تاريخ متصل للحادث.

١١- ويذكر دكتور محمد محمود الطناحي أنه: يسمى أيضاً تاريخ الرسل والملوك. وقد طبع في ليدن بهولاندا، من سنة ١٨٧٩ م إلى ١٩٠١م بعناية المستشرق الهولندي دى غوية. في (١٨) مجلدا. ثم طبع في مصر عدة طبعات، آخرها طبعة دار المعارف عام ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م في عشر مجلدات. ثم أفرد الجزء الحادي عشر لذيول تاريخ الطبري. بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. وقد رأيت وصورت من الكتاب الجزء التاسع. من نسخة بقلم نسخى نفي من خطوط القرن السابع ظناً. في (٢٢٥) ورقة. بمكتبة جامع الروضة من ضواحي صنعاء – اليمن.

ويبدو أنه أراد تصنيف كافة الروايات التاريخية العربية في كتابة. وهذا يفسر العــدد الضخم لمصادرة. وهدفه خدم كبرى قدمها الطبرى؛ وهو بذلك ينهى العصر الأول في تطور الكتابة التاريخية.

ويــبدأ تــاريخ الطبرى بالخليقة ويتناول الرسل والملوك في القديم وينتقل إلى تاريخ الساسانيين والعرب؛ ثم يتناول التاريخ الإسلامي حتى عصره (٣٠٢ هـ).

وابن الأثير[١٢] صاحب الكامل في التاريخ

وابــن خلكان (١٢١١-١٢٨١م) صاحب الكتاب الشهير وفيات الأعيان وهو أحمــد بــن محمــد بن ابراهيم شمس الدين ابو العباس البرمكي الأربيلي الشافعي. مــؤرخ واديــب عراقي. نشأ في اربيل بالعراق، وتلقى العلم على الجواليقي وابن شــداد في حلب، وامضى معظم حياته متنقلا بين الشام ومصر، قائما بالتدريس أو متولــيا القضاء حتى توفي في دمشق. وكان للابن خلكان نظم حسن، ومحاضرات فــي غايــة الجــودة. وقــد اشتهر بكتابه (وفيات الأعيان وأبناء الزمان، مما ثبت بالــنقل أو الســماع أو اثبته العيان) وهو معجم تاريخي يشتمل على ٨٤٦ ترجمة للمشــاهير وقد بذل ابن خلكان جهدا كبيرا في تحقيق تاريخ مولدهم ووفاتهم، وتقييد اســمائهم بالحــركات، وتعريف الامكنة والاشخاص. وقد اتم ابن خلكان مؤلفه عام ١٢٧٣م.

- الذهبي :

والذهــبى (محمــد بــن أحمــد بــن عثمان ٧٤٨هـــ) ، أحد كبار المؤرخين المســلمين، ولــد فــي دمشــق وتعلم بها ورحل في طلب العلم، وبعد عودته قعد للــتدريس والتألــيف، ومن أشهر كتبه: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام، وسير أعلام النبلاء.

- ابن خلدون :

وجــاءت الطفرة على يد العلامة ابن خلدون الذي حدد قواعد البحث في التاريخ فيقول:

١٢- ابن الأثير: على بن محمد الجزرى الملقب بعز الدين (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ (١٢) جزء- تحقيق النجار، دار الطــباعة المــنيرية ١٣٥٧هـ، وطبعة دار صادر بيروت ١٩٥٧م، وطبعة دار صادر بيروت ١٩٧٩م (طبعة ليدن) التاريخ الباهر في الدولة الأتابيكية (تحقيق عبد القادرالطليمات -١٩٦٣ القاهرة).

"أمـــا بعد: فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتُشد إليه الركائـــب والـــرحال، وتسمـــوا إلى معرفته السُوقة والأغفَال، وتتنافس فيه الملوك والأقـــيال (أي الرؤساء) ويتساوى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضـــرب فيها الأمثال، وتُطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخلـــيقة كـــيف تقلبـــت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حـــتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعلـــيل[١٣] للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع أسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق"[١٤] .

- السخاوي :

وللسخاوي [١٥] رسالة رائعة بعنوان: (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ).

- ابن مسكويه :

ويمثل مسكويه[١٦] خطوة متقدمة في الكتابة الموضوعية، فإنه على الرغم من معاصـــرة السلاطين والوزراء البويهيين لا نجده يمدحهم أو يتملقهم في كتاباته. ولم يظهـــر مـــيلاً إلى تيار أو ملك أو اتجاه، بل حاول أن يرصد عصره ويحلل أحداثه بعقلانـــية، إلى درجة أنه لقّب بالمعلم الثالث نظراً لتمكنه من الفكر الفلسفي والإفادة منه في الكتابة التاريخية.

١٣- تعد هذه المقولة من الإرهاصات المبكرة لفلسفة التاريخ.

١٤- ابن خلدون: المقدمة. ج١ ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، الهيئة المصرية العانة للكتاب ٢٠٠٦ م، ص٢٨٢.

١٥- ولد السخاوي بمدينة القاهرة بحارة بهاء الدين على مقربة من باب الفتوح في ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ / ١٤٢٨م في أســـرة أصلها من بلدة سخا من أعمال الغربية قام بالتدريس في معظم مدارس القاهرة كدار الحديث الكاملية ومدرسة صرغتمش والمدرسة الظاهرية والبرقوقية والفاضلية وغيرها من المدارس، ثم درس حينا بمكة المكرمة وقرأ بالمسجد الحرام بعضا من تصانيفه وتصانيف غيره ولما عاد إلى القاهرة تبوأ مركز الزعامة الذي كان يشغله أستاذه ابن حجر العسقلاني، وقد توفي شمس الدين السخاوي سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م

١٦- ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب الملقب احيانا بالخازن. مؤرخ وطبيب وفيلسوف فارسي. توفي عام ١٠٣٠م. ولد في الـــري، ودرس الفلســـفة والطب والكيمياء القديمة. كان مجوسيا واسلم. خدم عضد الدولة، ورأس خزانة كتبه، وكان ايضـــا صـــاحب الحظوة عند الوزير المهلبي. ومسكويه من الفلاسفة الارسطيين الاخلاقيين الذين تبعوا ارسطو وحاولوا التوفـــيق بـــين فلســـفته وتعالـــيم الإسلام. وقد رفع مسكويه من شأن الاخلاق، وقال ان الفلسفة لا تبدأ بالمنطق وانا بالاخلاق، وان سعادة الإنسان هي في ان يبلغ كماله الإنساني بسلوك الفضيلة ..

– **الكافيجي :**

ومـــن المصـــادر الهامـــة التـــي تناولت تعريف علم التاريخ، كتاب الكافيجى (المختصر في علم التاريخ) الذي جاء فيه:

أقـــول التاريخ في اللغة هو تعريف الوقت، وفي العرف والاصطلاح هو تعيين وقـــت لينســـب إليه زمانا مطلقاً سواء كان قد مضى أو كان حاضرا أو سيأتي. وقبل التأريخ تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع كظهور ملة أو وقوع حادثة هائلة من طوفان أو زلزلة عظيمة ونحوها من الآيات السماوية والعلاقات الأرضية، وقيل التاريخ مدة معلومة بين حدوث أمر ظاهر وبين أوقات حوادث أخرى(١٧) .

ويقـــول صـــاحب "كشف الظنون" أن "علم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهـــم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم، وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك وموضـــوعه أحوال الأشخاص الماضيين..... والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضـــية وفائدتـــه العـــبرة بـــتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن".

ويقـــول عـــنه المؤرخ المصري "عبد الرحمن الجبرتى" أعلم أن التاريخ علم يبحـــث فـــيه عـــن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنســـابهم ووفـــياتهم. وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم(١٨) .

ونتـــيجة لأهمـــية التاريخ في حياة الأمة الإسلامية عدد الكتاب المسلمون فوائد التاريخ. يقول ابن الأثير "أن فوائد التاريخ كثيرة، ومنافعه الدنيوية والأخروية كثيرة " وقد عدد هذه الفوائد بقوله":

- أن الإنسان لا يخفي أنه يحب البقاء، ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء، وأنه لا يجد فرقا بين ما يراه ويسمعه وبين ما يقرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضيين وحوادث المتقدمين " فإذا طالعها فكأنه عاصرهم وإذا علمها فكأنه حاضرهم".
- أن الحكـــام إذا وقفـــوا على سيرة أهل الظلم والعدوان ورأوها مدونة في الكتب يتـــناقلها الـــناس فيرويها خلف عن سلف استقبحوها وأعرضوا عنها، وإذا رأوا

١٧– أحمد رمضان: المرجع السابق، ص١٩.

١٨– عبد المنعم الجميعي: المرجع السابق، ص١٧.

سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، استحسنوا ذلك، ورغبوا فيه، وتحلو بمحاسن الأخلاق".

- حصول الإنسان على العديد من التجارب والمعرفة بالحوادث، وما تصير إليه عواقبها " فيزداد بذلك عقلا، "ويصبح لأن يقتدى به أهلا".
- ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شئ من معارفها، ونقل طريفة من طرائفها فنرى الأسماع مصغية إلى، والوجوه مقبلة عليه، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره، مستحسنة ما يذكره.



الفصل الثانى

آليات علم التاريخ

التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عاقل إلا فيها: إما شئ لم يسبق إليه فيخترعه، أو شئ ناقص يتممه، أو شئ مغلق يشرحه، أو شئ طويل يختصره، أو شئ متفرق يجمعه، أو شئ أخطأ فيه مصنفه فيصلحه، أو شئ مختلط يرتبه.

حاجي خليفة



الفصل الثاني
آليات علم التاريخ
القلم ليس عظاماً ... لكنه يكسر العظام

إشكالية: هل التاريخ علم؟ فن؟ أدب؟

علــم ؟

دار نقــاش طويــل حول الكتابة التاريخية[1] ومكانها بين العلم والفن والأدب، واخــتلف فيه المفكرون فعنهم من ذهب إلى أن التاريخ علم بكل ما في هذه الكلمة مــن معــنى ومن هؤلاء الدكتور بيرى Bury الذي ذكر في محاضرته التي ألقاها فــي الثالــث مــن يــناير ١٩٠٢ "أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل" واللورد أكتون Acton الــذي عــرف العلم بأنه "اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعهما وحدة عامة على هيئة مبدأ أو قانون والاستاذ هكسلى Huxley الــذي قال " أفهم أن المقصود من كلمة العلم أنها نوع من أنواع المعرفة التي تقوم علــى الدليل والتدليل evidence and reasoning وبمعنى آخر فأن العلم هو " كل المعــرفة تقوم على الدليل والاستنباط " والدكتور اكسندر هل Alex,Hill الذي قال ان " كل معرفة معقولة فهي علم " والاستاذ كولنجوود الذي أوضح أن " العلم بصفة عامة يتألف من تركيز الجهد في شئ لا نعرفه لنحاول أن نتعرف حقيقته ..... وهذا هــو المعنى الذي نقصده من قولنا أن التاريخ علم "والأستاذ كارل بيرسون Karl pearson الــذي قــال" أن وظيفة العلم هى تصنيف الحقائق والتعرف على أهميتها ســواء فــي تتابعها أو بالنسبة إلى بعضها البعض، والفيلسوف الأمريكي تيجارت Teggart الذي عرف العلم بأنه ليس إلا البحث المنظم عن الطريقة التي تتضح في أحدى الظواهر[2] .

ويــرى بعــض العلمــاء مــثل (هرنشو) أنه على الرغم من إننا لا يمكننا أن نســتخلص مــن دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعــية إلا إن هذا لا يجوز أن يجرد التاريخ من صفة العلم ويقول انه يكفي إسناد صــفة العلم إلى موضوع ما، إذا مضى الباحث في دراسته وكان يتوخى الحقيقة وأن

---

١ – عبد المنعم الجميعي: المرجع السابق، ص١٩– ٢٥.

٢ – عبد المنعم الجميعي: المرجع السابق، ص١٧.

يؤسس بحثه على حكم ناقد بعيداً الأهواء والميول الشخصية وكان يصبو فقط إلى إظهار الحقيقة المجردة.

ويقول هرنشو: إن التاريخ ليس علم تجربة واختبار ولكنه علم نقد وتحليل وتحقيق وإن اقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا، فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته لكي يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضي والحاضر على السواء ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار الأول إلى أن يدرس ويفسر العامل البشرى الإرادي الانفعالى، حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية، ويرى الدكتور حسن عثمان أن التاريخ مزاج من العلم والفن والأدب في وقت واحد[٣] .

ويرى الدكتور قاسم عبده قاسم أن التاريخ بمعناه الواسع، نتاج لتراكم الفعل الإنساني على مر الزمن وهدف الدراسات التاريخية الحديثة ينصب على تحليل عناصر هذا التراكم ومكوناته، سعيا إلى فهم الحاضر واستشراف آفاق المستقبل[٤].

والعلم بمعناه الواسع، نتاج لتراكم الفعل الإنساني على مر الزمن ، وهدف الدراسات التاريخية الحديثة ينصب على تحليل عناصر هذا التراكم ومكوناته، سعيا إلى فهم الحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

فن ؟

ويرى بعض العلماء أن من الصعب أن يعد التاريخ علما، وأن من الأوفق أن يعد فنا من الفنون وخاصة أنه يقدم لنا تعبيرات وأوصافاً للأحوال التي جرت فيه كما يحتاج إلى خيال الشاعر وبراعة الكاتب حتى يبعث الحياة في عظام الأحداث التاريخية اليابسة المجردة ويضعها في ثوبها اللائق بها وخاصة اذا لاحظنا أن الوثائق التاريخية لا تعطينا صورة سينمائية عن الحوادث التاريخية، وأنما هى صورة متناثرة بين بعضها وبعض كثير من عدم الارتباط والجفاف والاختلاف والنقص، وعمل المؤرخ الاساسى هو أكمال كل نقص وسد كل ثغرة في الوثائق التاريخية، ومن هنا كان التاريخ - إلى حد كبير - يقوم على الفن، وعلى موهبة المؤرخ الخاصة التي يستطيع بها تشييد وأحياء الماضى بكل ما كان عليه وملئ كل

---

٣ - حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ط٢ ، دار المعارف ١٩٨٠ م، ص١٧.

٤ - قاسم عبده قاسم: تاريخنا ... هل من الضروري إعادة كتابته ؟. مجلة العربي عدد ربيع الأول سنة ١٤٢٧هـ.

الـثغرات الفارغة وإعطاء المضمونات لكل القوالب بحيث يصبح لها الأثر الفعال في عالمنا المعاصر.

وفـي الحقيقة أن هذا الرأي مع وجاهته يصعب الاتفاق معه حول انتقاء صفة العلمية عن التاريخ وخاصة أن أحدى الوظائف الأساسية للتاريخ هي الإنصاف.

حقـيقة أن الكتابة التاريخية يمكن أن تتأثر بثقافة المؤرخ وحسه، وشخصيته، ولكـن هـذا لا يمكـن أن يصل به إلى الابتعاد عن إبراز الحقيقة التي هى إحدى سـمات العلـم الرئيسية، والهدف الأسمى الذي يسمى من أجله المؤرخون، فطبيعة البحث العلمي تتطلب الموضوعية وهذا يصعب تحققه في الفن.

والخلاصة أنه إذا كان الفن لا يخلو من الفكر، ولا يمكن أن يخلو منه إذا كان فنا إنسانيا يعبر عن الشخصية الإنسانية التي يحاول المؤرخ أن يدرس أدوارها فان وظـيفة الفـنان تختلف عن وظيفة المؤرخ في الكثير من الأمور، وإن كانت تتفق معهـا فـي بعضها، فالفنان يقوم بتوصيل العواطف إلى الآخرين أعنى أنه الجسر الـذي تعـبر عنه العاطفة، ومن هنا فان ذاتية الفنان تطغى دائما على موضوعية البحث العلمي(٥) .

أدب ؟

يـرى أصـحاب هذا الرأي أن التاريخ لا يستطيع أن يعتمد على مناهج البحث العلمـي الخـالص وحدها، وإنما هو مضطر إلى تحرى جمال الأسلوب وبث روح المـؤرخ الشخصية في بحثه والتأثير في الناس بمأثور الكلام ،والتعبير عن أفكارهم وعواطفهـم وأمانيهم عن طريق كتابة القصص والروايات عنهم ثم صهرها وصبها فـي قالب أدبى جذاب، هذا إلى جانب أن تاريخ الشعوب ذو علاقة بالأدب الذي يعد بمـثابة مرآة العصر، ودفة السفينة بالنسبة له ،وأن المؤرخ لا يمكنه أن ينتج عملا ذا قـيمة إلا إذا كـان مـرهف الإحساس قوى العاطفة حتى يستطيع أن يدرك عواطف الآخرين، وفي الحقيقة أن هذا الاتجاه صحيح إلى حد ما فالأدب المصري القديم مثلا يسـاعد الباحث على فهم نواح عديدة من الحياة المصرية القديمة، والتاريخ الايطالى خـلال عصـر النهضة يصعب فهمه دون الرجوع إلى آثار دانتى الأدبية، ومع ذلك فان تأكيد صفة العلمية للتاريخ تحظى بالاهتمام الأول حتى صار الابتعاد عن السجع والألفـاظ الغريـبة والمعانـي المبـتذلة التـي تستعمل للزينة من سمات المؤرخين

٥ – عبد المنعم الجميعي: المرجع السابق، ص٢٣.

المعاصرين، وهذا إلى جانب أن وظيفة المؤرخ الأولى تنحصر في تمحيص الأحداث وربطها وتحليلها وأن يكن ذلك في أسلوب أدبي جميل.

ومــع كــل ذلــك يمكــن القول بأن المؤرخ الناجح هو الذي يجمع بين العلم الخــالص والــذوق الأدبــي الرفــيع؛ فيمكنه أن يتذوق الشعر ليتفهم ملكة الابتكار والإبداع عند الشعراء، ويلم بمذاهب النقد الأدبي وآثار الأدباء ولكن دون أن يتخلى عن المنهج المؤرخ الذي يبحث عن الحقيقة قبل كل شئ، وخاصة أن صب التاريخ في قوالب علمية جافة قد يكون عقيما وجديا.

ولكــي تتضــح الصــورة حول هذا الموضوع المهم نذكر أن مرحلة التأليف التاريخــي تــتكون مــن سلســلة حلقات تبدأ برغبة أولية لدى " باحث في اختيار موضــوع معيــن، ثم يبدأ البحث عن المصادر المتعلقة بموضوعية ثم تتلو عملية جمــع المصادر عملية النقد والتمحيص لها وهى أشبه شئ بعمل القاضي الذي يأتي بالشــهود والرواة فيستنطقهم، ويدقق في شهاداتهم، ويحقق في أفادتهم ثم يستند إلى نتيجة عمله وتحقيقه في الحكم على العصر الذي يدرسه.

وهذه الأحكام التي يطلقها المؤرخ على الحوادث هي الحقائق المفردة التي تتبين لــه مــن الماضي، وهى أشبه شئ بالحجارة المتفرقة التي تحتاج إلى جمع ورصف وتركيب ليكون البناء متكاملا، وأكن كثيرا ما يكون بعض هذه الحجارة مفقودا بسبب ضــياع الوثائق فتظهر فجوات تدفع المؤرخ إلى الاجتهاد والقياس لسدها، ذلك يجب أن يتصــف بــالحذر وتجنب الخيال والتكهن الذي يبعد الباحث عن استخراج حقيقة الماضى بكليتها وجزئياتها.

أمــا المــرحلة الأخيرة من العمل التاريخي فهى مرحلة أدبية فنية ويلجأ إليها المؤرخ عندما يعمد إلى عرض ما توصل إليه ونشره بين الناس، وهنا تتجلى ملكة المــؤرخ فــي حســن الأداء ،وورعة تعبير.ومعنى ذلك أن التاريخ علم من حيث تحقــيقه، وفلسفة من حيث ما يحاول من تفهم كلى وربط للأحداث وتعليل للأسباب والنــتائج، كمــا أنه أدب وفن من حيث العرض والأداء والبيان، وهذا لا يعنى أن صــفة الــتاريخ الأدبية أو الفنية يجب أن تتجاوز صفته العلمية أو تسلبها فالمؤرخ المتمــيز هــو الذي يعرف كيف يكسو العلم الدقيق بالأسلوب الأدبي الرفيع والذوق الفني المتميز(٦) .

٦ – عبد المنعم الجميعي: المرجع السابق، ص٢٤.

ويرى الباحث أن التاريخ هو "علم، وعلم، وعلم".

فهو علم يعتمد على الاستقراء، والتمثيل، والقياس المنطقي، كسائر العلوم الأخرى؛ وذلك لوحدة الجامع في العلوم، فالاستقراء هو تتبع الجزئيات، والأمور المتشابهة؛ ليستفاد منها الكلّي العام.

والهدف من دراسة التاريخ هو تزويد الإنسان بأحكام تمكّنه من أن يفهم معنى الأحداث الحاضرة أو المستقبلية في ضوء خبرته بالماضي.

ولم يعد التاريخ مجرد نظرة إلى الماضي بل أصبح علم يحاول إستقراء المستقبل وبأسلوب علمي.

كان روجر بيكون أول داعية للعلوم التجريبية وصارت دعوته في الفكر الأوروبي ولكن ببطء.

وكان بيكون يهدف إلى تحرير معاصريه من التفكير النمطى المدرسى، ثم جاء ليوناردو دافنشى وهو من طليعة قادة الفكر في عصر النهضة حيث أمتاز بالخروج على الآراء التقليدية المتوارثة، ولأنه يرى ضرورة الحذر من الخيال الذي لا يعتمد على الملاحظة.

وقد ثار فرنسيس بيكون على الأوضاع القديمة في الثقافة بعنف ورمى السابقين بالجهل، ونسب جهلهم إلى عاملين:

١- إن مناهجهم لم تك توصلهم إلى نتائج عملية (أو بالأحرى لم يكونوا يهدفون من وراء مناهجهم الوصول إلى نتائج عملية).

٢- إن المنطق الذين كانوا يعتمدون عليه، ويستقون منه أفكارهم كان المنطق الصوري الذي لا يفيد علما جديدا، انما ترسيخا للمعلومات السابقة وإلزاما للخصم بها، بل العلم الجديد، ينشأ من القياس والتعقل، واستخراج الكليات من الجزئيات، بعد الاستقراء فيها، وتنويعها، والتعقل فيها، وبدون ذلك يظل الاستدلال عقيما، وبدون أساس ثابت.

وكانت فلسفة الشك عند ديكارت الباعث الأساسي في وضع منهج علمي للتاريخ وتخليص العقل من الأوهام والأحكام المسبقة والمشوشة والزائفة.

وجعل ديكارت من العقل ينبوع المعرفة، اذ جعل العقل وحده هو الذي يستنتج نتائج التجارب، (وكان منهجه استنتاجاً من الكل إلى الجزء).

وقد ذهب ديكارت إلى مساواة الناس في العقل واختلافهم في مدى استثماره، والسير به في الطريق الصحيح.

أما كانط[٧] فإليه ترجع كلمة Methodologie، وكان يرى مادام الفرد لم يجد شيئا بوجدانه فإنه يستحيل عليه أن يشعر به ولكن متى يجد البشر الأشياء..؟ إنما يجدها حيث يتأثر بها وطريق التأثر هو الإحساس.

إذا يقول كانط، الإحساس ينبه وجدان البشر ولكنه لا يرى أن الإحساس ذاته الوجدان، إذ يعود ويوضح أن التأثيرات الخارجية التي تفد على الذهن، عن طريق الوجدان لا تعتبر وجدانا بدون وجود قوة في الذهن تنظم هذه التأثيرات وترتبها.

ويعتقد كانط أن وسيلة تنظيم الذهن للتمييز بين حس وآخر، وأثر وغيره هو تصور مفطور عليه الذهن ألا وهو تصور الزمان والمكان. فكلما دخل ساحة الذهن إحساس، ألبسه الوجدان ثوبا من الزمان (الذي ليس سوى تعاقب حدث بعد حدث) أو من المكان الذي هو وجود شيء بعد شيء.

أما هيجل فقد عارض العقلانية الميتافيزيقية بالجدل وعارض المفاهيم المتجمدة بتحولها، وعارض التجريد الأجوف بالمفهوم المادي لغنى الجزئي والفردي فكانت دراسته دليل مسيرة إنسانية في النضوج، إذ إن دراسته تناولت فلسفة التاريخ وتاريخ الفلسفة وفلسفة الدين والمنطق وعلم الجمال وغير ذلك من العلوم المتصلة بها.

أما جون ستيوارت مل(٨) فكان يقوم منهجه على الأسس التالية:

١- اعتمد في وضع قوانينه على (مبدأ العليّة) و(مبدأ الإطراد في الحوادث).
٢- يرى ضرورة التلازم في الوجود بين العلة والمعلول، بمعنى أنه إذا وجدت العلة وجد المعلول.
٣- ويرى ايضاً التلازم في العدم بين العلة والمعلول، بمعنى أنه إذا عدمت عُدم المعلول.
وبتعبير آخر: إذا لم توجد العلة لم يوجد المعلول.

---

٧ - إيمانويل كانط: فيلسوف ألماني، ولد في شمال ألمانيا عام ١٧٢٤ في عائلة فقيرة ومتواضعة. في سن السادسة عشرة دخل الجامعة ليدرس الفلسفة. وفي الثلاثين، حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ثم عين أستاذاً في الجامعة نفسها.

٨ - فيلسوف ومنطقي واقتصادي انجليزي، من دعاة الوضعية. مؤلفاته الرئيسية هي: "نظام المنطق" (1843)، مبادئ الاقتصاد السياسي في مجلدين - (١٨٤٨)، مذهب المنفعة (1864).

٤- يـــريد بالمـــنهج المشترك: أن العلة إذا وجدت وجد المعلول، وإذا عُدمت عدم المعلول.
٥- ويرى أن أي تغير يحدث في العلة لابد أن يحدث في المعلول.
٦- وأن علة الشيء لا تكون علة – في الوقت نفسه – لة لشيء آخر مختلف عنه.

ثـــم جـــاء كلـــود برنارد والذي لا يعترف بسلطان آخر سوى سلطان الظواهر الواقعـــية، وهـــو يـــتحرر من الشهرة الشخصية للسلف، ومن الواجب على الباحثين احترام عقولهم وأن يتخذوا من الظواهر الخارجية محاً لما قد توجهه اليهم العقول من آراء وليس من الممكن ان ينشأ اى علم الا على اساس الجمع بين التفكير النظري وبين الملاحظة والتجربة

ورويـــداً رويـــدا بدأ التاريخ يتخذ كل صفات العلم؛ فالعلم بمعناه الواسع، نتاج لتراكم الفعل الإنساني على مر الزمن وهدف الدراسات التاريخية الحديثة ينصب على تحلـــيل عناصـــر هـــذا الـــتراكم ومكوناته، سعيا إلى فهم الحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

والمعـــروف أن مـــنهج البحث أو الطريقة التي يتبعها الباحث في تنظيم وإجراء بحوثـــه للحصول على النتائج العلمية التي يستهدف الوصول إليها ببحثه، تؤثّر تأثيراً مباشـــراً على النتائج والإنتاج العلميين، فبقدر ما يكون البحث قائماً على أساس منهج ســـليم، تكـــون النـــتائج صحيحة وسليمة من الناحية العلمية، ومساهمة بفاعلية على اكتشاف القواعد والأسس العلمية وصياغتها.

وعـــندما نستعرض صفات المؤرخ سنجد كل تلك الشروط متوفره فيه وبالتالي يتحقق على يديه الدقة العلمية اللازمة لأي علم من العلوم.

صفات المؤرخ (٩)

مـــن صفات المؤرخ الموضوعية والتجرّد عن العواطف، والأهواء، والميول، والاتّجاهات السابقة.

ويتمـــيز المؤرخ الحصيف باستقلال شخصيته، وعدم تسليمه الكامل بكل ما يقرأ ويطلع عليه من وثائق وأوراق؛ بل يخضع كل ذلك لميزان نقدي حساس.

٩ - راجـــع كتابـــت الأســـاتذة الكـــبار مـــن أمـــثال، حســـن عـــثمان، عبد المنعم ماجد، عبد المنعم الجميعي، عاصم الدسوقي الخ.

ولا يسلم المؤرخ تسليما مطلقا بالآراء التي سبق بها والتي أقرها غيره، بل لابد أن يقف عند المقدمات ويتدارسها، فقد تقوده إلى نتائج تخالف ما ذهب إليه السابقون.

ويتصف المؤرخ باتساع الأفق العقلي وتفتح البصيرة؛ فيتحرر العقل والتفكير من التحيز والجمود، والخرافات والقيود التي تفرض على الشخص أفكاراً خاطئة وأنماطاً غير سليمة من التفكير.

والمؤرخ يتسم برحابة الصدر وتقبّل النقد الموجه إلى آرائه من الآخرين، والاستعداد لتغيير أو تعديل الفكرة أو الرأي إذا ثبُت خطأها في ضوء ما يستجد من حقائق وأدلة مقنعة وصحيحة، والاعتقاد في نسبية الحقيقة العلمية، وأن الحقائق التي نتوصل إليها في البحث التاريخي ليست مطلقة ونهائية.

والمؤرخ لا يجامل ولا يتحيز أو يداهن أو يسلك مسلك الدعاية لأحد، بل يكون هدفه الأساسي إظهار الوقائع والحقائق التي تتوف لديه ودراستها وتحليلها وتفسير بواعثها بغرض الوصول إلى جوهر الحقيقة التاريخية وحدها إذ لا يوجد رقيب عليه غير ضميره "اليقظ"، وخاصة أن تاريخا تمليه الأهواء لا يعدو أن يكون صحيفة تدليس، وليس شئ أكثر أفساداً للتاريخ من التدليس فيه.

ومن صفاته أيضاً أنه جلداً صبوراً، محباً للعلم والفن والأدب في وقت واحد ويتصف المؤرخ بحب الاستطلاع والرغبة المستمرة في التعلم والرغبة في البحث عن إجابات وتفسيرات مقبولة لتساؤلاته عما يحدث أو يوجد حوله.

ويتمتع بالهدوء، والتعقل، والإصغاء الجيد للرأي الآخر.

وهو واسع الإطلاع في مختلف المجالات بصفة عامه وفي مجال اختصاصه بصفة خاصة.

ويتسم المؤرخ بأنه ذا عقل واع منظم يستطيع أن يميز بين الغث والثمين وينسق أنواع الحقائق ويضعها في الموضع المناسب.

وهو صاحب إحساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال؛ فأعظم الكشوفات التي أنجزها البشر جاءت وليدة مثل تلك الملكات.

والمؤرخ يمتلك القدرة على التعبير الجيد والقدرة على استنتاج معلومات صحيحة من معلومات غير صحيحة أو مشوشة , وذلك من خلال تتبع مسارات عدم الاتساق والتعويض عن نقص المعلومات غير المكتملة وتخليصها من الضبابية.

وينبغـــي على المؤرخ أن يكون أمينا شجاعاً مخلصاً، فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق ولا يخفي ما يجب إظهاره مهما كلفه الأمر (إلا في حالات الضرورة القصوى).

ويجـــب أن تكـــون للمؤرخ ملكة نقدية فلا يقبل كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصـــدر بغـــير الـــدرس والفحص والاستقراء، فيأخذ الصدق أو أقرب ما يكون إليه ويطرح جانباً ما ليس كذلك

وينبغي أن يكرس نفسه لعمله العلمي في صمت وسكون العلماء، ولا يوزع جهده هنا وهناك دون طائل.

ويتصـــف المؤرخ بعدم التحيز فعليه أن يحرر نفسه بقدر المستطاع من الميل أو الإعجاب أو الكراهية فهو بمثابة القاضي الذي لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذي يصل إليه من البعد عن التحيز والهوى.

ويبحـــث المؤرخ وراء المسببات الحقيقية للأحداث والظواهر والاعتقاد بأن لأي حدث أو ظاهرة مسببات ووجوب دراسة الأحداث والظواهر التي يدركها المؤرخ من حولـــه ويبحث عن مسبباتها الحقيقية، وعدم الاعتقاد في الخرافات، وعدم المبالغة في دور الصدفة.

وعلـــى المؤرخ أن يتحرى مصادر التاريخ ووثائقه عن هواية ورغبة وطموح وحب للتحصيل لا تمنعه المصاعب أو تبعده مصالحه الخاصة عن مزاولة عمله، بل يجب أن يهب نفسه للدراسة التاريخية، ويقوم بترميم ماضي الإنسانية في صمت بقدر اســـتطاعته، ويفـــنى ذاته من أجل البحث عن الحقيقة بتمهل ودون تعجل وخاصة أن كتابة البحوث ليست بالأمر الهين بل هي في حاجة إلى جلد ومثابرة، وفحص وتحليل دقيقيـــن لســـجلات الماضي ومخلفاته أو ما يطلق عليه المنهج التاريخي Historical Method كمـــا أنها تتطلب التعايش مع الموضوع كله ومع أجزائه كي يتمكن الباحث من تأسيس أحكامه بطريقة سليمة.

وأن تكون لديه الخبرة الكافية التي تجعله أقدر على فهم أعمال الإنسان في الزمن الماضـــي، وتقدير الظروف التي أحاطت به، والتي أدت إلى اتخاذه مسالك معينة في مواجهة تيارات أو مؤثرات محددة، وهذا يعنى ضرورة معرفته بالظواهر الاجتماعية والاقتصـــادية والسياســـية التـــي تتصل بالعصر الذي يؤرخ له، والمقارنة بينه وبين العصر الذي يعيشه.

ومن صفات المؤرخ توخي الدقة وكفاية الأدلة للوصول إلى القرارات والأحكام فالدقـــة في جمع الأدلة والملاحظات من مصادر متعددة موثوق بها وعدم التسرع في الوصول إلى القرارات والقفز إلى النتائج ما لم تدعمها الأدلة والملاحظات الكافية.

والمؤرخ لا يكتب اعتباطا فلا بد أن تتوفر له ملكات النقد البناء ولا تمنعه وعورة البحـــث ولا المصاعب ولا العقبات التي تواجهه عن مواصلة العمل، ولا توقفه ندرة المصادر، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع أو اختلاطها أو اضطرابها.

وعلى المؤرخ ألا يتأثر في كتاباته بالمؤثرات الحزبية والسياسية أو بما يعتنق من نظريات وقيم جمالية وأخلاقية وسياسية أو بالظروف الاجتماعية، والطابع الشخصي بقدر المستطاع فالمؤرخ الذي يتميز بالأمانة الفكرية وأن كان ينتمى إلى حزب معين أو إلى وطن معين أو إلى طبقة معينة يستطيع أن يحجب ميوله الكامنة حتى يبلغ أكبر درجـــة من عدم التحيز، فإذا قام بتحليل وثيقة أو نص معين فعليه أن يحمل في ذهنه سؤالا أو مجموعة من الأسئلة توصله إلى الحقيقة دون أن يربط نفسه باتجاه معين ومع أنـــنا لا ننكر أن من العسير أن يتجرد المؤرخ من ذاته أو لعواطفه الوطنية أو لطبقته الاجتماعـــية أو للجـــو الحضـــاري الـــذي عـــاش فـــيه، فإننا نرى أن الاقتراب من الموضوعية، وتمكن المؤرخ من تقمص شخصية موضوعه، والبعد عن كل افتراض ســـابق، والالـــتزام بمناهج البحث العلمي الصحيح، كل هذا يفرق بين المؤرخ الجيد وغيره، ويجعل دراسته أكثر علمية وموضوعية.

ولا ينصب المؤرخ نفسه قاضيا يعيد محاكمة الأشخاص الذين سبق أن صدرت عليهم أحكام معاصريهم ويوزع أحكام الاستحسان أو الاستهجان هنا وهناك وخاصة أن العدالة في الأحكام التاريخية لا تتحقق بسهولة، كما أن هذه الطريقة يمكن أن تقلب الدراسات التاريخية إلى أسلوب من أساليب الدعاية.

وعلـــى المـــؤرخ أن يكون متواضعا، ولا يدعى المعرفة بكل شئ بل يرجع إلى مصادره كلما التبس عليه الأمر للتحقق من معلوماته، ويعيد النظر فميا كتبه كلما عن لـــه جديد أو ظهر شئ في كتاباته يستحق إعادة النظر، فينقد ما كتبه ويصحح ما يجده فـــي حاجة إلى تصحيح، وقد فعل ذلك المؤرخ الإنجليزى "أرنولد توينبى" فنقد كتابه الضـــخم Study of History الـــذي أتمه في عشرة مجلدات في كتاب أسماه "إعادة النظر" Reconsideration وأطرف ما في هذا الكتاب أن نقد توينبى لنفسه كان أقصى من أسلوب الناقد الغريب وخاصة أن المؤرخ أعرف بما يكتبه من غيره، قد قام توينبى

بالبحث عن أخطائه في صراحة وشجاعة فريدة ونجح في ذلك أيما نجاح. وجملة مآخذه على نفسه أنه أخطأ في اعتبار الحضارة اليونانية أساساً للحكم في سائر الحضارات، ولاحظ بعد إعادة النظر فيما كتبه أنه كان شديد الميل إلى التعميم والتوسع في تطبيق الأحكام الشاملة، وأنه أعطى الأساطير التاريخية من العناية أكثر مما ينبغي. ومع ذلك فان نقده لنفسه لم يقلل في نظر الآخرين من قيمة عمله، بل زاده علوا وارتفاعا وخاصة أن كل ما فعله كان اخلاص النظر، واخلاص التطبيق فيما كتبه.

ويجب ألا ينحصر عمل المؤرخ في سرد أحداث الماضي بل لا بد له من أصدار أحكام معيارية لتحديد قيمته، لأنه لا يمكن فهم الماضي ألا من خلال أحداث الحاضر ومشكلاته وخاصة أن المؤرخ ليس بالعبد الخاضع للحوادث، وليس بالسيد المستبد بها بل يجب أن تكون صلته بالحوادث هي صلة الند بالند، وأن تكون علاقته بها متبادلة بين الماضي والحاضر وخصوصا أن الطبيعة الإنسانية كثيرا ما تنطوي على بعض السمات الثابتة.

المهارات اللازمة للمؤرخ

ولابد أن يتوفر في المؤرخ امتلاكه لمهارات التفكير المتعددة:

فالملاحظة مهارة يستخدم فيها المؤرخ حاسة أو أكثر من الحواس التي وهبها الله له، بل ربما الحواس جميعا، فهو يرى ويسمع ويلمس ويشم ويشعر ويفكر ويدرك، ويقارن ويحلل ويعلل ويفسر ويطرح فكرة وينبذ أخري عن وعي وإدراك قوى.

والتصنيف مهارة ويقصد بها تصنيف المعلومات وتنظيمها وتقويمها، وهي مهارة أساسية لبناء الإطار المرجعي المعرفي للفرد، وعندما نصنف الأشياء فإننا نضعها في مجموعات وفق نظام معين في أذهاننا، كالتصنيف حسب اللون، أو الحجم، أو الشكل، أو الترتيب التصاعدي، أو التنازلي الخ.

والمقارنة مهارة وتعني المقارنة بين الأشياء والأفكار والأحداث وفق أوجه الشبه وأوجه الاختلاف، والبحث عن نقاط الاتفاق، ونقاط الاختلاف، ورؤية ما هو موجود في أحدهما، ومفقود في الآخر وتصلح أسئلة المقارنة لتناول الأشياء المحسوسة، والأشياء المجردة والتفسير مهارة وهي عملية عقلية عالية المستوى تتأتى بعد جد وصبر ومثابرة.

وتنظيم المعلومات مهارة ومن ثم تنظيمها مهارة. فالمعلومة إما أن تكون موجودة ويتعين الوصول إليها ومعرفتها، وغالبا ما يكون ذلك بالإطلاع عليها في لغتها الأصلية أو بالترجمة منها، أو لا تكون موجودة ويسعى إلى ابتكارها. وهنا للتفكير باللغة الأم أبلغ الأثر، إذا كان المفكر ملما بدقائقها قادرا على الكتابة فيها وله رصيد كاف منها وكانت تلك اللغة ذات رصيد فعلي ورصيد مفترض إذن فالإلمام باللغات مهارة.

والتلخيص مهارة وهى القدرة على التوصل إلى الأفكار العامة، أو الرئيسة والتعبير عنها بإيجاز ووضوح، وهي عملية تنطوي على قراءة ما بين السطور، وتجريد وتنقيح وربط النقاط البارزة. إنها عملية تعاد فيها صياغة الفكرة، أو الأفكار الرئيسة التي تشكل جوهر الموضوع.

والتطبيق مهارة وتعني استخدام المفاهيم والقوانين والحقائق والنظريات التي سبق أن تعلمها المؤرخ لحل مشكلة تعرض له في موقف جديد. والتطبيق يرقى بالباحث إلى مستوى توظيف المعلومة في التعامل مع مواقف ومشكلات جديدة. وهى فحص قدرة الباحث على استخدام الحقائق التي تعلمها في مواقف جديدة له.

والترتيب مهارة ويقصد بها وضع المفاهيم، أو الأشياء أو الأحداث التي ترتبط في ما بينها بصورة أو بأخرى في سياق متتابع وفقا لمعيار معين.

لابد ان يكون المؤرخ "فنان" مرهف الحس لأنه سوف يستعين بالخيال الخصب لكي يحيي في ذهنه تلك العظام لتنبعث فيها الحياة، ويدرك آراء الغير ونوازع الآخرين ،ويفعل مثل الفيلسوف سقراط " يسأل ويتسائل " ،ويندهش لأن " الدهشة بداية المعرفة " ويشارك رجال الأمس مواقفهم في ساعات التاريخ الفاصلة أو يستنتج في لحظات الصفاء والجلاء قوانين علمية حار فيها بعض العلماء.

وكثير من المكتشفين من توصل إلى نظريات نتيجة لأعمال ملكة الخيال، ومنهم من توصل لاكتشافاته مسترشداً بالعون الذي تلقاه من الحدس والإلهام

وعلى المؤرخ أن يجمع أكبر قدر ممكن من الحالات، والمعلومات، والخصوصيات، والمزايا المتعلّقة بموضوع الدراسة، وأن يقوم بدراسة دقيقة للوثائق أهي صحيحة أو غير صحيحة، قطعية أو ظنّية أو شكّية أو وهمية، حتّى يصل إلى التحليل الدقيق، وأن يقوم بعملية تركيبية، وصياغة المادّة التاريخية صياغة علمية، متجاوزاً مرحلة السرد والوصف إلى التعليل، فإنّ لكلّ شيء سبباً، ولكلّ شيء مسبّباً،

فيتعرّض المحلل التاريخي للوقائع التاريخية مع تناول علل وأسباب يريد استخلاصها، فما هو علّة هذا، وما هو سبب هذا، وما هو المعلول، وما هو المسبّب؟ وأن يصل بذلك إلى أحكام كلّية، وتلك الأحكام الكلّية جارية في السابق، والحاضر، والمستقبل. وبذلك يتمكّن أن يتنبّأ عن المستقبل تنبؤاً علمياً.

مصادر التاريخ

تتعدد مصادر التاريخ وسوف نعرضها كما يلي مع التركيز على المصادر الإسلامية وفق دراسة الدكتور عبد المنعم ماجد(١٠) :

الوثائق :

وتأتى في المقام الأول بين مصادر التاريخ، لأنها تحتوى على مادة تاريخية حية غير قابلة للتغيير، ونقصد بها على الخصوص الأوراق الرسمية في الدول، مثل: الرسائل، ومنشورات الإقطاع، وسجلات العطاء، والأوامر القضائية والمالية، والأحكام، والفتاوى، والمعاهدات، وتقاليد الولاة والموظفين، وما إلى ذلك.

وكانت هذه الأوراق الرسمية تصدر – عادة – عن "الدواوين" أو فروع الإدارة، مثل ديوان الإنشاء والمكاتبات، الذي كان يقوم بتنفيذ أوامر السلطة العليا. وتبدو أهمية هذا الديوان الأخير في أنه كان يصدر معظم أوراق الدولة الرسمية، ويقوم أيضاً مقام دار الأرشيف الحالية في الاحتفاظ بالمهم منها، أو على الأقل بصور خطية لها. فقد كان يوجد في "ديوان الإنشاء"، بجانب وظائف الكتاب الرئيسيين، الذين يتصدون – بحسب مؤهلاتهم – لكل أنواع المكاتبات الرسمية، "وظائف" "الناسخ"، الذي يقوم بنسخ أو تبيض كل ما يرد إلى الديوان أو يصدر عنه، و"الخازن"، الذي يجمع كل نوع من الكتابات الرسمية إلى مثله في دوسيهات أو "أضابير" ويضع عليها "بطائق" مكتوب فيها محتوياتها وإقليمها وتواريخ وصولها، ليسهل استخراجها من أماكنها كلما دعت الحاجة.

وقد كانت أوراق الإسلام الرسمية، في أول الأمر، يُكتب أغلبها في الدواوين بلغات الشعوب التي أخضعها العرب، لأن هؤلاء كانوا في طور البداوة، فتركوا أمور الإدارة إلى أهل البلاد المفتوحة، فكان ديوان الشام يكتب بالرومية أى باليونانية، وديوان مصر بالقبطية، وديوان العراق بالفارسية، وديوان إفريقية باليونانية ولم تُكتب الوثائق كلها بالعربية في البلاد المفتوحة إلا ابتداء من عهد الخليفة الأموي

١٠- أنظر، عبد المنعم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، ص١٧-٣٠.

عـــبدالملك بـــن مـــروان وابنه الوليد، وإن كان ديوان الجيش يكتب بالعربية منذ عمر بن الخطاب.

ومـــع ذلك، فإننا لم نعثر – للأسف الشديد – على معظم وثائق الدواوين سواء أكانـــت مكـــتوبة بغـــير العربية أم بالعربية، على أهميتها الخطيرة في كتابة التاريخ الإســـلامي، ولعل السبب الرئيسي في ضياعها يرجع إلى أن العالم الإسلامي بعد أن كان وحدة سياسية إلى آخر عهد الدولة الأموية في 132 هـــ 750 / ، انقسم على نفسه، نتـــيجة لظهور روح الشعوبية أو القومية عند الشعوب غير العربية التي أسلمت، مما أوجد حركة انفصال وتعصب استمرت حتى فتح الأتراك العثمانيين للشرق في 922 923، 1516 / 1517 فكانت كل دولة تجئ أو تذهب نتيجة للبطش والشدة، مما كان ســـبباً فـــي إتلاف وضياع الأوراق الرسمية، وعليه فلم يبق من وثائق الدواوين غير مجموعـــة قلـــيلة جداً خاصة بمصر، أما وثائق الخلافة الأولى والدول التي انفصلت عـــنها، فإنهـــا لا تـــزال مجهولة لنا تماماً، ولم يتبق منها غير نتف مبعثرة في كتب المتأخريـــن، وإن كـــان الأمل يراودنا دائماً في العثور عليها. إننا يجب ألا نتردد في البحـــث عن الوثائق ونشرها بأقصى سرعة، وجمع ما يوجد منها في كتب المتأخرين، اذ أن الباحـــث فـــي التاريخ الإسلامي لا يهتدى إلى الحقيقة السليمة إلا بها. وقد فطن ابـــن خلدون، إلى أهمية المستندات الرسمية، فدعا إلى تصفح أوراق الدواوين، عند كتابة التاريخ.

الآثـــــــار :

وهى مثل الوثائق الرسمية في القيمة، فهى الماضى الحى تحت أعيننا.

وقـــد كـــان للعرب آثار كثيرة قبل ظهور الإسلامي في مواطن استقرارهم في أطـــراف الجزيـــرة: ففـــي بادية الشام نجد حتى الان آثار مملكة النبطيين وعاصمتها "البـــتراء" فـــي شـــرق الأردن بالقرب من العقبة، وآثار مملكة الآراميين وعاصمتها "تدمـــر" بالقـــرب من حمص، وآثار مواطن العرب الجنوبيين في "معين" و"سبـــــا" وغيرهما من مدن اليمن، أما في الحجاز، فإن أهم آثار العرب الكعبة في "مكة".

ولمـــا جـــاء الإسلام وانساح في بلاد عديدة امتدت آثاره في معظم البلاد التي تم فتحها، من أقصى الغرب في إسبانيا إلى أقصى الشرق في التركستان. فنجد في طول هذه المنطقة وعرضها ثاراً تجلو لنا إلى درجة بعيدة طابع الدين الجديد، مثل: المساجد ودور الإمارة والمشاهد والقلاع. وقد حدث سباق عجيب بين ملوك الإسلام في البناء،

فاستعانوا بكل مؤهلات رعاياهم السابقة في المعمار، مما أوجد ابتكاراً، وميز آثار بعض المناطق في طرازها وكثرتها عن غيرها، فنحن نستطيع أن نبحث عن حضارة الأمويين في آثار الشام، وحضارة العباسيين في آثار العراق، وحضارة الفاطميين أو المماليك في آثار مصر.

ولكن الآثار وهى تصلنا مباشرة بالتاريخ، وتعتبر شواهد فصيحة للحياة السابقة – وإن كانت صامتة – لم تدخل في مصادر القدامى التاريخية، وإنما جاء الإهتمام بها حديثاً لتكون ضمن مصادر التاريخ الأولى. وإذا لم تكن لدينا – حتى الآن – بحوث وافية عن الآثار الإسلامية من الناحية الحضارية، لأن معظم الكتب التي تناولتها كانت تكتفي بالكلام عن التاريخ المعمارى فإنه يجب علينا العمل على سد هذه الفجوة، وتعويض هذا النقض، إستكمالاً للمادة الصحيحة في تاريخ الإسلام. وقد نبه ابن خلدون، في فصل مستقل في مقدمته، إلى أن الآثار تكون على نسبة قوة الدولة، مما يدل على قيمتها في فهم التاريخ الإسلامى.

النقوش :

ويقصد بها صور حروف الكلمات وأوضاعها وكيفية تركيبها، وهى كالوثائق والآثار تُعتبر بين المصادر في الطبقة الأولى، ويُعتمد عليها في البحث التاريخي الإسلامي اعتماداً عظيماً لأهميتها.

وقد عُرف النقش منذ قديم الزمان في مواطن استقرار العرب، في أطراف الجزيرة العربية في الشمال والجنوب: ففي الشمال في بادية الشام وجدت نقوش على الأحجار والقبور تنتمى إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وهى مكتوبة بما يسمى الخط اللحيانى والثمودى، لعدم وجود الخط العربى، وإن وجدنا فيها بذور الحروف الأبجدية العربية، أما في الجنوب، وفي اليمن على الخصوص فقد وجدت النقوش على لوحات البرنز، وجدران المعابد وأعمدة الرخام، والمقابر، مكتوبة بالخط السبئى والحميرى، أو ما يُعرف بالخط المسند، وهو يختلف عن الحروف العربية، ويمت بصلة إلى الحروف الأثيوبية.

ولما جاء الإسلام أصبح الخط العربى أساس النقش في الأمم التي غزاها العرب، بحكم كونه الخط المقدس الذي كتب به القرآن والحديث، ثم صار أساس النقش في كل البلاد الإسلامية في العصور الوسطي ،حتى غلب على خطوط سوريا ومصر وفارس والمغرب والأندلس، وتعدى حدود الهند والصين، بل إن بعض الخطوط القديمة، مثل: القبطية والآرامية والسريانية والفارسية واليمنية وغيرها، انعدمت أمامه.

وتــروى روايات العرب أن أول من كتب بالعربية إسماعيل، جد العرب، ولكن مــن المؤكد أن اللغة العربية لم تقم لها قائمة في التدوين إلا بظهور الإسلام. وقد كان أســاس الــنقش العربى، في أول الآمر، الخط الكوفي: وهو الخط المربع ذو الزوايا، نســبة إلى مدينة الكوفة العراقية، ثم تطور هذا الخط فاستنبطت منه عدة أقلام، أهمها في النقوش: الخط المستدير أو النسخى والرقعة والثلث والمغربى.

ومــن المحقــق أنــنا لا نجد من النقوش عند أمة من الأمم مثل نقوش الحضارة الإســلامية. فقد فهم الفنانون المسلمون القيمة الزخرفية للحروف العربية، فملئوا بها قطــع الخشــب والــزجاج والخزف والمعادن والأحجار. وإن يكن فك رموز النقش العــربى مــن الصعوبة بمكان، لآن الفنان المسلم كان يتلاعب بالحروف ويدور بها ويصــعد وينزل، ويعطيها حقها في القصر والطول والرقة والغلظ والفصل والوصل: حــتى يُخرج منها تحفة فنية، وقد يظن القارئ للنقوش العربية، لأول وهلة، أنه غير مستطيع أن يقوم بفك رموزها، ولكن سرعان ما يتعود عليها بالمران والصبر.

ومع ذلك، فإن أغلب النقوش الإسلامية لا تعطى القيمة التاريخية التي تعطيها النقوش اليونانــية أو اللاتينية مثلاً، لأن شرائط الكتابة في المساجد والقصور والقلاع أو حتى على أوانى الشرب والأسلحة والرايات والمنسوجات، معظمها يدور حول صيغ دينية، فهى إما آيــات قرآنية أو أحاديث أو حكم أو تكرار لنمط واحد من الكتابة الدينية. وإن كانت بعض الــنقوش لــنمط واحــد من الكتابة الدينية. وإن كانت بعض النقوش العربية – مع ذلك – تشتمل على أوامر وألقاب وتواريخ تكون بمثابة الأوتاد في البحث العلمى التاريخي.

وعلــم الــنقوش لم يدخل – هو الآخر – في مصادر التاريخ الإسلامي – مع أهميته – إلا حديثاً، بفضل ما قام به علماء الغرب من المستشرقين، الذين جمعوا منها عــدداً كبــيراً في طول بلاد الإسلام وعرضها، فهؤلاء لم يكتفوا بجمع صيغ النقوش وترتيــبها ترتيــباً أبجدياً، في مجموعات بحسب المدن أو البلاد، ولكنهم عملوا أيضاً على تصويرها ووضعها تحت أعيننا، بحيث نستطيع أن نشترك في فك رموزها. إن الــنقوش الإســلامية من المصادر الأولى، لعلم التاريخ، ينبغى أن تدخل في حساب مؤرخى الإسلام الحديثين في الشرق.

المسكوكات :

وهــى تشــمل العملــة الرسمية في الدولة الإسلامية، فهى تساعدنا على ضبط التواريخ والاسماء، وتلقى ضوءا على التطور السياسى والدينى والإقتصادى.

ولم يكن العرب في أول عهدهم يعرفون العملة إلا في يد تجار قريش أو في قول الشـــعراء، وإن عرفتها ممالكهم في الأطراف، مثل: اليمينيين واللخسيين والغساسنة. ومع ظهور الإسلام وانسياحه في أقطار كثيرة، بقيت العملة المتدأولة هى العملة التي كانـــت ســـائدة في هذه الأقطار من قبل، ولم تستعرب هذه العملة إلا في عهد الدولة الأموية عل يد عبد الملك بن مروان، الذي أمر أن تسك باسمه وأن تُنقش بالعربية.

وقـــد اتخذت العملة في جميع البلاد الإسلامية– حتى بعد أن تعددت دوله وخلافاته – اســـم "السكة". وهذه الكلمة على حسب قول ابن خلدون، تدل على خاتم الحديد الذي كانـــت تُطـــبع عليه العملة أو تُضرب عليه بالمطرقة، ولذلك فإن لفظة: "السكة" كانت تُطلق أيضاً على الدار التي تصنع فيها العملة، فسميت: "دار السكة" أو "دار الضرب".

وقـــد كانت العملة الإسلامية على أنواعها: ذهبية وفضية ونحاسية، يُنقش على أحـــد وجهيها الصيغة الدينية، التي تشتمل على عقيدة الدولة الدينية، فمثلاً عند الشيعة كانـــت الصيغة الدينية التي تُنقش على العملة " لا إله إلا الله " محمد رسول الله، عليّ ولـــيّ الله " وعلى الوجه الآخر يُذكر اسم الخليفة ،وأحياناً اسم الوزير، وقد يُنقش اسم ولى العهد، كما كان يؤرخ للسنة التي ضُربت فيها العملة، ويُكتب اسم بلد الضرب.

كذلك عرفنا بوجود عملات خفيفة ذات شكل أنيق، تُضرب في مناسبات الآعياد، مـــثل: العملـــة التي كان يضربها الفاطميون في مصر في أول العام الهجري وتسمى "الغـــرة" والعملـــة التـــي كانت تُضرب برسم خميس العهد – عيد من اعياد القبط – وتسمى "حروبة".

وقد أدرك مؤرخو الإسلام القدامى أهمية النقود في دراسة التاريخ، فأرخوا للنقود الإســـلامية، وإن كان هذا الاهتمام لديهم لم يُعرف على نطاق واسع، كما أن استغلال العملة في مصادر التاريخ كان أغلبه عرضاً، دون تعليق وتفسير واستنتاج، ولعل أهم مـــا وصـــلنا مـــن المؤرخينفي الإسلام عن النقود، من المؤرخ المصرى المقريزى (845/1442)، الـــذي صنف كتاباً بعنوان: "النقود الإسلامية" يشتمل على معلومات عن النقود في الفترة السابقة على الإسلام، وفي الدول الإسلامية، ولا سيما في مصر، حتى زمنه.

أمـــا فـــي العصر الحديث، فقد ازداد اهتمام المؤرخين الحديثين بالنقود كمصدر للبحث في التاريخ الإسلامي. فنجد أن الدول الشرقية – وحتى بعض الدول الغربية – التـــي اهتمت بعلوم الشرق، قد جمعت العملة الإسلامية وأفردت لها صالات العرض

فـــي مكتباتها، ووضعت لها الجدأول الخاصة الدقيقة، حتى تفيد الباحثيين في التاريخ "كذلـــك عمـــد المستشرقون إلى التأليف عن النقود، الذي أطلقوا عليه": علم النميات"، ويقصـــدون به العلم الذي يتناول المسكوكات بما فيها النقود، واستفادوا به في أبحاثهم التاريخية عن الإسلام.

الآثار القلمية :

وهى ضرورية للتاريخ الإسلامي، ولا يمكن أن يقوم بدونها: فهى له اللحم الذي يكســـو الهيكل العظمى، وإن كنا سنترك الأرض الصلبة، إلى بحر مملوء بالعواطف البشرية.

وهـــى تنقسم إلى نوعين: أصلية وفرعية: فالأولى - وهى الأهم - عبارة عن النتائج الأصلي لمؤرخي الإسلام القدامى، ينقلون فيها حوادث معاصرة، أو يعتمدون علـــى مصـــادر معاصـــرة، ليس من السهل الرجوع إليها، والثانية عبارة عن الكتب الحديثة التي ألفها المستشرقون أو المؤرخين الحديثون في الشرق، حيث تُعتبر مصادر التاريخية الثانوية، وتأتى في المقام الثاني بالنسبة للمصادر الأصلية، بسبب اعتمادها عليها أو على المصادر الأخرى من وثائق ونقوش وآثار... الخ.

ومـــن المحقـــق أن العـــرب في جاهليتهم وفي أوائل الإسلام لم يقوموا بتدوين الـــتاريخ، وإنما كانوا يحفظونه في ذاكرتهم، ولم يكن ذلك لأنهم كانوا يجهلون الكتابة، ولكن لتحبيذهم الحفظ على الكتابة، فهذه الأخيرة لم تكن وقتذاك لتعطى صاحبها تفوقاً فـــي المجتمع أكثر مما تعطيه ملكة الحفظ. فكان تاريخ العرب الأول وهو عبارة عن: وقائع وأيام وغزوات محفوظاً في الذاكرة يرددونه على ألسنتهم، وأعانهم على حفظه بيئتهم الصحراوية الطليقة، التي ليس فيها تعقيد وتُنسب للنبى أحاديث - كذباً أو صدقاً - أنه نهى عن الكتابة، لكى تُبقى العرب على ملكة الحفظ.

ولكـــن بعـــد أن ابـــتعد العرب عن بيئتهم وتفرقوا في الأرض للفتح والغزو بين شعوب لأتكلم لغتهم، ضعفت ملكة الحفظ عندهم، وظهرت حاجتهم إلى التدوين. ففي أواخـــر القـــرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري، كان العرب في حاجة ملحة إلى ضبط ونقل أحاديث النبي والسير والأحوال، ليصلح الناس في أمور دينهم، وكان هذا بدايه تدوين التاريخ الإسلامي. وإن كان التدوين في التاريخ لم ينتشر إلا حينما تحول أهـــل الـــبلاد المفـــتوحة إلـــى الإسلام، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية، حيث كانت حضـــارتهم الســـابقة تساعدهم على تذوق التاريخ. فكان معظم المؤرخين الأوائل في

الإســـلام هم المستعربون من العجم، لأن العرب في أول الأمر كانت تلحقهم أنفة من انـــتحال العلم، لكونه من جملة الصنائع ولقد جهر بذلك ابن خلدون، حيث أنه ذكر في مقدمته فصلاً بعنوان "إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم".

وقــد كـــان أول مـــا دون في التاريخ الإسلامي – بطبيعة الحال – يعتمد على الذاكرة الإنسانية، ليعد التدوين عن أخبار الجاهلية والعصر الإسلامي الأول. وأن من يقرأ ما جمع من الذاكرة العربية، يتجلى له أن أغلب التاريخ الأول مستمد من السماع والمشاهدة. ولذا لجأ المؤرخون الأوائل إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما يعرف: "بالآسانيد" جمع "سند" بمعنى رفع القـــول إلـــى قائله. فكان الحفاظ هو الوسطاء بين الحقيقة التاريخية والمؤرخ، وهي طـــريقة للإجماع على صحة الخير. وهذه الطريقة عينها في التاريخ كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية، ليطمئن جامعو الأحاديث إلى اتصال الأحاديث بالرسول، ممـــا يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث في أول تأليفه، بل أن التاريخ كان يجمع بين نفـــس رواة الحديـــث في سلسلة من الإسناد الموثوق بهم، ومن ناحية أخرى، اعتبر الـــتاريخ نفســـه مـــن وسائل الحديث في "الجرح والتعديل'، بالكشف عن أقوال رواة الحديـــث والتمييز بين أهل الغفلة والوهم وسو الحفظ والكذب والاختراع في الحديث. ويبين السخاوى) ت (1497 / 902 .

هـــذه الصـــلة بيـــن التاريخ والحديث في قوله: إنه لم يستعن على الكذابيين في الحديـــث بمثل التاريخ؛ ولكن بعد انتشار التدوين وتمكن التاريخ في النفوس، لم يبق المـــؤرخ الإســـلامي يعـــتمد على الذاكرة وحدها في كتابة التاريخ، وإنما رجع إلى المؤلفات المدونة قبله من كل لون.

كمـــا أن الرواية المسندة – التي أعتبرت في العصر الأول من المدين – لم تعد تكفـــي في نقل الحقيقة التاريخية، لأنها لم تكن تحمل من الحقيقة إلا صداها، دون أن تحيط بظروفها، لضعف طاقة الذاكرة الإنسانية. وعلى هذا تحول المؤرخ الإسلامي مـــن مجـــرد "إخـــباري" – كما كان يُطلق عليه في أول الأمر – غرضه استيعاب الأخـــبار، والمحافظة على كيفية اتصاله من حيث رواتها، إلى البحث عن الخبر في ذاته، زيادة في تحرى الحقيقة.

وهكـــذا أصـــبح تطـــوراً جديداً في كتابة التاريخ إذ تخلص التاريخ من طريقة الحديـــث، إلى مجال أوسع مستقل، ازدهر فيه منهاجه، فابن خلدون يهاجم المؤرخين

الأوائل، لاعتمادهم على مجرد نقل ما رأوه أو سمعوه من أهله ومن غير أهله، وعدم تأمل الحقيقة في ذاتها ومناقشتها وإعطائها عللاً وأسباباً

كذلك استتبع التحول عن جمع الخبر إلى الخبر في ذاته، تغيراً أيضاً في أسلوب التاريخ، فبعد أن كان التاريخ يجمع معظمه في هيئة شعر، لأن الذاكرة كانت أقدر على حفظه، أو في جمل قصيرة جافة دقيقة، الواحدة بجانب الأخرى بدون ربط، أصبح أسلوبه مرسلاً يكاد يخلو من الشعر فيه حلاوة وطلاوة. ومع ذلك، فإن المؤرخين المتأخرين لم يكونوا يستطيعون أن يكتبوا التاريخ دون أن يذكروا المصادر التي استقوا منها معلوماتهم، وبدلاً من قولهم فلان وفلان، ذكروا الكتب التي أخذوا منها حقائقهم، كما هو الحال في وقتنا الحاضر. وهذا الذي ذكرناه يدل على فضل المسلمين - ولا ريب - في وضع أسس هذا العلم والإسهام في تطوره، كما وضعوا أسس غيره من العلوم.

هذا - وفي الواقع - لم يشتغل بالتأليف في التاريخ كالمسلمين، ذلك لأنهم اعتبروه من أحسن العلوم وأشهاها، فألف فيه فحول المؤرخين الاف الكتب التي أعطوها عناوين مختلفة، تدل على محتوياتها، وقد كان أغلب ما ألف في التاريخ، في أول الأمر، بقصد المنفعة والعبرة، والحصول على ملكة التجارب، حيث كانوا يرون في كتاب الله مثلاً يُقتدى به، فقد قص القرآن كثيراً من أخبار الأمم الماضية للتذكرة والعبرة، لذلك كانت المؤلفات الأولى بتوسع فيها بذكر أخبار الأرض من هبوط آدم، وقصص الأنبياء، وأحوال القيامة ومقدماتها، وسيرة الرسول الذي حمل رسالة الإسلام، بقصد الفائدة. وأغلب هذه المؤلفات العامة مناهج نجدها - على الأخص - بعناوين "أخبار" و"سبتر" و"مغازى" و"تاريخ" و"فتوح"، ومعظمها مرتب على نظام الحوليات والموضوعات.

ولكن ظهرت فيما بعد رغب عند المؤرخين المسلمين، في تقصير هذه المؤلفات العريضة، والتصرف فيها بالتقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، لأن أغلبها مطول يحتوى على تكرار ضائع وعلى سلسلة من الأسانيد المفصلة، التي لا لزوم لها. كما ظهرت الرغبة في العدول عن الإطلاق في الأخبار والنظرة الشاملة إلى التقيد والاقتصار على جزء معين من التاريخ. وإن كانت هذه الكتب لم تلق قبولاً في نفوس بعض علماء المسلمين القدامى، بحيث أنه شبه من يقدم على ذلك: بمن أقدم على خلق سوى، فقطع أطرافه، وتركه أشل اليدين، أبتر الرجلين، أعمى العينين، أصم الآذنين، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً. ونجد أغلب الكتب المختصرة - على

الأخـــص – بعناوين "مختصر" و"ذيل" و"شرح" و"حاشية"، لتدل على اعتمادها على مصـــدر سابق ومن ناحية أخرى، كان التاريخ يكتب لأبقاء الذكر، بحيث أنهم رددوا عـــن النبي قوله: "من ورَخ مؤمناً، فكأنما أحياه" كما اعتبروا إنفاق الملوك والأغنياء علـــى المصـــانع والحصون لا يعادل إبقاء الذكر في التاريخ، مما يزيد من فضل هذا العلـــم. ونجـــد أغلب الكتب التي تختص بهذا القصد، بعناوين: "الأنساب" و"التراجم" و"الطبقات" و"الوفيات" و"المعاجم" ومعظمها ينظر في المواليد والوفيات.

كذلـــك ربـــط المسلمون التاريخ بكل العلوم، مثل: الأدب والسياسة، والإجتماع، والفقه، والجغرافيا، والرحلات، فكان بحق علم العلوم، ويتبين من أسماء الكتب التالية صـــلة الـــتاريخ الواصـــمة بـــالعلوم، التي قد لا تكون دائماً من صميم التاريخ، مثل: "غرائـــب" و"تحفـــة" و"عقود" و"در" و"نزهة" و"روضة" و"حديقة" و"حسن" و"حقائق" و"خـــريدة" و"خطـــط". وقد كانت هذه الصلة العامة سبباً في أن صار للتاريخ أعداء بالغوافي الزراية عليه، وأدعو أنه ليس بعلم محدد المنهج، وأن غاية فائدته: "إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفته الأحاديث والأسمار".

كـــل هذا يبين لنا شغف المسلمين بالتاريخ، وإن كان للأسف الشديد ـــ لم يصلنا معظم ما كتبوه، وإنما الذي وصلنا مع كثرته – بقية قليلة جداً لا تُقاس بما كتبوه.

فقد حدث لكتب التاريخ ما حدث للوثائق، ذلك لأن نضال الدول التي تعاقبت في الإســـلام لـــم يقف عند سفك الدماء البشرية، ولكن تناول أيضاً البطش بالكتب. فمثلاً العـــداوة بين السنة والشيعة كان لها دخل في ضياع كتب هذه الأخيرة في مصر. فبعد ســـقوط الدولـــة الفاطمـــية في 567/1171 ، أخذت الدول اللاحقة التي تولت بعدها، وبخاصة الأيوبيين، الذين كانوا أكثر تحمساً للسنة من غيرهم، تعمل على محو مظاهر الشـــيعة من مصر، وعلى الأخص كتبهم، بحيث أن دولة الأيوبيين حددت لبيع الكتب فـــي القصـــر الفـــاطمى كـــل أسبوع يومين. كذلك كانت غزوة المغول للشرق في 652/1254، ســـبباً في إتلاف كتب أعلام الإسلام في بغداد بحيث أن جنود هولاكو) هولاجو (عبرت دجلة والفرات على جسور من الكتب، ومع ذلك فإن القليل الذي بقى لديـــنا من تراث المسلمين التاريخي، يُعتبر الأساس الذي يقوم عليه البحث في تاريخ الإسلام، وهو وإن كان لا يقف على قدم المساواة مع الوثائق أو الآثار المادية من آثار ونقـــوش ومسكوكات، لاحتماله الصدق والكذب ولتفاوته في القيمة، فإنه في الواقع – منبع لا ينضب للتاريخ الإسلامي، لاحتوائه على مصادره الأصلية.

ولكن بجانب هذه الكتب القديمة من فحول المؤرخين في الإسلام توجد كتب حديثة، وهي على نوعين: ماكتبه المستشرقون، وما كتبه الحديثون من مؤرخي الإسلام، وإن كان ما كتبه المستشرقون حتى الآن، هو الأهم.

ونقصد بالمستشرقين العلماء الأجانب، على الأخص في أوروبا الذين تعرضوا لعلوم اشرق، ولا سيما التاريخ الإسلامي، فهؤلاء قاموا في تاريخ الشرق، بما لم يقم به علماء الإسلام الحديثين حتى الآن، فنشروا الأصول التاريخية القديمة نشراً صحيحاً، مع إصلاح أخطائها وتفسير معجماتها: كما أنهم وضعوا المؤلفات الدقيقة التي لا يمكن تجاهل قيمتها العلمية من ناحية كون التاريخ علماً للتفسير والتحليل

العلوم المساعدة للمؤرخ [١١]

اللغات :

اللغات من أهم العلوم المساعدة التي ينبغى أن يتزود بها الباحث في التاريخ، فلا بد أولاً من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخي المراد بحثه والكتابة عنه، لأن الترجمات التي تكفي لتحصيل الثقافة العامة لا تفي حاجة المؤرخ للتوفر على تفهم الناحية التي يريد أن يتناولها.

والراغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ اليونان القديم لا بد له من معرفة اللغة اليونانية القديمة، والراغب في الكتابة عن موضوع من تاريخ العصور الوسطى في أوروبا يلزمه أن يكون عارفاً بلاتينيتها، ومن يرغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ عصر النهضة[١٢] لا بد له من معرفة اللغة الإيطالية، وهكذا، وتتفاوت أهمية اللغة الأصلية بالنسبة للموضوعات التاريخية المختلفة.

١١- من بين عشرات الكتب التي تناولت هذه النقطة لم أجد أروع ولا أمتع من عرض الأستاذ الدكتور حسن عثمان: منهج البحث التاريخي . ط٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ م ، ص٢٥ – ٥٢ .

١٢- مصطلح يطلق على فترة النتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون ١٤ – ١٦ ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث اليونان والرومان. كما يدل مصطلح عصر النهضة على التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن ١٤، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين ١٥ و١٦، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وهولندا وانكلترا وإلى سائر اوربا. أزدهر شأن النهضة الإيطالية إذ وجدت لها أنصارا يصرفون عليها المال الوفير، مثل أسرة ميديشي في فلورنسا وسوفرزا في ميلانو والبابوات في روما. بلغت البندقية ذروة عظمتها الثقافية في أواخر القرن ١٦. من أعظم شخصيات النهضة في المجال الفني ليوناردو دافنشي ومايكل أنجيلو وميكيافيلي. كان لهذه الحقبة تأثير واسع في الفن والعمارة وتكوين العقل الحديث وعودة واعية للمثل العليا والأنماط الكلاسيكية. في هذه الفترة تم أكتشاف أراضي وشعوب جديدة حيث أتسمت هذه الفترة بظهور طائفة كبيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين منهم الأمير هنري الملاح وكرستوفر كولومبوس وفاسكو دي كاما.

فالراغب مثلاً في الكتابة عن ناحية من الثورة الفرنسية الكبرى (اندلعت أحداثها عــام ١٧٨٩م)، تكــون اللغة الأصلية بالنسبة له هي اللغة الفرنسية – لا اللاتينية – التـــي لا داعي للتعمق في دراستها في هذه الحال، ومن الأفضل له أن يُنفق جهده في تعلــم لغـــة أوروبـــية أخرى بعد الفرنسية، ولكن اللاتينية تُعد لغة أصلية ضرورية بالنسبة لمن يرغب في دراسة تاريخ الكنيسة حتى في العصر الحديث.

وكلمـــا تعـــددت اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة التي يُلم بها الباحث اتسع أمامــــه أفق البحث والاستقصاء. فعليه أن يكون حريصاً على دراسة ما يلزمه منها مهما كانت قديمة أو صعبة أو نادرة مثل اللغة المصرية القديمة أو اللغة الصينية أو العربية أو الفارسية أو الروسية .... حتى يستطيع الرجوع إلى الأصول والمصادر التاريخـــية الأولى، وهذه كلها أدوات أساسية لا يمكن بغيرها السير قُدمًا في سبيل البحث التاريخي العلمي.

وكذلـــك ينـــبغي علـــى الباحـــث في التاريخ أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوروبـــية الحديثة الشائعة الاستعمال كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأســـبانية، وإن قصـــر في معرفة بعضها فيمكنه أن يواظب على دراستها، حتى يـــبلغ المســـتوى الـــذي يتيح له فرصة الإفادة بها. وهذه لغات غنية بتراثها الأدبى والتاريخـــي، ويجتذب انتشارها كثيراً من الباحثين في التاريخ إلى التأليف فيها، ولا يجـــوز أن يفـــوت المـــؤرخ الـــثمرات التاريخية التي تنتظمها هذه اللغات كلها أو بعضها.

وقـــد تـــبدو مسألة تعلُم اللغات – الأصلية أو العامة – أمراً عسيراً – وربما تجعـــل أشـــجع الـــناس يتردد في الإقدم على دراستها، ولكنها دراسة أساسية لمن يرغـــب جديـــاً فـــي دراسة التاريخ وكتابته. ويحسن الدارس أن يبدأ في دراسة ما يلـــزمه من اللغات في أثناء وجوده بالمعاهد النظامية. وليس هناك ما يمنعه من أن يـــتعلم لغـــة ما، وفي أى وقت شاء من حياته ،وإن دراسة سنتين في إحدى اللغات الجديـــدة على الباحث كافية كأساس مبدئى يستمر بعدها في المزيد ــ ويا حبذا لو أمكنه قضاء بعض الزمن، وفي فترات متتابعة، في بلد تلك اللغة الجديدة عليه.

الفيلولوجيا Philology :

والفيلولوجـــيا philology – فقـــه اللغـــة – مـــن العلوم المساعدة الضرورية لدراســـة فـــروع كثـــيرة من التاريخ، وكلما بعُذ العصر الذي هو موضوع الدرس

ازدادت أهمــية الفيولوجيا، وإذ لا بد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصـــر التاريخي المعين، وليست اللغة علامات جبرية أو أرقاماً حسابية تُستخدم كمــا فـــي العلوم الطبيعية للدلالة على معان وكميات محددة، ولكن اللغة كائن حى يــنمو ويتغــير ويــتطور تبعاً لظروف المكان والزمان، ولتغير الإنسان، واختلاط الــثقافات، وفـــي بعض الأحيان قد يدل اللفظ اللغوى على معنى محدد تماما ،كما يمكن أن يدل اللفظ اللغوى على معان نسبية أو متغيرة أو متضادة.

وقــد تــدل كلمة واحدة على معان متفاوتة أو مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه. وتبدو هذه الظاهرة شديدة الأهمية في دراسة التاريخ ــ كما في غيره مـــن الدراسات وعلى الأخص في الدراسات الأدبية، وبذلك فلا بد من معرفة اللغة التــي يقــرأ فــيها دارس الــتاريخ، فضلا عن الدراية بما نال ألفاظها من المعانى المتفاوتة أو المختلفة، حتى لا يفسر ما يقرأ على غير حقيقة.

علم قراءة الخطوط (paleography):

وعلــم قــراءة الخطوط من العلوم الأساسية نواح كثيرة من التاريخ، منذ أقدم العصـــور حـــتى أزمـــان متأخرة، وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الشرقية تبقى كالطلاســم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها، ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتُجنبه الوقوع في كثير من الخطأ. وتتضح أهمية هذه الدراسة في فروع عديـــدة مثل تاريخ مصر القديم، وتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام، وتاريخ اليونان، وتاريخ الرومان، وتاريخ العصور الوسطى، والتاريخ الأوروبى الحديث حتى جزء مـــن القـــرن السابع عشر، وتاريخ الشرقى الأدنى حتى القرن التاسع عشر، وذلك بالنسبة للغات التي تتعلق بهذه الموضوعات، أما بعد ذلك فتصبح الخطوط واضحة مقروءة.

ولقــد نمت الخطوط العربية – مثلاً – وتطورت وكُتبت بأشكال مختلفة فمنها الطومـــار، ومـــنها النسخى والرقعة والثلث والكوفي والفارسى والمغربى والغُبار وتوجد أنواع لكل من هذه الخطوط يحتاج قراءة بعضها إلى التعليم والتدريب. وفي الشرق الأدنى العثمانى– حيث كانت اللغة التركية العثمانية تُكتب بالحروف العربية – كُتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط، مثل الخط الديوانى، وخط القيرمه، وتستلزم قـــراءة هذيـــن الخطيـــن تعلــيماً خاصاً، وخط القيرمه مثلاً خط معقد كثير الزوايا والثــنايا، ويمكـــن أن تُكتب به معلومات كثيرة في حيز ضيق، فضلاً عن الأرقام

الخاصة به، ولقد أوجده العثمانيون لتحرير الشؤون الإدارية والمالية، ولكى يحيطوا محفوظاتهم بالكتمان والسرية.

ومجموعات وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة ــ مثلاً ــ تحتوى على آلاف الوثائق عن تاريخ مصر المإلى والأدارى في العهد العثمانى وفي عهود محمد على وخلفائه وأغلبها مدون باللغة التركية وبخط القيرمه. وكذلك توجد مجموعات لا تُحصى من الوثائق المدونة بهذا الخط في تركيا وفي كثير من المناطق التي خضعت للإمبراطورية العثمانية، وستظل معلوماتنا عن هذه القرون الطويلة قاصرة وناقصة حتى يوجد من يتعلم قراءة خط القيرمه، ويتمكن من دراسة ما تتضمنه مخطوطاته من المعلومات على مدى سنوات طويلة.

ونجد الخطوط الاوربية – مثلاً – قد نمت وتطورت واختلفت من عصر إلى آخر، وطرأت على كتابتها تغييرات مستمرة على الحروف الصغيرة وعلى الحروف الكبيرة، ونشأت خطوط خاصة في أوقات معينة، ووجدت اختصارات لبعض الألفاظ، مثل كتابة الجزء الأول من الكلمة أو من أجزائها، وأحياناً وُضعت علامات فوق الحروف للدلالة على كلمة ما. فلا بد من دراسة الخطوط اللازمة للباحث في التاريخ، حتى يمكنه الرجوع إلى الوثائق التي دُونت بها.

وتوجد أحيانا وثائق أوروبية أو غير أوروبية ــ كتبها سفراء الدول وقناصلها ومبعوثوها إلى حكوماتهم بالأرقام (الشفرة)، وذلك لإخفاء مضمونها عمن يُحتمل أن تقع في أيديهم من الأعداء أو غير المرغوب فيهم أن يطلعوا عليها من غير الأعداء. فينبغى أن يلم دارس التاريخ بالطريقة التي تُمكنه من حل رموز هذه الأرقام (الشفرة)، بواسطة المفتاح الخاص بها، إن وجد في دار المحفوظات التاريخية أو (الأرشيف) الذي يعمل به.

ويوجد بالأرشيف الواحد أكثر من مفتاح واحد بطبيعة الحال وتبعاً للظروف. وتختلف مفاتيح دور الأرشيف من بلد لآخر، فمفاتيح أرشيف الفاتيكان تخالف مفاتيح دور الأرشيف في فلورنسا أو بيزا أو البندقية أو فينا أو باريس أو لندن. ولا بد للباحث في التاريخ من الإلمام بحل رموز هذه الدول إذا اقتضت دراسته زيارة تلك البلدان.

علم الوثائق :

وكذلك نجد علم الوثائق أ، علم الدبلومات (diplomatics) من العلوم الأساسية لدراسة التاريخ، والوثائق في المعنى العام تدل على كل الأصول التي تحتوى على معلومـــات تاريخـــية دون أن ينحصر ذلك فيما دُون منها على الورق. ولكنها في المعنى الدقيق الذي اصطلح عليه الباحثون في التاريخ، هى الكتابات الرسمية – أو شـــبه الرســـمية – مـــثل الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية، والكتابات التي تتناول مسائل الاقتصاد أو التجارة، أو عادات الشعوب أو نظمهـــم وتقالـــيدهم وما يصيبهم من قوة أو ضعف، أو المشروعات أو المقترحات المتـــنوعة التـــي تصدر عن المسؤولين في الدولة أو التي تُقدم إليهم، أو المذكرات الشخصية أو اليوميات.

فينـــبغى على دارس التاريخ أن يتعلم الأسلوب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذي يعنيه. ولابد له من أن يعرف نوع المداد المستعمل في الكتابة وتركيبه، والأقلام التي كُتب بها، وأنواع الورق المستعمل وخصائصه، مثل العلامات المائية والألياف، التي تتضح عند تعرض الورق للضوء، وتُستخدم بعض الوسائل العلمية لفحص الخط والحبر والورق، فبواسطة بعض العدسات المكبرة الخاصة وبواسطة المجهـــر يمكن تحديد ضغط القلم وميل الكتابة، والصفات الخاصة بالكاتب وطريقة كتابـــته لـــبعض الحـــروف، ولون الحبر، وكذلك يمكن بواسطة المجهر والتحليل الكيميائى معرفة عمر الورق. وأحياناً يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة الحمراء والبنفســـجية لإظهار الخطوط غير الواضحة أو المطموسة أو المُغيرة عمداً. وكل هـــذه المعلومـــات الجوهرية تساعد الباحث على التثبُت من صحة الوثائق التي تقع تحت يده أو بطلانها.

دراسة الأختام :

ويتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام التي تُمهر بها، وهى ذات أنواع وأشكال مخـــتلفة. وقـــد شاع استخدام أختام الشمع منذ أزمان بعيدة ولا تزال مستخدمة حتى اليوم. ووُجدت الأختام المعدنية وخاصة من الرصاص، واستخدمها البابوات والملوك والأمـــراء بخاصـــة فـــي أزمـــنة مختلفة. ووُجدت أختام الذهب بخاصة عند ملوك

الكارولنجيين[١٣] في أثناء العصور الوسطى، وظلت تُستخدم عند بعض الأسرات الحاكمة حتى أزمنة حديثة. ولقد تعددت أشكال الأختام بعامة، فمنها المستدير ،ومنها البيضي، ومنها ما له شكل المثلث او القلب أو الصليب مثلاً، ومعرفة أنواع الأختام تفيد الباحث في التثبت من صحة الوثائق التي يقوم بدارستها.

علم الرنوك (heraldry):

ومن العلوم المساعدة في دراسة التاريخ علم الرنوك (heraldry) وهي الشعُرُ أو العلامات المميزة التي تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس النبلاء والجند أو على الأعلام. ولقد عرف القدماء هذه الرنوك أو العلامات المميزة، وعرفها أهل العصور الوسطى، فعرفها الشرف الإسلامي – مثلا – واستخدمها السلاجقة والأيوبيون والمماليك والعثمانيون، للدلالة على وظائف أرباب السيف.

ومن هذه العلامات نجد الكأس والسيف والدواة والنسر والهلال والصليب وذيل الحصان وزهرة الزنبق.

وفي أثناء الحروب الصليبية ــ مثلاً ــ نجد هذه الرنوك أو العلامات قد نمتْ وتقدّمت تبعاً للظروف. فلقد استلزم تجمُع فرق العسكر من شعوب مختلفة التمييز بينهم، حتى لا يقع الخلط والاضطراب في صفوفهم، وكذلك أصبح للنبلاء والوزراء والقضاة وكبار الموظفين ورجال الكنيسة وطوائف الرهبان، وبعض المدن، ونقابات المهن والحرف، علامات خاصة بها، وأصبحت ذات أهمية كبيرة في حياة المجتمع الإقطاعي في أوروبا في أثناء العصور الوسطى، وصارت مرتبطة بأشخاص حامليها، وذات حقوق قانونية ووراثية.

وإن معرفة الباحث في التاريخ بهذه الرنوك تجعله قادراً على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع أو الأسلحة أو الوثائق أو ما شاكل ذلك. وفي الوثائق مثلاً

١٣- نسبة إلى بيت الامبراطور شارلمان أوشارل الكبير. ملك الفرنجة (٧٦٨ ــ ٨١٤م) ويسمي تشارلز العظيم، وكان أحد أشهر القادة العسكريين في العصور الوسطى، فهوشخصية مؤثرة في التاريخ الأوروبي. احتل جزءاً كبيراً من أوروبا الغربية، ووحدها في إمبراطورية واحدة عظيمة (٨٠٠ ــ ٨١٤) بعث مرة أخرى الفكر السياسي والثقافي في أوروبا، الذي كان قد اندثر بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي وقد وضعت أنشطته حجر الأساس للحضارة الأوروبية، التي ازدهرت في أواخر العصور الوسطى (٤٧٦ ــ ١٤٥٣م). وقد أقام علاقات اقتصادية مع الشرق.عمل شارلمان دوماً على حماية الكنيسة وتوسيع سيطرتها. ولتحسين ظروف المعيشة في مملكته أدخل نظام الإقطاع، الذي أصبح النظام الأساسي لأوروبا سياسياً وعسكرياً لأربعمائة سنة.

قــد يمحى الإمضاء أو التاريخ، وفي هذه الحال تساعد العلامة الواضحة على الختم – إن وجدت – في التعرف على شئ أو أشياء من حقيقتها.

النميات أو النومات (numismatics):

وعلــم النميات أو النومات (numismatics) أى علم النقود والمسكوكات، من العلــوم الهامة في دراسة نواح من التاريخ. فالعملة والأنواط بما تحمله من صور الآلهــة وصــور الملوك والأمراء وأسمائهم ،وذكرى الحوادث التاريخية، وسنوات ضــربها، تُقــدم للباحثين مادة تاريخية قيمة بالنسبة للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوســطى في الشرق والغرب على السواء، فالعملة اليونانية – مثلاً – تكشف عن كثــير من الحقائق في تاريخ الجماعات السياسية التي كانت ذات كيان خاص مكنها من أن تسك هذه العملة.

ولــم يُعــرف وجود بعض هذه الجماعات إلا عن طريق عملتها التي حفظها الــتاريخ مــن الضياع. وتساعد العملة – والمسكوكات بعامة – في دراسة تاريخ الأساطير والعبادات والفنون والعلاقات السياسية، ونشاط التجارة أو فتورها. وكذلك الحــال بالنســبة للعملة والمسكوكات التي صنعتها الحكومات والدول والمقاطعات والمــدن والهيئات الدينية أو العلمانية في أنحاء أوروبا في أثناء العصور الوسطى. ونجــد مثلاً آثار العملة الصينية في شرقى أفريقية، وآثار العملة العربية في شمال غربى أوروبا، وآثار العملات الإيطالية في المشرق، دليلاً على مدى نشاط التجارة بين هذه الأنحاء المتباعدة من العالم، في أثناء العصور الوسطى، ونجد مثلاً انتشار الفلــورن الفلورنســى منذ عصر النهضة، في أنحاء أوروبا، وبقاء اسمه مستخدماً حتى اليوم في بعض العملات الأوروبية ـــ كما في المجر ـــ دليلاً على مدى النفوذ السياسى والاقتصادى الذي تمتعت به فلورنسا في ذلك العصر.

الجغرافيا (عبقرية المكان) :

والجغرافــيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ. والارتباط وثيق بيــن الــتاريخ والجغرافيا. فالأرض هى المسرح الذي حدثت عليه الوقائع التاريخ، وهــى ذات أثر كبير في توجيه مصائر النوع الإنسانى، فهى التي أطعمت الإنسان وأنشــأته وعينت واجباته، وأوجدت المصاعب والعقبات التي تشحذ قريحته للتغلب عليها وللتأثير بدوره في البيئة التي يعيش فيها والعمل على استغلالها.

وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير – مع غيرها من المؤثرات – في الإنسان وبالتإلى في التاريخ، وذلك تبعاً لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها، فالسهول، والجبال، والصحارى، والوديان، والأنهار، والبحار، والخلجان، والغابات، والجزر، والمناخ، والرياح، ونوع الثروة الطبيعية، والموقع الجغرافي، تؤثر كلها في تكوين الإنسان، وتؤثر في لغته ونبرة صوته، وفي لون بشرته وعينيه وشعره، وفي أساطير وأديانه، وفي ملكاته العقلية، وفي فكره وفلسفته وصوفيته، وفي أدبه، وفي موسيقاه، وفي هندسته ومعماره، وفي علمه، وفي طبه دوائه، وفي رسمه وتصويره ونحته، وفي خُلقه وسيكولوجيته، وفي مدنه وحقوله وقراه، وفي قوانينه وشرائعه ،وفي حرفه ومهنه، وفي فقره وغناه، وفي حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفي مذلته وإبائه، وفي سير معاركه، وفي حربه وسلامه.

فيعتقد بعض السكان في المناطق الباردة – مثلاً – أن الجحيم عبارة عن عالم يسوده الظلام الحالك والزمهرير والبرد القارس، ويعتقد بعض الساكنين في المناطق الدافئة أن الجحيم عالم تغلب عليه الحرارة والنيران المتأججة المستعرة أبداً. ويرتبط – مثلاً – سير المعارك الحربية بالتضاريس الأرضية، فعلى المؤرخ أن يعرف هل كان مركز أحد المتحاربين أفضل من مركز الآخر، وهل سيطر على منافذ بعض الجبال؟ أو هل كانت أرض المعركة أرضاً سهلة، وكان من الميسور التحرك فيها، أم كانت منطقة مليئة بالمستنقعات، أم احتوت على مخابئ وثنيات؟ وهل كان الجو في يوم أو في أيام المعركة صحواً أم كان عاصفاً مطيراً، أم كان حاراً قائظاً؟

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا في التاريخ ما نلاحظه من تدخلها أحياناً تدخلاً حاسماً في تغيير مجرى التاريخ. فمثلاً عاق البحر تقدم تيمورلنك عن العبور إلى أوروبا بعد أن هزم بايزيد الأول في موقعة أنقرة في سنة ١٤٠٢، وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة، فاستعادت مكانتها بعد قليل، وأدت للشرق الأدنى دورها التاريخي في عصر تقدمها وقوتها، وساعدت العواصف والأنواء الأسطول الإنجليزى في التغلب على الأرمادا الأسبانية الضخمة في سنة ١٥٨٨ مما أدى إلى هبوط أسبانيا وارتفاع شأن إنجلترا. وسهول روسيا الشاسعة وشتاؤها القارس كانت عوامل أدت إلى إخفاق حملة نابليون عليها في سنة ١٨١٢، وكذلك الحال بالنسبة لزحف جحافل هتلر عليها من بحر البلطيق حتى البحر الأسود في سنة ١٩٤١.

ولدراسة تاريخ مصر – مثلاً – لا بد من معرفة أحوالها الجغرافية، فالنيل هو مصدر حياة مصر وهى هبته الكبرى. ولقد تركزت حياة المصريين القدماء في هذا الـوادى الضـيق الخصـيب. وعلمهم فيضان النيل المنتظم هندسة الرى، وجعلهم يدركـون معـنى الوحـدة ومعـنى التعاون في سبيل تحقيق المصلحة المشتركة، والصـحارى المحيطة بوادى النيل نظمت اتصاله بالعالم الخارجى وحددت هجرات الشـعوب منه وإليه. وموقع مصر الجغرافي أتاح لها الفرصة لتكوين إمبراطورية عظيمة في عهد تحتمس الثالث.

وكذلـك موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب جعلها تجمع ـــ مع غيرها من دول أوروبا – ثروة طائلة لمرور التجارة العالمية بأراضيها في أثناء العصور الوسطى، وبفضلها استطاعت أن تشيد حضارة متقدمة، وأن تقف أمام قوى الغرب فـي أثـناء الحـروب الصليبية، وإن كانت هذه قد انتهت – في هذا الصدد – إلى المزيد من النشاط في تلك التجارة العالمية، بعد أن وضعت تلك الحروب أوزارها، وحيـنما تحـول طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح، بفضل الكشوف البرتغالـية في أواخر القرن الخامس عشر، وكجزء مُتمم لحركة النهضة الحديثة، التي كانت ثورة إنسانية كبرى، أصيبت مصر ـــ وغيرها من دول أوروبا والبندقية بخاصـة – بضـربة قويـة ،فهبطت تجارتها، واختلت ماليتها، واضطرب نظامها السياسـى، حـتى لم يقو السلطان الغورى على أن يقف في وجه القوات العثمانية الـزاحفة عليه في سنة ١٥١٦، وبذلك زالت دولة المماليك من الوجود السياسى في سـنة ١٥١٧، ومـع ذلك فإننا نجد أن موقع مصر الجغرافي ذاته قد مهدّ الفرصة لمحمـد علـى الوإلى العثمانى – لا لمحاولة الاستقلال بمصر فحسب – بل لغزو الدولـة العثمانية في أرضها، ولمحاولة إقامة إمبراطورية مصرية قوية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وللجغرافـيا تأثير واضح في التاريخ الإيطإلى بعامة في كل العصور، فموقع شـبه الجزيرة وامتدادها في وسط البحر الأبيض المتوسط، كان من العوامل الهامة التـي ساعدت روما القديمة في السيطرة على هذا البحر. وامتدادها الطويل الضيق واخـتراق جبال الأبنين لها ساعد على قيام الجمهوريات والمدن الإيطالية المستقلة بهـا فـي أثناء العصور الوسطى، بعد أن استقرت أحوالها عقب غارات البرابرة، ونشـأ بيـن أجزائها صراع طويل، وكان ذلك من العوامل في إذكاء نشاط أهلها، فظهرت بها أجيال من العباقرة في شتى ميادين العلم والفن والأدب، وكان من ثمرة

ذلــك انــبلاج عصر النهضة بها، الذي يُعد بعناصره المتنوعة من غربية وشرقية، من الأسس الهامة في بناء الحضارة الحديثة.

وحينما لم توجد من بين أجزاء إيطاليا قوة بعينها تستطيع بإمكانياتها وسطوتها أن توحــد شبه الجزيرة، أضحت إيطاليا بثمراتها ونفائسها العظيمة محطاً لأطماع جــيرانها الأقويــاء، حتى صارت تلك الأطماع محوراً للسياسة الأوروبية الفرنسية الأسبانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وإذا نظرنا إلى جزء معين من إيطاليا نجد البندقية –مثلاً– قد حفظها اللاجون مــن غارات القوط والهون، فتوفرت لها الفرصة لكى تنشأ وتنمو رويداً وبالتدريج. ووقوعها على رأس الأدرياتيك وإحاطتها بطرق برية سهلة جعلاها مركزاً للتجارة العالمــية بيــن الشرق والغرب، فكسبت – مع دولة المماليك – ثروة طائلة، ونمت امتدت في الشرق الأدنى في أثناء العصور الوسطى، ثم تقلصت واضمحلت – هى دولــة الممالــيك – حيــنما تحول طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح ولشبونة، واضطرت البندقية إلى أن تتجه نحو لشبونة في سبيل البقاء.

ووجــود صــقلية في جنوب إيطاليا وفي وسط البحر الأبيض المتوسط جعلها عرضة لغارات ومؤثرات بشرية وحضارية مختلفة، فتأثرت باليونان والقرطاجنيين والــرومان والعــرب والــنورمان والأسبان. وامتزجت بها هذه العناصر المتنوعة المخــتلفة وتفاعلــت، فأصــبحت صقلية مغايرة لسائر أنحاء إيطاليا، وتطورت بها بــذور حضــارة جديدة تجلت ثمارها فيالفكر والعلم والأدب في النصف الأول من القــرن الثالث عشر، وفي عهد فردريك الثاني الذي يعده بعض الباحثين أول رجل في العصر الحديث. وبذلك ظهرت في صقلية إحدى المراحل الأولى التي أدت إلى بزوغ حضارة عصر النهضة فالعصر الحديث.

ونلاحــظ – مثلاً– أن انفصال الجزر البريطانية عن القارة الأوروبية قد حولها مــن مجرد بقعة نائية في طرف قارة كبيرة، إلى بلاد مستقلة بذاتها ذات نظم خاصة بهــا، فموقعها الجغرافي الفريد منع أوروبا من التدخل في شؤونها منذ قرون عديدة، بعــد أن قويت واشتد ساعدها. وفي الوقت نفسه جعلها موقعها الجغرافي قادرة على أن تســيطر علــى البحار، وتتدخل في الشؤون الأوروبية تبعاً للظروف، وساعد ذلك علــى أن يُملــى عليها سياستها الإمبراطورية الأستعمارية. وتيار الخليج مثلاً جعل مــناخ ليفربول أدفأ من مناخ دانتزج وهما على خط عرض واحد ،وأصبحت البحار

المحيطة بإنجلترا لا تتجمد وصالحة للتجارة طول العام، بعكس بحر البلطيق، ووجود مـــناجم الفحـــم والحديد من أنواع جيدة في مناطق واحدة جعل إنجلترا دولة صناعية عظمى. واتساع مصب نهر التيمس وعمقه جعل لندن مرفأ تجارياً عظيم الأهمية.

وهـــذه كلهـــا أمثلة توضح لنا أهمية الجغرافيا لدارس التاريخ، وتبين إلى أى مـــدى يرتبط أحدهما بالآخر، فعلى الباحث في التاريخ أن يعرف الأحوال والعوامل الجغرافـــية المخـــتلفة التي تحيط بالشعب أو بالعصر أو الناحية التي يدرسها، على النحو الذي يزيد من إمكانيته في البحث والدرس والفهم.

الاقتصاد :

والاقتصاد من العلوم الأساسية التي يساعد الإلمام بها على دراسة التاريخ، إذ أن العوامـــل الاقتصادية ذات أثر فعال في سير التاريخ. فالثروة الطبيعية في بلد ما تحـــدد نـــوع الإنـــتاج الزراعى والصناعى، ونوع التبادل التجارى ومدى نشاطه. وطـــريقةُ توزيع الثروة الطبيعية أو الأموال ومدى تركزها في يد طبقة أو طبقات معيـــنة، أو مســـتوى توزعها بين فئات أكثر عدداً، يؤثر في السياسة الداخلية لدولة مـــا، ويؤثـــر في نظام الحكم بها، وفي مستوى الرخاء أو الفقر، وفي حياة الشعب، وفـــي علاقة طوائفه بعضها ببعض، ويؤثر في مستوى العمران ونهوض الحضارة أو تدهورهـــا، وتؤثر الظروف الأقتصادية في علاقة الدولة بالعالم الخارجى، سواء أكان ذلك في الناحية الأقتصادية البحتة، أم في العلاقات السياسية، وكذلك تؤثر في مستوى قوتها العسكرية ومركزها في المجتمع الدولى.

ومن الأمثلة على أثر الظروف الاقتصادية في مجرى التاريخ، ما نلاحظه من أن العـــامل الاقتصادى كان من بين العوامل الهامة التي أدت إلى اندفاع العرب — عـــند ظهور الإسلام – من شبه الجزيرة، التي يغلب على أكثرها الطبيعة المجدبة، إلـــى سهول العراق الفسيحة وربوع الشام المورقة. ويرجع ثراء المماليك والبنادقة وقوتهـــم في أثناء العصور الوسطى، إلى مرور التجارة العالمية بأراضيهم، وكان تحول طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح إيذاناً بتدهورهم جميعاً، كما أشـــرنا إلـــى ذلك منذ قليل، ومن الأمثلة في هذا الصدد ما كنا نجده من أن احتياج البندقـــية إلى قمح الدولة العثمانية، كان من بين الأسباب التي جعلت البندقية تجنح إلى مسالمة السلطان العثمانى عند ما كان يهددها بمنع إرسال القمح إلى أراضيها، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وكذلــك نجــد أن الانقلاب الصناعى الذي حدث في أوروبا في القرن الثامن عشــر نتــيجة للمخترعات الحديثة، قد أحدث ثورة في النظم الأقتصادية، مما أملى علـــى دول أوروبـــا الغربية سياسة التوسع والاستعمار للحصول على المواد الخام ولإيجاد أسواق لتصريف المنتجات الصناعية.

ولقــد حـــأول كـــل من نابليون وإنجلترا استخدام السلاح الاقتصادى، من بين الوسائل الأخرى، للقضاء على الآخر، وفي ذلك الصراع العنيف الذي نشب بينهما، فكانت حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر تهدف فيما تهدف إليه إلـــى تهديـــد مركز إنجلترا الاقتصادى في الهند. وكذلك ضرب كل منهما الحصار الإقتصادى على الآخر لكى يحمله على الاستسلام والخضوع.

والظـــروف الاقتصـــادية واضحة الأثر في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وفـــي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، وفي العلاقات بين الدول الكـــبرى والصـــغرى بعضـــها وبعـــض، وهـــى مـــن الأسباب الرئيسية للمشاكل والاتجاهـــات المختلفة البادية في شتى أنحاء العالم، لدى الشعوب والأمم الكبيرة أو الصـــغيرة، العـــريقة أو الناشئة ،المتقدمة أو الناهضة أو البدائية، وستظل الظروف الاقتصـــادية عاملاً هاماً في توجيه مصائر الشعوب بل الإنسانية جميعاً، وقد يؤدى التـــنافس في سبيلها إلى كوارث وويلات تحل بالبشرية، كما يمكن أن يؤدى التفاهم والتقدير المتبادل في شأنها إلى أن تسلك البشرية في حياتها سبيلاً معقولاً.

وهذا أمثلة على أهمية الظروف الاقتصادية التي تُعد عنصراً أساسياً - ولكنه ليس وحيداً- في فهم وتفسير التاريخ. فينبغى على الباحث في التاريخ أن يُلم بتاريخ الحركات الأقتصادية، ويدرس الأحوال الاقتصادية للعصر أو الناحية التاريخية التي يتناولها بالدراسة ويرغب في الكتابة عنها.

الأدب :

والأدب وثـــيق الصـــلة بالـــتاريخ، فهـــو مرآة العصر، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه، وهو يفصح عن دخائل البشر ويصور أحلامهم وأمانيهم، ويرسم نواحى مختلفة من حياتهم الواقعة، من حياة الأفراد أو الجماعات، ومن حياة المدينة أو الـــريف، بل ومن النظم، ومن الحال الاقتصادية، ومن العلم والفن، ومن الحرب والسلام، ومن كل ما يقع تحت حس الإنسان ويدخل في نطاق إدراكه أو تصوره.

فـــالأدب المصـــــرى القديم، مثلاً، على الرغم من قلة ما وصل إلينا من آثاره، يســـاعد الباحـــث فـــي التاريخ على فهم نواحى مختلفة من الحياة المصرية القديمة فالبيـــئة المصـــرية بطبيعـــتها وتقاليدها وأحداثها قد أوحت إلى الكتاب المصريين القدمـــاء بالتعبير عن مشاعرهم بلغة أدبية مؤثرة. فهم كتبوا عن الآلهة وعن الحياة الآخرة، وكتبوا في الغزل وصوروا الحب والتمنع والغيرة والشجن، وأنطلقوا الطير والشجر، وتغنوا بجمال الطبيعة، ودعوا إلى التمتع بالحياة قبل فوات الوقت، ودونوا قصصـــاً خيالـــياً رسموا فيه حياة الابطال، ونظموا الأناشيد والأغانى، وكتبوا في الأدب التعليمى لتهذيب الأبناء والتلاميذ، وتركوا آثاراً في فن الحكم والسياسة وفي أحـــوال المجـــتمع، كما حملوا على التقاليد، وأظهروا عقولاً حرة تدعو إلى التفكير والجـــدل. فهذه الصورة الأدبية كلها تشرح حياة المصريين القدماء في نواح كثيرة، ولا يمكـــن للـــدارس أن يُقبل على بحث تاريخهم دون أن يتذوق أشياء من ثمرات أدبهم، التي تُعينه على فهم عقليتهم وعاداتهم وحياتهم، وبذلك تصبح دراسة تاريخهم أسهل عليه وأيسر.

والباحـــث في ناحية من التاريخ الإيطالى في القرن الرابع عشر مثلاً، لا يمكنه أن يفهـــم الموضـــوع بحثه دون دراسة آثار دانتى[١٤] الأدبية، فهو يصور في كتاباته العاطفـــية الإنسانية، ويرسم الإنسان الذي يتألم والذي يتعرض للخطيئة ويصور القلب الملـــئ بالأسرار ،ويرسم اليأس والأمل، والغلظة والرقة، والطغيان والحرية، والظلم، والعدالـــة، والشـــقاء، والســـعادة، والكراهية والمحبة، وتشرح آثاره الأدبية مساوئ العصـــر الـــذي عاش فيه، وتبين رغبته وأمله ووسائله في إصلاح المجتمع البشرى، بـــتحرير الـــناس مـــن أدرانهم، وبتعليمهم وتهذيبهم وصقلهم ،حتى يكونوا مواطنين صالحين، ثم بالقضاء على الأحزاب السياسية والمنازعات الداخلية، وإيجاد إمبراطور عالمى يبسط عدالته ورعايته على أنحاء العالم وينظمُ العلاقة بين كل دولة ورعاياها، وبيـــن الـــدول بعضـــها وبعض، وكذلك كان من وسائل إصلاحه للمجتمع البشرى، الدعـــوة إلى فصل السلطة الإمبراطورية الزمنية عن السلطة البابوية الدينية، وتآلفهما معـــاً على السير بالعالم في طريق الأمن والسلام والرفاهية، وهذا هو ما ظل يساور أذهان بعض الفلاسفة والمفكرين والساسة منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر.

١٤- دانـــتي أليجـــيري (ت ١٧١٢)، يعـــد من أشهر شعراء إيطاليا، اشتهر بعملة المعروف "الكوميديا " ثم اضيف اليها "الإلهـــية" بعد ذلك وهي ملحمة شعرية تصف رحلة قام بها الشاعر في الجحيم والمطهر والسماء، وقد ترجم هذا العمل إلى العربية ويرى البعض أن دانتي تأثر فيها برسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

فكـــتابات دانـــتى المتنوعة تشرح – فيما تتناوله – هذه النواحى المختلفة في الحـــياة الإيطالـــية فـــي أواخر العصور الوسطى، وتمهد لعصر النهضة فالعصر الحديـــث، والإلمام بها شئ ضرورى لتناول كل ناحية من تاريخ ذلك الزمان، ولا نـــبالغ إذا قلـــنا إن الإلمام بأشياء من آثار دانتى الأدبية أمر ضرورى لدراسة كل ناحية في التاريخ أو المجتمع الإيطإلى حتى الوقت الحاضر.

والقـــياس صـــحيح بالنســـبة لضرورة الأدب العربى لدراسة موضوع ما من التاريخ العربى، أو بالنسبة لأهمية الأدب الإنجليزى لفهم التاريخ الإنجليزى وهكذا، ودراســـة الأدب بصـــفة عامة توسع عقل الإنسان وتصقل نفسه وتجعله أقدر على الفهـــم والاستيعاب. ولابد للراغب في كتابة التاريخ من أن يتذوق الشعر لكى يفهم ملكـــة الخلـــق والابـــتكار، ويلزمه أن يقرأ شيئاً من القصص الأدبى لكى يتعلم فن عرض الموضوع، وإبراز الحوادث الهامة، وبحث الشخصيات الأساسية والثانوية، ووضـــع التفاصـــيل والجزيئات في المكان الملائم، وإحكام الإطار العام للموضوع الذي يدرسه، وإثارة انتباه القارئ، وجعله قادراً على استيعاب ما يُقدم إليه وتذوقه. يحسن بدارس التاريخ كذلك إن يلم بشئ من مذاهب النقد الأدبى. إذ أن دراسة حياة الأدبـــاء ،وتحليل آثارهم وتذوقها، ونقدها من ناحية اللفظ والموضوع والمعنى تقدم للمؤرخ ذخيرة قمية تُعينه في دراسته التاريخية.

والإلمـــام بنواح من الفنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة الخاصة بعصر مـــا، تساعد كذلك على فهم تاريخه، وهذه الفنون – كالآثار الأدبية – مرآة للعصر، فهـــذه الفـــنون في مصر القديمة، أو في آشور، أو في الهند أو في الصين، أو في اليونان، أو في إيطاليا أو في فرنسا، تعكس جميعها صوراً دقيقة من حضارات تلك الـــبلاد، وتبيـــن كثـــيراً من خفايا أهلها ومن حياتهم الواقعة ومن تقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانيهم.

فمـــن يرغب في دراسة ناحية من تاريخ عصر النهضة في إيطالي – مثلاً – يلـــزمه أن يعـــرف شـــيئاً من الفنون التشكيلية في أواخر العصور الوسطى ثم في عصر النهضة ذاته. وإن آثار تشيمابوى وجوتو في فن التصوير لتوضح كيف عبر مصـــورو العصر عن محاولة الخروج على روح العصور الوسطى، والسعى إلى التجديد والابتكار في التعبير عن شئ من مكنون النفس البشرية، من طريق ما يبدو في حركة الأعين وسمة الوجوه، ذلك المكنون الذي لم تكن روح العصور الوسطى تستسيغ أو تقوى على الإفصاح عنه، باعتباره شيئاً من أسرار الله، وبالتدريج أخذه

أهـل الفنون – من رجال فن التصوير أو فن النحت – مثل بوتتشلي وليوناردو دا فنتشـي، ورافـايلو، ومـيكلانجلو – أخـذوا يستوحون تراث الأقدمين في الشرق والغـرب ،كمـا استوحوا زمانهم وبيئاتهم واستلهموا مكنونات نفوسهم وما انطوت علـيه جوانحهم، ورسموا المنظور والعمق، وصوروا المادة، واستخدموا الأشكال الهندسـية، ورسـموا رؤى الطبـيعة الساحرة، وشرحوا الجسد ،واعتبروه هيكلا للروح: صار لكل جزء فيه عندهم مبنى ومعنى، وأصبح كل خط من خطوطه وكل وضـع أو لفتة أو حركة أونظرة منه موضوعاً للتأمل والدرس والاستلهام. وبذلك تخلصـوا مـن قـيود الزمـن السابق عليهم وأوضاعه، وعبروا عن خفايا النفس البشـرية، وانطلقـوا في آفاق من الحرية والخلق والإبداع، وقدموا لإيطاليا وللعالم روائعهم الخالدة.

وإن الإلمام بشئ من فن العمارة القوطية، في فرنسا – مثلاً– في أثناء القرنين الثانـي عشر والثالث عشر، لأمر ضرورى لمن يريد أن يدرس ناحية من تاريخها في ذلك الزمان، فلقد قدم هذان القرنان نماذج رائعة من فن العمارة القوطية مُمثلاً فـي تلك الكاتدرائيات العظيمة التي انبثقت في كثير من الأنحاء، ونشأت كثمرة لما سبقها من النمو التدريجي الروحى والعقلى والفنى، منذ العصر القديم حتى زمانها. وقـد تفـانى الجمـيع، من أغنياء وفقراء، ومن رجال دين وملوك وأمراء ورجال أعمـال وأصحاب حرف وعمال، في بذل أموالهم وجهودهم المتنوعة جيلاً من بعد جيل، في صمت وصبر وجلد ودأب، يحدوهم إيمان عظيم.

وظهـرت الكاتدرائـيات العظيمة فسيحة الأرجاء، مُدببة الخطوط والأقواس، تغمـرها أطـياف من النور الممتزج بألوان رسومها على ألواح نوافذها الزجاجية العالية، وبدت خفيفة، متوثبة، شامخة، منطلقة، نزاعة إلى أجواز الفضاء اللانهائى، وعلى أبواب الكاتدرائيات وحوائطها وأعمدتها ونوافذها وأبراجها وفي جوها، شهد أهل العصر براعم جديدة تتفتح معبرة عن بزوغ ربيع مزدهر جديد، وسمعوا ألحاناً تـأخذ بمجـامع قلوبهـم وتسـمو بهم إلى أعلى عليين، وقرأوا فصولاً من الكتاب المقـدس، ومن حياة الأنبياء والبطاركة والقديسيين، ومن حياتهم الفكرية واليومية. وأصـبحت الكاتدرائـية تمثل عنصراً جوهرياً في حياة الناس وفكرهم وفي دنياهم ودينهم. وكان الناس يأتون إليها ويذهبون جيلاً في إثر جيل، بينما تظل هى شامخة صامدة على الزمان أبداً.

وبذلك نجد الكاتدرائية القوطية تعبر أصدق التعبير عن روح العصر الذي آذن بميلاد حضارة جديدة، أخذت تخلص رويداً رويداً من آراء الفكر المدرسى، ويتجه فيها النظام الإقطاعى إلى أن يُسلم زمام الأمور بالتدريج إلى المدن النامية الجديدة، وإلـــى الـــروح القومـــى الوطنى الجديد، وكذلك تفسر الكاتدرائية القوطية عناصر جوهرية في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة النزاعة إلى الآفاق اللانهائية أبداً.

وكيف يمكن لمن يرغب في دراسة ناحية من تاريخ عصر النهضة في أيطاليا بخاصـــة، أو من تاريخ إيطاليا بعامة أو ناحية من تاريخ فرنسا مثلاً - كيف يمكنه أن يستوعب ما يدرسه منها ويدرك دخائلها، دون أن يكون ذا حظ مناسب من هذه الـــثقافة الفنية التشكيلية أو المعمارية؟ لقد أدركت الجامعات ومعاهد العلم في كثير مـــن أنحاء العالم المتحضر أهمية هذه الناحية، فأدخلت هذا النوع من الثقافة الفنية، مـــن حيـــث هى ثقافة فحسب ـــ في مناهج الدراسة في كليات الآداب بها، إلى حد إنشـــاء الكراسى الخاصة بالأساتذة في بعض الكليات. والمقصود بذلك أن تخدم هذه الـــثقافة ســـائر الدراســـات الأدبية أو الإنسانية أو العلمية، والتي من بينها دراسة الـــتاريخ، فضـــلاً عمـــا في هذه الثقافة في حد ذاتها من السعى إلى السمو بالروح وتهذيـــب الـــنفس، ومجمـــل القـــول هو أن دراسة شئ من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة لعصر ما، يساعد على دراسة تاريخه والكتابة عنه.

والحـــال علـــى هذا المنوال بالنسبة لفنون الموسيقى وما يرتبط بها من فنون المســـرح والرقص، التي تُعد كذلك من المرايا الصادقة التي تعكس أو تكشف عن كثـــير مـــن الوقـــائع والحقـــائق الخاصة بعصور التاريخ، والتي لا تكفي الكتابات التاريخية أو الوصفية أو الأدبية في التعبير عنها. فمن يرغب في دراسة ناحية من تاريخ العصور الوسطى، يحسن به أن يلم بأشياء عن الألحان الجريجورية الكنسية التي تصور إيمان الناس وشكواهم مما حل بهم من اضطراب الحياة في جزء كبير مـــن قرونها المتتابعة، وابتهالهم إلى الله أن يرفع عنهم ما نزل بهم من المحن، كما توضح تفانى بعض رهبانهم في محبة الله والبشر. وكذلك يجمل به أن يعرف أشياء عن الألحان الشعبية ـــ ذات النغمة الواحدة ـــ أى المونوفونية ـــ التي كانت تصدح بهـــا آلات شـــعراء الـــتروبادور، المتأثرة بألحان شعوب المشرق حتى بلاد الهند، والتـــي كـــان أولـــئك الشعراء يؤدونها أحياناً مصحوبة بحركات الرقص الجماعى الدائـــرى أو المـــتقابل وأحياناً مصحوبة بالغناء، والتي لايزال المدروس والمحفوظ والمســـجل منها يُنبئ عن أوجه الشبه والتأثير المتبادل بين تراث الشرق والغرب،

وكذلــك ينــبغى عليه أن يدرك شيئاً عن النمو الموسيقى المتدرج بظهور الألحان المســماة بالألحــان البوليفونــية، المــتعددة فــي درجات الأداء، المُفارقة المتقابلة المــتجاوبة الصــاعدة الهابطــة المــتآلفة، التي اتضحت في التوزيعات الموسيقية المتــنوعة، والتي استطاعت بالتدريج أن تعبر عن كثير مما يعتمل في نفوس البشر مــن المعــانى، وما يقع تحت حسهم من المشاهد. ويحسن به أن يتذوق أشياء من فنون المسرح الدينى أو المشاهد التمثيلية التي كانت تُقام في ذلك الزمان.

وإن تــذوق طرف من موسيقى العصر المسمى بما قبل الرومانسى في مجال الفــن والأدب فــي القرنيــن السابع عشر والثامن عشر، والتي تبلورت في روائع الألحــان التــي ألفها أمثال بالسترينا، أو مونتفيردى، أو فيفالدى، أو باخ أو هيندل، والتي تتضمن ألحاناً علوية أو ألحاناً تصف الطبيعة، أو ألحانا دينية تعبر عن عذاب البشرية وخلاصها، أو ألحاناص تعبر عن نواح من خفايا النفس البشرية ــ يساعد بــلا ريب في جعل المتذوق أقدر على فهم روح هذين القرنين، وأقوى على الكتابة في الموضوع التاريخي الذي يقع اختياره عليه منهما بخاصة، أو في دراسة التاريخ والكتابة عنه بعامة.

وبعــض موســيقى بيتهوفن – مثلاً – تعبر عن ثورته أو حملته على طغيان نابليون على أوروبا، في مطالع القرن التاسع عشر، وعلى الأخص سيمفونية الثالثة المسماة بالبطولة، التي تُعدُ نقداً موسيقياً عارماً لطغيان الفرد، لم يكد يفهمه أحد في زمانـــه. وموسيقى فيردى في بعض أوبراته – مثلاً – تُعدُ كذلك حملة صادقة على الطغاة وانتصاراً لدعاة الحرية في إيطاليا – بل في أوروبا والعالم– في أثناء القرن التاســع عشر. وإن المتذوق لأشياء من فنهما يصبح دون شك أقدر على فهم روح القــرن التاســع عشــر، وما ساده من الصراع بين التقدم والرجعية وبين الطغيان والحرية، وبذلك تصبح دراسته والكتابة عن أية ناحية من تاريخه أقرب إلى الواقع والحقيقة التاريخية.

وكمــا رأيــنا في فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة، نجد أن كثيراً من الجامعــات ومعاهد العلم في أنحاء العالم المتحضر، قد أدركت أهمية الثقافة الفنية الموســيقية، فجعلــتها من بين مناهج الدراسة في كليات الآداب بها، إلى حد إنشاء الكراسى الخاصة بالأساتذة. بل وتوجد في كثير من جامعات الغرب فرق موسيقية مكونــة مــن الموهوبيــن من الأساتذة والطلاب، اللذين يقومون معاً بعزف روائع الموســيقى الكلاســيكية، وفي جو من التفاهم والتآلف والمحبة. والمقصود بهذا أن

تخـدم هــذه الثقافة الفنية سائر الدراسات الأدبية أو الإنسانية أو العلمية، والتي من بيــنها دراســة التاريخ، فضلاً عما في هذه الثقافة الفنية الموسيقية في حد ذاتها من العمل على تهذيب النفس والسمو بالروح.

ومن النواحى الهامة لمن يرغب في دراسة التاريخ وكتابته، أن يعرف صورة عامــة عما عرفه العالم عن التاريخ، فينبغى عليه أن يقرأ مختارات من بعض آثار المؤرخيــن الســابقين القدماء منهم والمحدثين، مثل هيرودوت، وتوسيديد، وليفي، وماكيافلى، وفيكو، وجيبون، وميشليه، ورانكه والطبرى وابن خلدون.... وعليه أن يقــرأ شــيئاً مــن المؤلفات الحديثة في تاريخ العالم بعامة، ثم يتزود بالقراءة عن العصر أو الناحية التي يرغب في تناولها بخاصة.

وبذلــك يلــم بــثقافة تاريخية عامة وخاصة، كما يعرف الطرق المختلفة التي اتــبعها المؤرخون في كتاباتهم، ويتبين خصائصهم ومزاياهم وعيوبهم، ويفيد بكل هــذا فوائد عظيمة النفع، ولا يُعقل أن يعكف دارس ما على دراسة ناحية تاريخية معيــنة فجــأة وتــوا، ودون أن يعرف موضع هذه الناحية من الدائرة المحيطة بها مباشــرة، ثم موضعها من الدوائر الأوسع نطاقاً، بل وموضعها من العالم كله، ولا يــتأتى هــذا بغــير الإلمام بقدر مناسب من الثقافة التاريخية العامة والخاصة على الســواء ومــن المفيد أيضاً أن يلم الباحث في " التاريخ " بطائفة أخرى من العلوم المساعدة. فيلزمه أن يدرس شيئاً من المنطق الذي يفيده في بنائه التاريخي.

وكذلك يفيده الإلمام بتقسيم العلوم في أن يفهم موضع التاريخ من سائر العلوم، كما ينبغى عليه أن يدرس أشياء من فلسفة التاريخ وآراء المفكرين فيه مثل شبنجلر وبرجســون وكروتشى، وكولنجوود، وهو في حاجة كذلك إلى أن يعرف أشياء من علــم الآثار، ومن علم الأجناس ومن علم الاجتماع، ومن علم النفس، ومن القانون، ومن النظريات السياسية ،ومن علم الإحصاء ،ومن الرياضة أو الفلك أو النبات أو الحيوان ..... إذا ما عرضت له نواح من هذه المسائل.

وإذا لــم يكن له بها معرفــة سابقة فيمكنه تحصيل القدر الذي يكفيه منها لفهم الموضوع التاريخي الذي يعالجه، حينما يصبح في حاجة إلى ذلك.

ومــن الضــرورى للباحــث في التاريخ ألا يكتفي بتحصيل ثقافته العامة أو الخاصــة من الكتب والمراجع فحسب، دون دراسته وخبرته بالحياة العملية ذاتها، ســواء أكــان ذلــك في دائرة أهله وعشيرته، أم كان في نطاق قومه وبلده، أم في

محـيط دوائـر أوسع وأعم في المجتمع الإنساني، وإن الخبرة التي يكسبها الباحث بالملاحظة والممارسة العملية، بحسب ظروفه، ومن شأنها أن تجعله أقدر على فهم أعمـال الإنسان في الزمن الماضي، وتقدير الظروف التي أحاطت به، والتي أدت إلـى اتخاذه مسالك معينة في مواجهة تيارات أو مؤثرات محددة، ولا يجوز لدارس التاريخ أن يكون في عزلة عن البشر، حتى يُصبح أقرب إلى فهمهم والكتابة عنهم، مهما بعُد بينه وبينهم الزمان، إذ أن الرابطة البشرية قائمة على الرغم من اختلاف الزمان والمكان.

ومن الأمور السياسية للباحث في التاريخ ألا يلتزم حدود بلده، بل ينبغى عليه السفر والارتحال داخل بلاده وخارجها. في سبيل البحث التاريخي في حد ذاته، ثم لكى يرى آفاقاً جديدة، ويكتسب خبرة بأقوام وبيئات مختلفة.

ومن الضرورى له أن يقضى فترة أو فترات متعـددة في البلـد الذي يدرس نواحـى مـن تاريخه، ولعله يكون من المناسب أن يبدأ الباحث سفره بعد أن ينهى تعلـيمه الجامعى في بلده الأصلى، وبعد أن تتعين له الناحية التي يرغب في الكتابة عـنها، فيسـافر وقد تزود بأسلحة نافعة، ويمضى في الدرس والكشف عن الوقائع والحقائق التاريخية، ويزور الأماكن المختلفة ويدرس ويتأمل، ولكن عليه ألا يكون كـالمُحدث الذي تبهره الأضواء الجديدة، والنفس العالية لا تشعر أنها غريبة في أى مكان، إذ تحس الصلة والرابطة بينها وبين وطنها وبين شتى البلدان وسائر النفوس والأقـوام والحضـارات ولا بـد للباحث في التاريخ ـــ كغيره من أهل الدراسات الأدبية أو العلمية أو الفنية ـــ لا بد له من متابعة أسفاره في الداخل والخارج طوال حياته، لأن ذلك يجدد ثقافته ويزيده علماً وتجربة على الدوام.

وفـي أغلـب الأحـوال لايمكن كتابة البحوث العلمية الأصيلة دون الآرتحال والسـفر، والعـدول أو الـتوقُف عن السفر يعوق عجلة التقدم، ويوقف سير العلم، ويصـيب الأفـراد والأمـم التي ينتمون إليها بالركود والجمود والتأخر، ولقد كان أسـلافنا من العرب في عهد مجدهم، كما كان أضرابهم من أهل زمانهم، يجوبون الآفـاق فـي عصر الدابة والشراع، طلباً للعلم، ولقد ازداد نشاط الأسفار في طلب العلم في عصر الآلات الحديثة، في الأمم المتحضرة والناهضة والكبيرة والصغيرة على السواء، إذ أن ذلك من أسباب تقدم الشعوب ونهوض العمران.

هــذا كلـــه موجـــز عن الثقافة والإعداد والخبرة اللازمة لمن يتصدى للكتابة الـــتاريخ. ولـــيس المقصود بذلك التوسع أو التعمق فيكل هذه النواحى لذاتها، إذ أن هذا أمر فوق متناول البشر، ولكن المقصود أن ينال الدارس ما يلزمه بقراءة بعض الكتـــب العامة أو الخاصة، وقد يزيد بذلك في نواح معينة من هذه العلوم المساعدة بحســـب طبـــيعة الموضـــوع الـــذي يختاره، وقد يبدو من العسير جمع هذه الثقافة المتـــنوعة. ولكـــن تخصيص حوالى سبع أو ثمانى سنوات تفعل العجائب، وتكفي للوصول إلى مستوى مناسب يزداد بالتدريج مع الزمن تبعاً لنوع الدراسة.

وإن روح العلـــم الصـــحيح لا تعـــرف العقبات، والإخلاص والصبر يبلغان بالباحث في التاريخ كما في سائر العلوم - إلى غرضه في أغلب الأحيان -.



الفصل الثالث

اتجاهات تفسير التاريخ

من شاء الحكم على المستقبل؛ فليبدأ باستشارة الماضي!

الفصل الثالث

اتجاهات تفسير التاريخ

سوف نتعرض لاهم اتجاهات تفسير التاريخ فيما يلي:

أولاً: اتجاه (التعاقب الدوري) في تفسير التاريخ

وهـو اتجاه يرى أن "التاريخ يسير في دورات متتالية ومتشابهة، بحيث تعود الأحداث السابقة من جديد بأشكال متقاربة، وتترتب عليها النتائج نفسها"

ويـرى هـذا الاتجـاه أن للحضـارات أدواراً كأدوار الليل والنهار، والفصول الأربعة، أو سائر ظواهر الكون .بمعنى أن الحضارات تبدأ صغيرة، ثمّ تكبر وتشبّ، ثمّ تأخذ في الهرم، ثمّ تأخذ بالسقوط.

فالتاريخ من هذا المنطلق مثل دورة القمر، هلال ثم بدر تام، ثم يتوارى في الأفق شيئاً فشيئا حتى الخسوف الكامل ثم يظهر الهلال الجديد وهكذا دواليك.

ويـرى هذا الاتجاه أن كل شئ يختفي من الوجود يعود مرة أخرى من جديد. وهى حلقات متشابهة، كل بداية لابد وان يعقبها نهاية، وكل نهاية يعقبها تكرار للبداية الأولى.

ويـرى هذا الاتجاه أيضاً أن التاريخ يسير في صيرورة وديمومة دائرية يخضع لها الإنسان والشعوب والحضارات.

وهذا الإيقاع الدائري لا يخرج عن ثلاثة مراحل هى:

البداية – النمو – النهاية

الميلاد – الشباب – الشيخوخة

أو النمو – الصعود – الهبوط الخ

وأهـم مـا يوجه لذلك الاتجاه من نقد هو أنه عقيم لا يأتي بجديد وكأن الحياة ثابتة نمطية أحداث تكرر نفسها فقط دون أن يسير التاريخ إلى الأمام.

وأهم من يمثل تلك النظرية (أفلاطون – ابن خلدون – فيكو)

أفلاطون (٤٢٨-٣٤٨ ق.م)

أفلاطـون (Pltōn) فيلسوف يوناني قديم، وأحد أعظم الفلاسفة الغربيين، حتى أن الفلسـفة الغربـية اعتـبرت أنها ماهي إلا حواشي لأفلاطون. عرف من خلال

مخطوطاته التي جمعت بين الفلسفة والشعر والفن.كانت كتاباته على شكل حوارات ورسائل وإبيجرامات[١] .

ولـــد أفلاطون في أثينا لعائلة ارستوقراطية، وكان أنجب تلامذة سقراط وتعلق بـــه كثيراً، وكان لإعدام أستاذه سقراط بالسم وقع كبير عليه، حيث ظهر ذلك جلياً فـــي كتاباته الأولى. بعد إعدام سقراط غادر أفلاطون أثينا، حيث كان ساخطاً على الحكومة الديموقرطية هناك

وكانـــت معظم كتابات أفلاطون عبارة عن محاورات، بطلها الرئيس سقراط، الـــذي كان يمثل أفلاطون نفسه، في هذه المحاورات يسأل سقراط الناس عن أشياء يدعـــون معرفتها ويدعي هو الجهل بها. ومن خلال الحوار يوضح سقراط أنهم لا يعرفون ما يدعون معرفته.

واتخذ أفلاطون طريق التحليل لمتابعة مسيرة أستاذه سقراط، ولكنه اهتدى إلى جذر مشكلة التشكيك، وهو عدم الإيمان بالمقاييس العقلية، فحأول وضع فلسفة ترد الاعتبار للعقل، وذلك عن طريق إيمانه بالمثل التي اشتهر بها.

ويرى أفلاطون أن الإنسان عاش بروحه المثالية قبل أن يعيش ببدنه، في عالم المـــثل الذي كان يعيش فيه أيضا صورة محدودة عن الأشياء. وهناك عرف مثال الإنسان، مثل الأشياء. وبتعبير آخر، علمت روح الإنسان، روح الحقائق.

وبعـــد ان جاء إلى هذا العالم نسي الإنسان بعض ما عرفه من الحقائق، وهو بحاجـــة إلـــى المنبهات الخارجية، لكي يتذكرها؛ ولكنه إذا تذكرها فهو ليس بحاجة إلى مزيد من الأدلة لتثبت صحة معارفه[٢] .

التعاقب عند أفلاطون :

ويـــرى أفلاطـــون أن الـــتاريخ عبارة عن مجموعة من الدورات لابد من أن تنتهي بالانحلال والتفكك.

وتســـير الدورة المثالية للتاريخ عند أفلاطون من حكم الفلاسفة الذي هو نزعة عقـــل وحكمـــة وفضـــيلة؛ ثم مع الوقت يتدهور الحكم المثالي نتيجة زيجات غير مناســـبة ينتج عنها نسل ضعيف غير موهوب، وتنمو الروح العسكرية فيأتي حكم

١ – ايبجرام: قصيدة قصيرة محكمة منتهية بفكرة بارعة أو ساخرة.

٢ – أنظر: السيد محمد تقي المدرسي: المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه، دار البيان العربي – بيروت، لبنان.

الارستقراطية العسكرية؛ ثم تبدأ نزعة حب التملك تطغى على حساب حب الشجاعة والحكمة فتنشأ حكومة "أرستقراطية الأغنياء" "الأوليجاركية"

ثم يتطور الأمر إلى نشوء الحكومة الديمقراطية حيث الأقلية تسعى للسلطة وتشيع الفوضى والفساد مما يؤدي إلى الوصول إلى حكم الاستبداد الفردي الذي هوأسوأ مرض يصيب الدول ويمثل الأنانية وحب التملك للفرد.

ونتيجة لهذا التدهور يؤدي منطقياً إلى التفكير في إقامة الدولة المثالية من جديد ويحكم الفلاسفة مرة أخرى ثم تعود الدورة في الحدوث من جديد وهكذا.

وجعل أفلاطون أنواع الدول مرتبة بحيث يتولد الواحد منها على فساد الآخر، وهي تتطور سلباً فينا عدا مرحلتها الأخيرة التي تبدأ الدورة من جديد.

ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م):

ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي.

ويعد "ابن خلدون" عبقرية عربية متميزة، فقد كان عالمًا موسوعيًا متعدد المعارف والعلوم، وهو رائد مجدد في كثير من العلوم والفنون، فهو المؤسس الأول لعلم الاجتماع (علم العمران البشري)، وإمام ومجدد في علم التاريخ، وأحد رواد فن "الأتوبيوجرافيا" (فن الترجمة الذاتية) كما أنه أحد العلماء الراسخين في علم الحديث، وأحد فقهاء المالكية المعدودين، ومجدد في مجال الدراسات التربوية، وعلم النفس التربوي والتعليمي، كما كان له إسهامات متميزة في التجديد في أسلوب الكتابة العربية.

وقد اعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها، والحياة بين أهلها، وتعقب تلك الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة.

وقد كان "ابن خلدون" – في بحوث مقدمته – سابقًا لعصره، وتأثر به عدد كبير من علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده مثل: الإيطالي "فيكو"، والألماني "ليسنج"، والفرنسي"فوليتر"، كما تأثر به العلامة الفرنسي الشهير "جان جاك روسو" والعلامة الإنجليزي "مالتس" والعلامة الفرنسي "أوجيست كانط".

التعاقب الدوري عند ابن خلدون :

يرى ابن خلدون أن نشأة الدول لها مراحل ثلاث:

١- مرحلة البداوة :

وهنا لا يشير فقط إلى سكان الصحارى بل إلى بربر الجبال أيضاً والتتر في السهول، لما يجمعهم من غلب العصبية ضمن النظام القبائلي الأسري.

ويعيش في حياة بدوية خشنة بعيدة عن الترف، وتتميز بقوة العصبية والبسالة والافتراس "العنف"، والاشتراك في المجد، ويكون جانبهم مرهوب، والناس لهم غالبون.

١- مرحلة التحضّر:

وهو انبثاق دولة عنهم عقب الغزو والسيطرة، ثم الاستقرار.. بعد أن أترف السابقون، وبما يتميزون هم به من خشونة وصلابة، وتلاحم أسري وتجمع قبلي يفرض عليهم قيوداً عرفية، من الصعب جداً أن يتجاوزوها.

هو الذي يتحقق على يديه الملك ويؤسس الدولة، وفيه ينتقل من البداوة إلى الحضارة، ومن سكنى البوادي والريف إلى المدن، ومن شظف العيش إلى ترفه، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، وتنكسر فيه سورة العصبية بعض الشيء، ويعيش على ذكريات الجيل الأول.

٢- مرحلة التدهور:

بعدما حصلوا عليه من موارد تلوّن حياتهم بألوان الانغماس والترف وهي سنة في حد ذاتها من سنن الانهيار.

ينسون عهد البداوة والخشونة كأنّها لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية، بما فيهم من ملكه القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته، ويصيرون فيه عيالاً على الدولة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، وتسقط العصبية تماماً، ويضطر صاحب الدولة إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالى. ونظر ابن خلدون للدولة على أنّها كائن حي يولد وينمو، ثُمَّ يهرم ليفنى.فللدولة عمر مثلها مثل الكائن الحي تماماً ،وقد حدَّد ابن خلدون عمر الدولة بمائة وعشرين عاماً، لأنّه يرى أنّ العمر الطبيعي للأشخاص كما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرين عاماً، ولا

تعدو الدول في الغالب هذا العمر إلاّ إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، وذكــر أنهــا تــتكون من ثلاثة أجيال كل جيل عمره أربعون سنة، وذلك لأنَّه اعتبر متوســط عمر الشخص أربعين سنة، حيث يبلغ النضج إلى غايته مستشهداً بقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

فالدولـــة فـــي أولها تكون بدوية ،حيث يكون الإنفاق معقولاً، ولذا يكون هناك إمعـــان في الجباية والإسراف، وإذا عظم المال انتشر الترف الذي يؤدي إلى انهيار الدولـــة، فـــإنَّ نفقـــات السلطان وأصحاب الدولة تتضاعف، وينتشر الإسراف بين الـــرعايا، وتمـــتد أيديهم إلى أموال الدولة من جهة، ومن جهة أخرى يبدأ الجند في التجاســـر علـــى السلطة، فيضطر السلطان إلى مضاعفة الضرائب، فيختل اقتصاد الـــبلاد، ولكن الجباية مقدارها محدود، كما لا يستطيع رفع الضرائب إلى ما لا نهاية، ولذا يضطر إلى الاستغناء عن عدد من الجند حتى يوفر مرتباتهم، فتضعف حمايته، وتتجاسر عليه الدول المجاورة أو القبائل التي ما تزال محتفظة بعصبيتها.

وبالتالي تمر الدولة بالأطوار التالية:

الطور الأول: هو طور التأسيس

وفيه يكون السلطان جديد العهد بالملك.لذا فهو لا يستغني عن العصبية، وإنَّما يعتمد عليها لإرساء قواعد ملكه، فيكون الحكم في هذه المرحلة مشتركاً نوعاً ما بين الملك وبين قومه وعشيرته، ويتميز هذا الطور ببداوة المعيشة ،وبانخفاض مستواها ،فلـــم يعرف الغزاة الجدد بعد الترف.ويشترك الجميع في الدفاع عن الدولة لوجود الشجاعة والقوة البدنية.

وقـــد ضرب ابن خلدون مثلاً بالدولة الإسلامية في طور تأسيسها، وهو عهد الرســـول صـــلى الله عليه وسلم، وعهد الخلفاء الراشدين، والذي قضى فيه الإسلام علـــى العصبية القبلية القائمة على التفاخر بالآباء والأنساب ،وحلَّ محلها الأخوة في الدين لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِـــتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْـــرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، وقوله تعالى: (إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ،فآخى بين الأوس والخزرج وسمَّاهم بالأنصار ،وآخى بينهم وبين المهاجرين.

وبعـــد وفـــــاة الرســـول صلى الله عليهم وسلم قامت الخلافة ولم يقـــم ملك، وكانوا محافظين على حياة البداوة من خشونة العيش والبعد عن الترف بالرغم من أنَّ المـــال الـــذي جاءهم من فتوحات الشام والعراق وفارس لا يحصر، وقد بلـــغ

نصيب الفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثين ألفاً من الذهب ،ومع ذلك كان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يرقع ثوبه بالجلد.وبالرغم ممَّا جاءهم من مال حلال من الفيء والغنائم ،لم يكن يصرفهم فيها بإسراف ،وإنَّما كانوا على قصد في أحوالهم. ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل على حق، وإنَّما اختلف اجتهادهم في الحق واقتتلوا عليه، وإن كان المُصيب علياً كرَّم الله وجهه، فلم يكن معاوية– رضي الله عنه – قائماً فيها بقصد الباطل، وإنَّما قصد الحق وأخطأ.

الطور الثاني: هو الانفراد بالملك

ويرى ابن خلدون أنَّ الانفراد بالسلطة ميل طبيعي وفطري لدى البشر، ولذا فإنَّ السلطان عندما يرى ملكه قد استقر يعمل على قمع العصبية، كما يعمل على الانفراد بالحكم، واستبعاد أهل عصبيته من ممارسة الحكم، وعندئذ يتحول من رئيس عصبيَّة إلى ملك. وقد يفعل ذلك أول من أسَّس الدولة، وقد لا يفعل، فلا تدخل الدولة في هذا الطور الثاني إلاَّ مع ثاني زعيم أو ثالث، ويتوقف ذلك على قوة صمود العصبية.

ويضطر السلطان إلى الاستعانة بالموالي للتغلب على أصحاب العصبية، أي أنَّه يبدأ في هذه المرحلة الاعتماد على جيش منظم من أجل المحافظة على المُلك.

وهذا الكور يمثله قيام الدولة الأموية إلى سقوط الدولة العباسية: كان خلفاء بني أمية يسيرون على الحق حتى نهاية عصر عمر بن عبد العزيز، ثُمَّ بعد ذلك استعمل خلفاؤهم طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق، فانصرف الناس عنهم وأيَّدوا الدعوة العباسية ،وصرف العباسيون الملك في وجوه الحق ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد فكان منهم الصالح ومنهم الطالح، ثُمَّ أفضى الأمر إلى بنيهم، فأعطوا الملك والترف حقه، وانغمسوا في الدنيا وباطلها، ونبذوا الدين وراءهم فأذن الله بحربهم، وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة.

الطور الثالث: وهو طور الفراغ والدعة

وفي هذا الطور يتم تحصيل ثمرات الملك وتخليد الآثار وبُعد الصيت، فالدولة في هذا الطور تبلغ قمة قوتها، ويتفرغ السلطان لشؤون الجباية، وإحصاء النفقات

والقصــد فــيها، ولتخليد ملكه بأن يبني المباني العظيمة الشاهدة على عظمته، وفي هذه المرحلة يستمتع الجميع: السلطان بمجده، وحاشيته بما يغدقه عليها السلطان.

الطور الرابع: هو طور القنوع والمسالمة

وفــي هــذا الطور يكون صاحب الدولة قانعاً بما بناه أسلافه مقلداً لهم قدر ما يســتطيع، والدولــة فــي هذه المرحلة تكون في حالة تجمد فلا شيء جديد يحدث، وتغير يطرأ، كأن الدولة تنتظر بداية النهاية.

الطور الخامس: هو طور الإسراف والتبذير

ويكون صاحب الدولة في هذا الدور متلفاً لما جمعه أسلافه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته،فيكون مخرباً لما كان سلفه يؤسسون، وهادما لما كانوا يبنون.

وفــي هــذا الطــور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا برء منه إلى أن تنقرض.

هذا ولو طبقنا باقي أطوار الدولة على الدولة الإسلامية في العصرين الأموي والعباســي نجد أنَّ الدولة الأموية لمَّا قرَّب بعض الخلفاء عرب الشمال "المضرية" على عرب الجنوب "القيسية" أصبح هناك تناحراً بين العرب.

وفي عصر الدولة العباسية أدخل الموالي، وأدخل السودان والأتراك والصقالبة والأرمن، وعناصر أخرى كثيرة دخلت في الدولة الإسلامية، تناحرت هذه العناصر، كــل يتعصــب لبنــي جلدته، وكل يتعصب لتركيز سلطانه، وبذلك ضعف الخلفاء، وظهــرت إمرة الأمراء، وأصبح الخليفة لا حول له ولا قوة، وقوي جند المرتزقة، واســتولوا على كل ما في خزانة الدولة، وأصبح الخليفة يسترضي الجند المرتزقة لأنهــم هم عدته وسلاحه بعد أن أبعد عصبيته، وأهله، فلمَّا تخلو الخزينة، ويشغب الجــند يصــبح الخليفة لا قيمة له، ويمشي حافي القدمين، وتُسمل عينه، ويمكن أن تصــبح مــدة وزارة شخص يوم أو ثلاثة أيام ،أو شهر ،وتضعف الدولة، وينقض علــيها العــداء من كل جانب، كما حدث مع المغول والصليبيين، وينقض المماليك علــى الحكم كما حدث في مصر، ثُمّ بعد ذلك تنهار الدولة تماماً. ويرى ابن خلدون أنَّ بدايــة انحــلال الدولــة يرجع إلى عنصرين هما: انحلال العصبية، والانحلال المالي نتيجة تبذير السلطان، ولهذا تنهار الدولة سياسياً واقتصاديًا.

جيوفانى فيكو (١٦٦٨-١٧٤٤) :

قدم إضافة هامة حيث اعتبر الإنسان ليس مجرد عقل محض، وإنما عضو في جماعة، ورسم مسارا لتطور جميع الأمم إلى الأمام على شكل لولبي، مما يجمع بين الدائرة والخط المستقيم.

ووضع فيكو نظرية تطور الأمم وأطلق عليها اسم "نظرية الدورات"

التعاقب الدورى للحضارات عند فيكو

تستند نظرية فيكو في التعاقب الدورى للحضارات إلى المسلمات الآتية:

١- تبدو عصور التاريخ كما لو كانت ذات خصائص عامة، فمع أن لكل عصر طابعه النوعى الذي يتضح في التفصيلات فانه بين العصور المختلفة خصائص مشتركة فترة هوميروس على سبيل المثال في التاريخ اليونانى تشابه العصور الوسطى حيث الملاحم وعصر البطولة، وحيث الحكم ذو طابع ارستقراطى، كما يغلب على الادب طابع الشعر الغنائى وعلى الاخلاق طابع الولاء.

٢- كل فترة تاريخية تتبع أخرى على نفس الخط، ففترات البطولة تعقبها فترة يسود فيها الفكر على التخيل والنثر على الشعر والصناعة على الزراعة وأخلاق السلم على أخلاق الحرب،وهذه يتبعها تدهور إلى بربرية ذات طابع جديد مختلف عن بربرية عصر البطولة، بربرية فكر لا خيال ولكنه فكر منهمك عقيم ذيل فيه الطابع الإبداعى.

٣- الحركة الدائرية بين هذه الأدوار لا تعنى أن مسار التاريخ كعجلة تدور حول ذاتها ولكنها حركة حلزونية لان التاريخ لا يعيد نفسه على نفس النمط ولكنه يأتى بصور جديدة في شكل مخالف لما مضى، ومن ثم فأن بربرية العصور الوسطى تخالف بربرية اليونان القديمة اختلاف المسيحية عن الوثنية، التاريخ في تجد دائم والتعاقب الدورى فيه لايسمح بالتنبؤ[٣] .

وهو يرى أن كل أمة تمر بثلاثة أدوار :

الأول : الدور الإلهي، وفيه يعتقد الناس بأن الآلهة تدير كل شئ

الثاني: الدور البطولي، وهو دور الشخصيات القوية الهامة المؤثرة في حركة التاريخ

٣ – أنظر أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ. مؤسسة الثقافة الجامعية، ص ١٥٩-١٦٠.

الثالـــث: الـــدور الإنســـاني، وهو دور الحضارة الحقيقية التي تسود فيها المساواة الطبيعية بين الناس والقوانين التي يتساوى فيها الجميع[٤] .

ثانياً: الاتجاه البطولي في تفسير التاريخ [٥]

ويعتـــبر الاتجـــاه البطولي في تفسير التاريخ من أقدم التفسيرات التي عرفها الإنســـان وهـــو يعـــنى أن الأعمال التي للرجال العظام هى التي تصنع الحوادث التاريخية في هذا العالم.

وكان الاعتراف بأن عربة التاريخ يحركها أبطال أشدّاء محاربين، وكان الناس يعتقدون أنّهم أسمى من البشر، وتسود الأرستقراطية نُظم الحكم هذه، وفي هذا الدور نشأت الفروسية وكانت تمجّد الحرب.

ولقـــد بدأ هذا الاتجاه منذ زمن الفراعنة وبلاد ما بين النهرين والصين، فقد كان الملك هو واضع القوانين ومسئولاً مسئولية كاملة عن الدولة من كافة النواحي ومجدته الرعية حتى قال بعضهم "أنا ربكم الأعلى" وصدقته الرعية.

الاتجاه البطولي عند اليونـان :

أمـــا عـــند اليونان وجدنا ملحمتا الإلياذة والأوديسة للشاعر اليونانى هوميروس تعتبران نموذجاً لتمجيد البطولة والأبطال، وهي ملحمة أثرت في تاريخ الفكر اليوناني بل والبشري كله وأصبح" أُخيل "ذلك البطل الذي يقود الحروب ويغير مسار التاريخ.

هيرودوت (٤٨٤-٤٢٥ ق.م)

أما هيرودوت الكاتب الإغريقي الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، قد كتب ما يمكن أن نسميه أول كتاب في التاريخ، ولهذا استحق أن يُلقب بـــ (أبي التاريخ).

وما يميز هيرودوت عن غيره من المؤرخين هو اهتمامه بتسجيل الوقائع الحقيقية والابتعاد عن الخرافات والأساطير التي كان غيره يسجلها كأحداث تاريخية.

ويحـــتوي تـــاريخ هـــيرودوت على مناقشات قيمة وحية حول العادات والتقاليد والجغرافيا وتاريخ شعوب البحر المتوسط وخصوصا المصريين الذين اعجب ببلادهم وسماها هبة النيل.

---

٤ – أنظر محمود أحمد دواه: الاتجاهات المختلفة في تفسير التاريخ، مجلة الفكر العربي، عدد ٥٨ لسنة ١٩٨٩م، ص ٥٠.

٥ – أنظر محمود أحمد دواه: المرجع السابق، ص ٤٨.

واعتمد هيرودوت في كتاباته أسلوب التشويق والإثارة خاصة عندما كان يكتب عــن تاريخ اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، وقد ركز اهتمامه على الحرب بين الإغــريق والفــرس ووصف بشكل تفصيلي معركة (الماراثون (و) زرزيس) التي انتصر فيها اليونانيون على الفرس.

وكتب هيرودوت تاريخه على أمل أن يحفظ به أعمال الناس ولكى يمنع الأعمال العظيمة والمدهشة التي قام بها اليونان والبرابرة، يعنى (غير اليونان)، من أن تفقد ما تستحقه من التمجيد.

ومن هنا ظن هؤلاء المؤرخون، أن السبب الرئيسى للتغيير في التاريخ هو بسالة عظماء الأبطال والكهنة والملوك.

ولقــد جاء في مقدمة كتب التاريخ التسعة المعروفة باسم (التواريخ لهيرودوت بأنـــه كتب تاريخه على أمل أن يحفظ به أعمال الناس ولكى يمنع الأعمال العظيمة والمدهشـــة التـــي قـــام بها اليونان والبرابرة، يعنى (غير اليونان)، من أن تفقد ما تســـتحقه مـــن التمجيد، ومن هنا ظن هؤلاء المؤرخون، أن السبب الرئيسى للتغيير في التاريخ هو بسالة عظماء الأبطال والكهنة والملوك.

ثوكيديس (٤٦٥-٤٠١ ق.م)

وبعد هيرودوت جاء المؤرخ اليونانى ثوكيديس وقد تناول التاريخ بطريقة جديدة بعيدة عن الأساطير والقصص الخرافية؛ فوضع بذلك حدا فاصلا في كتابة التاريخ بين المـــنهج الملحمـــي والتأثر بالإعتقاد بما فوق الطبيعة وبين الكتابة التاريخية التي تقوم على تمحيص الحقائق واستقصاء الأسباب المعقولة للأحداث والعلل التاريخية.

والموضوع الرئيس الذي اختاره هو حرب البلوبونيز، وقد اظهر أن أهمية الكتب التاريخـــية مـــتوقفة على دقة المعلومات وصحتها أكثر مما هي متوقفة على العرض الجـــذاب ولـــم يكن يكتفي بنقد المراجع وانما كان بارعا أيضاً في تنسيق المواد التي يجمعها ويفسرها.

وقـــال ثوكـــيديس بنظرية بنظرية (الرجل العظيم)، وفيها يوضح الدور الذي يلعبه الأبطال في صنع التاريخ. لأن أعمال الأبطال من ملوك وقادة وشجاعتهم هى التـــي صنعت التاريخ. ولقد وجهت هذه النظرية المناهج التربوية زمناً طويلاً، ولقد

أولــت اهــتمامها لسير الأفراد الذين ساعدوا على تحويل مجرى التاريخ، وأهملت الدور الذي تلعبه الشعوب في صنع الأحداث التاريخية.

إن الطـابع الذي اتسمت به كتابة معظم المؤرخين الأغريق ظل مقتصراً على قصص الأبطال وشجاعتهم الخارقة في مختلف الميادين الحرب والقتال.

بلوتارك (١٢٥-٤٦ ق. م)

ثـم جـاء المـؤرخ الألمانى الشهير بلوتارك الذي جمع في شخصه شخصية المـربى وشخصية المؤرخ بكتابة (حياة العظماء) مؤكداً ما أكده توكيديدس من قبل بشأن نظرية الرجل العظيم. ولقد عمد بلوتارك إلى تحليل وتمجيد الشخصيات التي شاركت في صنع التاريخ للعالم.

ويمكـن القول بأنه منذ عصور الملكيات الوثنية التي قامت في عصر البرونز بمصـر وبـلاد الرافديـن والصين وبسبب الاعتقاد بقوى خارقة تنسب للملك فإن الاعتقاد كان سائداً بأن الملك هو العامل الوحيد المؤثر في كافة الأحداث التاريخية.

العصر الحديث :

هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣)

ولقد استمرت نظرية الرجل العظيم في تفسير التاريخ خلال العصور الوسطى والحديـثة وإلـى ذلك يشير الفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) حيـث يقول: لقد كان الملك في العصور الماضية يمثل كل شئ بينما بقية الناس لا يمـثلون شـيئاً ولذلك كانت أعمال الملك تغطى الصورة بكاملها بينما تكون أنماط حياة الشعب خلفية غامضة.

وحيـن يفضـل جـان جـاك روسو تنظيم المادة التاريخية حول الشخصيات التاريخـية فإنـه يـبرز لنا من جديد مدى تأثر المفكرين الأوروبيين في العصور الحديثة بنظرية الرجل العظيم التي ابتدعها اليونان وقلدهم فيها الرومان.

توماس كارليل (١٧٩٥-١٨٨٥)

ومـن أشهر المدافعين عن الاتجاه البطولى في تفسير التاريخ توماس كارليل (١٧٩٥- ١٨٨٥) وكان ذلك في كتابه (الابطال) حيث يقول: في اعتقادى أن التاريخ العـام تـاريخ ما أحدث الإنسان في هذا العالم، إنما هو تاريخ من ظهر في الدنيا من

العظمــاء فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الأسوة والقدوة وهم المبدعون بكل ما وفق إليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما تراه في هذا الوجود.

فريدريك نيتشه[٦] (١٨٤٤-١٩٠٠م) صاحب فلسفة السوبرمان

ونــادى نيتشـــة بفلسفة القوة وتمجيد الزعيم الكاريزمي) الذي هو ملهم محبوب وقدراته فوق قدرات البشر

وقد ظهرت آثار تلك الفلسفة عند هتلر ونداء الجنس الآرى ذو الدم الأزرق النبيل ووجدنا النشيد الوطني الألماني في تلك الفترة يقول: "ألمانيا فوق الجميع، نساء ألمانيا ونبيذ المانيا من اجل الوحدة الألمانية".

فريدريك آدامز وود :

أما العالم الأمريكى (فريدريك آدامز وود) فقد وضع دراسة مفصلة عن (٣٨٦) ملكـــاً فـــي أوروبة الغربية وهو يرى نتيجة لأبحاثه أن البطل التاريخي في المقام الأول هـــو الملك. فهو يحاول إذن إعطاء أساس تجريبى لنظريته، وبعد أكثر دعاة الاتجاه البطولى في تفسير التاريخ غلواً بعد توماس كارليل.

وكـــان هـــيجل قـــد أوضـــح أن الرجل العظيم ليس نتاج الأحوال المادية أو الاجتماعـــية أو البيولوجـــية بـــل أنه يعبر عن روح زمنه أو أنه روح حضارته، ويتوقف ظهوره على قالب مقدر ومكتوب خارج حدود الزمن وهو يتخلل الأحداث في الوقت المناسب بطريقة غامضة.

وهكذا فقد اعتبر بعض المؤرخين التاريخ من صنع الأبطال العظماء في حين أنكـــر البعض الأخر أى أهمية لدور الأفراد لاعتقادهم بأن الأبطال ليسوا إلا نتاجاً للقوى الأجتماعية المحيطة بهم.

ولابـــد مـــن الإشارة إلى وجود فئة ثالثة من المؤرخين والفلاسفة التي قد اتخذت موقفـــاً وسطاً، وهذا الفئة تقرر بأن كلا الموقفين فيه شئ من الصحة، وأننا في كل حالة ينـــبغى أن نتبين عملاً فردياً يلعب دوره إلى حد ما في تقرير الموقف، وأن النقد الكبير الذي وجهه معارضو نظرية الرجل العظيم إليها هو أنها تتجاهل دور البيئة الاجتماعية

٦ - نيتشـــة فيلســـوف ألماني، عالم نفس،و عالم لغويات متميز. تميز بشخصية عدوانية ويعتبر من بين الفلاسفة الأكثر شيوعا وتـــداولا بين القراء. كثيرا ما توصف أعماله بأنها حامل أساسي لأفكار الرومانسية الفلسفية والعدمية ومعاداة السامية وحتى النازية.

والأوضـــاع الاقتصـــادية التـــي يظهر من خلالها هؤلاء الأفراد المتفوقون ويمارسون نشـــاطهم فـــي محـــيطهم لأنـــه مـــا مـــن فرد يصنع التاريخ وإلا وهو محدود بثقافته وبالحضارة التي ينتمى إليها، إن الإنسان لا يستطيع أن يفعل إلا ما تسمح به حضارته.

ولكـــن الاتجاه البطولى في تفسير التاريخ ما زال له أنصاره من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين يرون أن أعمال الرجال العظماء هى التي توجه الحوادث التاريخية وتســـاعد علـــى تغيير وجه العالم بين أونة وأخرى. وما زالت سير وتراجم العظماء والأبطال تعتبر فرعاً من فروع التاريخ السياسي.

ثالثاً: الاتجاه الديني في تفسير التاريخ

وهـــذا المفهـــوم قديم قدم البشرية[٧] ويعنى الاعتقاد بوجود قوى ثابتة مستقرة وراء التغـــيرات التـــي تحدث في المجتمع. وهى إرادة الالهة في العصور ما قبل الأديـــان الســـماوية، ثم قوة الله الواحد بعد التوحيد ونزول الأديان السماوية. وهذه القـــوة تفـــرض سلطانها على شئون البشر، وإرادتها كاسحة، وسلطتها المشروعة تخلق قانوناً معينا يحرك شئون البشر في كل مجال.

ففي الزمن القديم كانت الشعوب تعيش في ظلّ حكومات تشرّع قوانينها بما تعتقد أنّه مشيئة الآلهة، وذلك عن طريق الرؤساء الدينيين أو من وحي الكهّان، فكان ما يقع في ذهن المشرع، يُنسب إلى الآلهة، سواء إله الخير، أو إله الشرّ، أو إله البحار، أو إله الشمس، أو ما أشبه ذلك.

ويكـــون لحكـــم هؤلاء الرؤساء الدينيين أو وحي الكهّان، قداسة خاصّة لا يمكن تخطّـــيها، فمـــن تخطّاهـــا يرون أنّه يعاند المشيئة الإلهية، فيستحقّ العقاب التكويني كالـــزلازل، والفيضانات، أو العقاب التشريعي مثل الإلقاء في النار، أو في البحر، أو في غابة لتأكله السباع، أو في بئر عميق، أو يستحق القتل بالجلد، أو الرجم، أو الذبح، أو قطع الأعضاء.

والاتجـــاه الدينـــي فـــي جوهره يعنى الاعتقاد بوجود قوى ثابتة مستقرة وراء التغيرات التي تحدث في المجتمع، وهى إرادة ومشيئة الله تعالى.

ولا يـــأخذ هـــذا المفهـــوم بالمصـــادفة، لأن المصادفة تعنى الفوضى والعبث والأيمان بالعناية الألهية في التاريخ يقتضى إيمانا بالله، ومن ثم فإن المفهوم الدينى

٧ – أنظر عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ. مؤسسة ابن خلدون، ١٩٩٩ م، ص ١٢٤.

في التاريخ ليس نظرية، ولكنه مستوى من الإيمان والاعتقاد في وجود تدخل محكم مـــن الأله الحكيم. ليخطط للأنسان العاجز عن فعل الخير لنفسه (المقدر والمكتوب. ولولا هذا التدخل الألهى، لأصبح التاريخ كومة مضطربة من عصور متراكمة في عبث أو مأساة رهيبة دون بداية معقولة أو نهاية مقبولة.

ويسيطر هذا المفهوم على القصص التاريخي في الكتب السماوية حيث يخرج القـــارئ بنتــيجة مؤداهـــا أن حركة التاريخ الحقة ليست سوى خطة الهية لخلاص العـــالم، مقـــررة ســـلفا في خطوطها العامة على الأقل منذ بدء الخليقة وحتى يوم الحساب. ومهمة المؤرخ هنا عبارة عن تتبع خطوات تنفيذ هذه الخطة. وفي ضوء هذا، قرأ القديس أوجسطين التاريخ القديم ليستخلص منه ما يؤكد فكرة غرق الجنس البشـــرى في الخطيئة والمعصية، وأستحقاقه ما أصابه من حروب وما أحاط به من كوارث.

ففـــي الحالات التي لم يستطع فيها المؤرخون تقديم بعض التفسيرات البطولية للـــتاريخ قدموا تفسيرات دينية نتيجة لاعتقادهم بوجود قوى خارقة تهيمن وتسيطر على العالم وتوجهه سموها بالاله.

فعـــند اليونان القدماء ولدى شعوب الشرق القديم ولا بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصـــر تـــم ذكر مثل هذه الألهة وأحياناً اعتبروا الملك على أنه هو الاله أو ممثل الاله على وجه الأرض ونسبوا إليه الحوادث التاريخية. فحركة التاريخ ليست سوى الخطـــة الإلهـــية لخلاص العالم، وهذه الخطة مقررة في خطوطها العامة منذ بدء الخلـــيقة وحـــتى يوم القيامة وهذا التفسير ساد تواريخ التوراة كما أنه يتجاوب مع المـــنهج التاريخي للكنيسة المسيحية ولكن بصورة أعمق، وأما التفسير ساد تواريخ التوراة كما أنه يتجاوب مع المنهج التاريخي للكنيسة المسيحية ولكن بصورة أعمق. وأمـــا التفسير الإسلامي للتاريخ فإنه يدعو أيضاً إلى الاعتقاد بوجود الإله المسيطر على كل شئ والموجه لكل شئ ووفقاً لهذا التفسير تغدو حركة التاريخ التي يتبع لها الكون حركة واحدة تبدأ يوم خلق الله السموات والأرض وتتجه نحو يوم القيامة. إذا هـــنالك فـــريق مـــن المؤرخين وهم من أصحاب النظرات الدينية في الزمان وفي التاريخ وهؤلاء ربطوا الزمان بالخلق الأول وبمصير الإنسانية في الدنيا، وبالنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب، ومن أبرز ممثلى هذا الاتجاه (فيلون حوالى ٢٥

ق.م-٥٠م) بالنسـبة إلـى اليهودية والقديس أغسطس(٣٥٤-٤٣٠م) بالنسبة إلى المسيحية وابن خلدون المتوفى (٨٠٨هـ) بالنسبة إلى الإسلام(٨) .

ويلاحظ أن التاريخ الذي كتب على أساس ديني سواء في العصور القديمة أو الوسـطى، اتخـذ له صفات خاصة، فهو مثلا يكون تاريخاً عاماً، أو تاريخاً للعمل يـرجع إلى أصل الإنسان منذ بدء الخليقة ويعرض للكيفية التي نشأت بها الأجناس البشـرية. وهو أيضا لا ينسب الأحداث لحكمة البشر ولكن لأعمال القدر. وهو من ناحـية ثالثة يدور حول محور رئيسى مثل ظهور الأنبياء فيصبح التاريخ دائرا كله حـول ظهـور الأنبـياء. وهـو أيضا من ناحية رابعة يجعل المؤرخ يعتمد على المصادر التقليدية لتمده بالحقائق. ولما لم تكن لديه الأدلة الكفيلة بنقد هذه المصادر التقلـيدية، فلـم يكن أمام المؤرخ الا تصديق ما تمده به هذه المصادر حيث يعتمد عليها دون مناقشة عميقة.

وبتأثير هذا التفكير، وهو أغفال الأرادة الإنسانية في توجيه الأحداث انصرف مؤرخـوا العصور الوسطى إلى البحث عن جوهر التاريخ في خارج نطاق التاريخ نفسه. وبمعنى آخر الانصراف عن أعمال الإنسان والبحث عن الخطة التي رسمتها المقاديـر لتوجـيه أحداث التاريخ. وكان هذا هو السبب في ان تدوين التاريخ في العصـور الوسطى اتسم بالضعف من حيث النقد والتحليل، وهو ضعف ليس ناتجا لقلـة المصادر التاريخية والمادة العلمية، وإنما كان بسبب القيود التي فرضت على المـنهج الذي رسموه لأنفسهم والتركيز على دراسة خصائص الذات العليا القدسية، أكثر من دراسة دقيقة علمية للحقائق التاريخية.

وكان هؤلاء المؤرخون أميل إلى سرعة الاعتقاد والتصديق منهم إلى التحرى والتدقـيق فـي قبول الأخبار ورواية الأحداث، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعى والمـثإلى، أو الحق التاريخي والحق الشعرى، وكانت الملاحم الشعرية تعد مراجع تاريخـية، ولم يكن هناك ما يحول دون تزييف الأخبار وتزوير الوثائق والأسانيد، ولـم تكن هناك عناية بكشف الحقائق وبحض الأباطيل، ما دامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر، وتؤيد معتقدا من المعتقدات الشائعة.

ولاسـتخدام هذا المفهوم في كتابة التاريخ مظاهر شتى، فنجد أن أنصاره هم الذيـن أطلقوا صفة "الصليبية" على الحروب التي تمت بين المشرق والغرب خلال

---

٨ - أنظر محمود أحمد دواه: المرجع السابق، ص ٥٢.

العصور الوسطى، لا شئ سوى اختلاف عقيدة المتحاربين بين المسيحية والإسلام، وأيضا تفسيرهم خروج العرب من الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر، عل أنه اســتمرار للصــراع بين المسلمين والمسيحيين، مع أن الخلاف الدينى المذهبي بين الطرفيــن أقدم من هذا بكثير بسبعة أو ثمانية قرون على الأقل، ويتضح أيضاً في تفســير الصراع بين اليهود والعرب على أنه صراع دينى، مع أن الخلاف الدينى ثابــت وقديــم، وتحريك الصراع في تاريخ معين لابد وأن يبعث في ذهن الباحث محأولــة تعلــيل غير مثالية، كالاختلاف على طرق التجارة بين الشام واليمن منذ القدم بين قريش ويهود الجزيرة. والذي أخذ بعدا دينيا بنزول الإسلام.

أمــا التفســير الإسلامي للتاريخ فيعد التفسير العلمي القائم على البرهان والدليل وكذلك التأكيد على العبرة والدرس من أحداث التاريخ الذي يسير وفق منهج وناموس إلهــي عميق مع التأكيد على حرية الإنسان وإرادته التي تجعل منه مسئولاً عن جميع أفعاله في الدنيا والآخرة.

وهو يؤكد على وجود الإله الحكيم المسيطر على كل شئ والموجه لكل شئ فهو المهيمــن ولكــن لــيس بظلام للعبيد وبالتالي رغم هيمنته ترك للإنسان النجدين (أي الطريقين، طريق الخير وطريق الغي) وعليه الاختيار.

ووفقــاً لهذا التفسير تصبح للحياة معنى وهدف والتاريخ يصبح شاهداً والقضاء والقــدر ذاتهــا لم تقف عائقا ولا هي تحول دون إبراز نشاط الإنسان، والتاريخ شاهد أميــن على صدق هذا القول في كثير من الحالات، فقد كان المسلمون يعرفون أن الله سبحانه وتعالى قد قدر كل شئ في سابق علمه ومن الأزل، وان ما قدر يكون، مع هذا اندفعوا لتحطيم الفرس والروم في فترة لا مثيل لها في القصر، وبذلوا جهداً خارقا في ســبيل نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية حيثما استطاعوا، وانصرفوا يجرون ورائهــم رزقهم ومعاشهم وأمورهم الدنيوية، لأنهم كانوا يدركون في نفس الوقت أن لكل امرئ ما سعى وان السماء لا تمطر ذهباً أو فضة

رابعاً: الاتجاه المثالي (ميتافيزيقا هيجل)

جــورج فيلهلــم فريدريــك هيجــل Hegel, George Wilhelm Friedrich (١٧٧٠-١٨٣١) فيلسوف ألماني ولد في شتوتجارت.

ويعتبر هيجل أحد أهم الفلاسفة الألمان حيث يعتبر أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

ربطـــته صداقة مَع فلاسفة المستقبل فريدريك شيلنغ وفريدريك هولدرلين. بعد ذلك جذبته وسحرته أعمالِ سبينوزا، كانط، وروسو، والثورة الفرنسية.

كـــان مشـــروع هـــيجل الرئيسي الفلسفي أنْ يَأْخذَ هذه التناقضاتِ والتَوَتّراتِ ويضعها في سياق وحدة عقلانية شاملة، موجودة في سياقاتِ مختلفةِ، دعاها "الفكرة المطلقة "أو" المعرفة المطلقة".

وطبقاً لهيجل، الخاصية الرئيسية في هذه الوحدةِ أنها تَتُطوّرَ وتتبدى على شكل تناقضـــات Contradiction وإنكـــارات Negation. تولـــد التناقض والإنكار لَهُما طبيعة حركية في كل مجال من مجالات الحقيقة – الوعي، التاريخ، الفلسفة، الفن، الطبـــيعة، المجـــتمع – وهذه الجدلية هي ما تؤدي إلى تطويرِ أعمق حتى الوصول إلـــى وحـــدة عقلانـــية تتضمن تلك التناقضاتَ كمراحل وأجزاء ثانوية ضمن كل تطـــوري أشـــمل. هـــذا الكل عقلي لأن العقل وحده هو القادر على تفهم كُلَّ هذه المراحلِ والأجزاءِ الثانوية كخطوات في عملية الإدراك.

وهـــو عقلانـــي أيضـــا لأن النظام التطوري المنطقي الكامن يقبع في أساس وجوهر كل نطافات الواقع والوجود وهو ما يشكل نظام التفكير العقلاني.

تقـــوم فلســـفة هـــيجل المثالـــية على اعتبار أن الوعي سابق للمادة بينما تقوم الـــنظرية الماركسية على اعتبار أن المادة سابقة للوعي على اعتبار أن المادة هي مـــن تحـــدد مدارك الوعي وبالتالي يتطور الوعي بتطور المادة المحيطة بالإنسان، وميز هيجل بين سياق الطبيعة وسياق التاريخ، فاعتبر أن مسار التغيير في الطبيعة تكـــرارا دائـــريا دون تطـــور، وفي التاريخ لولبيا، وفق آلية الديالكتيك، وأن الدافع للتغيـــير والتطوير ينبع من الإنسان نفسه، الذي يشترك مع الحيوان بتوفر حاجات مشتركة – كالطعام والشراب والمأوى وحفظ البقاء – لكنه يتميز بوجود العقل الذي يدلـــه على كيفية تأمين هذه الحاجات. وعندما حملت جيوش بونابرت مبادئ الثورة الفرنســـية ١٧٨٩ وتحقـــق لها النصر على حكام أوروبا المستبدين في موقعة بينا ١٨٠٦ اعتـــبر هـــيجل هذا العام نهاية التاريخ، لأن التناقضات التي تسبب حركة التاريخ قد حلت.

مبادئ فلسفة هيجل :

وتقوم أفكاره على عدة مبادئ منها :

- أن العقل يسيطر على العالم ويحكمه وهو جوهر التاريخ البشرى
- دعا إلى ما يسمى الفكرة المطلقة أو المعرفة المطلقة.
- الكــل عنده أكبر من مجموع أجزائه؛ بل هو وحدة مطلقة لا تعتمد على شئ خارج عنها.
- تــدور أراء حــول فكرة الأضداد وأن التناقض لديه هو مصدر كل حياة وكل حركة، وكذلك فكرة الإثبات والنفي ونفي النفي.

والــتطور (حســب هــيجل) هو في جوهره نتيجة صراع المتناقضات، على أساس أن كل ظاهرة تحتوي تناقضاً داخلياً يدفعها إلى الأمام، ويؤدي بها آخر الأمر إلــى تحطمها وتحولها إلى شيء آخر"[٩] . و"قد يبدو لذي النظر السطحي أن الناس أحــرار في ن يعملوا ما يشاؤون كما يريدون، وأن أعمالهم تنبعث عمًّا يشعرون به مــن حاجات وعواطف، وعما يتمتعون به من مزايا ومواهب. ولكن هيغل يرى أن هــذا تصور شديد الخطأ عانى منه الكثير منذ زمن سحيق، فهذه الأعمال جميعاً تتم بأمــر روح العالم. إنهم يعتبرون أنفسهم رجالاً أحراراً يستمدون باعث حياتهم من أنفسهم، ومما يشعرون به شخصياً من أنواع الاهتمام والميول. ولكن الحق (حسب هيغل) هو أنهم جميعاً دمى في يدي "روح العالم"[١٠] .

وقــد كــان من أبرز الجوانب (في أفكار هيجل) التي وجهت إليها سهام النقد، نظريته في الدولة، وقولــه "إن كل ما كان معقولاً فهو حقيقي، وكل ما كان حقيقياً فهــو معقــول". وقــد تساءل أحدهم: "إذا لم تكن حوادث العالم نتيجة لإرادة واعية للأفراد، فكيف تمَّ القيام بها؟ إن هيجل لا يعطي جواباً عن هذا التساؤل"[١١] .

هــذه الفلســفة في النظرة للعقل باعتباره جوهر التاريخ تقتضي نظرة معاكسة للــنظرة التقليدية السائدة عن التاريخ التي تعتمد على جعله مهمينا على العقل بتوقع ســيناريو للأحــداث الجاريــة أو التي ستجري بأنها ستكون على سيناريو مشابه لأحداث تاريخية سابقة مشابهة، أما فلسفة التاريخ الهيجلية فعلى العكس منها بحيث

---

٩ – عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ،، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٥ م ص ٢٤.

١٠- المرجع السابق، ص ٢٥.

١١- المرجع السابق، ص ٣١.

تعتـــبر العقل نفسه هو من يسير التاريخ بحيث يرتب أحداثه على نحوٍ يجعلها سائرة نحو هدف أو مقصد بعيد المدى.

علـــى هذا النحو فالتاريخ لدى هيجل عبارة عن منظومة تطور ونمو خاضعة لمـــنطق باطـــن كامـــن في الشخصيات التاريخية التي لم تكن وفق هذه الفلسفة إلا أدوات لتحقـــيق فلسفة أو هدف التاريخ السائر بشكل حتمي نحو تحقيق مقصد كلي بحيـــث لم تكن تلك الشخصيات التاريخية تشعر أساساً بأنها ستحققه ولم يكن يشكل فـــي الأساس مقصداً لها وإنما تصرفت على نحو جعلها تضبط وقائع التاريخ نحو ذلـــك الهـــدف، هـــؤلاء الأشخاص أو الأدوات التنفيذية كما يرمز لهم هيجل ليسوا استثناءً من فلسفة المصلحة أو المنفعة الشخصية فهم يسيرون حسب أهوائهم وتحكم تصـــرفاتهم مصـــالحهم الشخصية ويرومون تحقيق مآربهم الخاصة دون إرادة أي شـــيء آخـــر، ولكن منطق التاريخ الداخلي يؤكد أن غاية بعيدة المدى ستتحقق من ســـعيهم لمصالحهم رغم أنهم لم يكونوا هم في الأساس على علم بها ولم تكن على أجـــندة مصـــالحهم وهو ما يسميه هيجل (مكر أو خبث العقل الكلي المسيطر على التاريخ) حيث يتبدى خبث هذا العقل بأنه يستعين بهذه الشخصيات التاريخية لتحقيق مقاصـــده دون أن يكون لهم علم بها، والذي يجعل هؤلاء أقوياء وجادين على السير نحـــو الطـــريق إلى الهدف، هو أن أهدافهم الجزئية ومصالحهم الضيقة تحتوي في باطـــنها على المحتوى الجوهري الذي هو إرادة الروح الكلية أو العقل الكلي، وهذا المحـــتوى موجود في الأساس في الغريزة الكلية غير المشعور بها لدى الناس بمن فيهم أدوات التنفيذ التاريخية.

فـــي المراحل الحاسمة على الطريق نحو تحقيق مقصد أو هدف التاريخ الكلي كما يقول هيجل، تحدث اصطدامات عظمى بين الأنظمة القائمة (أنظمة فكرية معينة مسيطرة على لحظات معينة من لحظات التاريخ) وبين تيارات مضادة لهذه الأنظمة ممـــا يؤدي إلى زعزعتها بحيث تبدو هذه الاصطدامات وكأنها شر لابد منه لإتمام عملـــية الـــتحول بنجاح، ويسمي هيجل تلك الشخصيات التاريخية التي يتحقق على أيديها الزلزال التغييري عظماء التاريخ وهم حين يحققون مطامعهم أو يسيرون في طريقها وإن لم تتحقق في النهاية، فإنهم يحققون في نفس الوقت الغاية الأسمى التي تتفق مع التصور الأعلى للروح الكلية المسيطرة على التاريخ.

في هذا الاتجاه الهيجلي يمكن اعتبار معطيات وثمار عصر الأنوار الأوروبي الـــذي تحقـــق على أيدي فلاسفة التنوير بمثابة تطبيق لتلك الفلسفة الجديدة للتاريخ،

فعندما كان العقل الكلي الأوروبي سائراً نحو التحرر الكامل والتقدم في اتجاه الأنسنة الشاملة كان لابد لمنطق التاريخ من أن يعمل على إشعال نار الاصطدام بين النظام الفكري الكنسي المتزمت السائد في أوروبا وبين التيارات الفكرية التنويرية الجديدة، وكان لذلك ثمنه الباهظ الذي تمثل في الاضطهاد الكنسي للمفكرين والأدباء والفلاسفة الأوروبيين الذي جاء على خلفية محاولات الكنيسة الحفاظ على موقعها المتميز القائم على وهم حقها الوحيد في الإمساك بزمام الخلاص الروحي والتفسير الوحيد للدين، ولم يكن يدور بخلد أولئك المنفذين من أباطرة الكنيسة وقساوستها وهم يقيمون محاكم التفتيش ويحرقون العلماء ويسحلون الفلاسفة أنهم إنما يؤدون دوراً رسمه لهم التاريخ بواسطة العقل الكلي المسيطر مسبقاً، هذا الدور أدى حين بلوغه مرحلته الحاسمة إلى انتهاء دور الكنيسة الأوروبية في ما يخص هيمنتها على الأفراد والحياة وتحرر العقل الأوروبي نهائياً من قبضتها وتحولت إلى مؤسسة دينية تحكمها لوائح وأنظمة المؤسسات الأخرى في المجتمع، هذا الوضع دعا بعضاً من المفكرين العرب والأجانب إلى أن يعتبروا ما يجري حالياً من قبل الأصوليات المتشددة في العالم الإسلامي من انفجار داخلي وضيق بمعطيات الحداثة ومؤسساتها وقيامها على العنف والتفجير والتفخيخ وقتل الناس على الهوية الدينية ما هو إلا مقدمة لذلك الاصطدام الكبير الذي تحدث عنه هيجل أو ربما هو الاصطدام نفسه الذي سيعقبه اندحار تلك الأصوليات وانتصار مبادئ الحضارة الإنسانية على أنقاضها وستكون شخوصها إذ ذاك مجرد أدوات تنفيذية أدت من دون أن تقصد إلى الهدف الكبير الذي ينشده التاريخ وهو تحقيق الانتصار التام لقيم الحداثة ومبادئ الإنسانية ومفردات التنويروتحقيق العدل والحرية والمساواة وبسطها في المجتمعات الإسلامية والاستفادة من التراثات الإنسانية القائمة على مبادئ التنوير بدون عقد مسبقة أو احتشاء أو تمحور نحو تراث معين أنتجه قوم غابرون في مجاهل التاريخ لظروف عصرهم التي لم يكن بالإمكان التعامل معها بغير تلك الآليات التي يضمها ذلك التراث، ولكن والظروف المعاصرة تضغط باتجاه كونية سريعة وعولمة ضاغطة فلا بدّ لتلك المجتمعات من السير باتجاه اكتشاف آليات معاصرة لواقع معاصر يتطلب روحاً جديدة قائمة على الاستفادة من أي تراث إنساني ينشد قيمة الإنسان ويحققها.

ولكن التقدم في ضوء التفسير الميتافيزيقي لمجرى التاريخ يفيد مفهوما آخر للتقدم يخضع للاعتبارات الآتية:

١- أنـــه يكشـــف عن تقدم الروح نحو تحقيق كمالها، انه بعد كسر نطاق الطبيعة البحـــتة تهدف الروح إلى تحقيق حريتها خلال مسار التاريخ وذلك بمحاولتها البلوغ إلى مرتبة الوعي الكامل بذاتها.

٢- يـــتم هذا التقدم نحو وعى الروح بذاتها تدريجيا ومنطق الجدل (أو الديالكتيك) هو وحده الذي يكشف النقاب عن هذا المسار التدريجى.

٣- لا يفـــيد هـــذا التقدم انتقالا من النقص إلى الكمال ذلك انه وفقا لمنطق الجدل القـــائم على التناقض فان النقص يحوى في طياته معنى الكمال، ومن ثم فان مســـار الـــتاريخ يتخذ مظهراً أقرب إلى الانتقال من القوة إلى الفعل، إذ نقطة الـــبدء صـــورة مبهمة قاصرة محدودة للحرية ونقطة الوصول ما تهدف إليه الروح من تحقيق مرحلة الوعي الكامل بحريتها في صورتها العالمية.

لقد كان للإنسان وجود سابق على بداية وعى الروح بذاتها ولكنها كانت مجرد وجـــود بالقوة، ومن ثم فمرحلة ما قبل التاريخ سواء حددتها الاديان السماوية ببدء آدم على الأرض أو حددتها الدراسات الاجتماعية بالأسرة فتطورها إلى العشيرة ثم القبـــيلة كـــل هـــذه المراحل خارجية عن نطاق البحث حيث لم يكن للمجتمع كيان سياسى يمنحه تجسيداً حيا للروح، بل قد يكون المجتمع عريقا في ثقافته خصبا في تراثه أو قد يكون قدمر بأحداث هامة من حروب أو غزوات أو هجرات، ولكن أن لم تكن لمظاهر الثقافة أو للأحداث ركيزة تستند اليها أو محور تجتمع حوله فانها لا تدخـــل التاريخ، أما حينما تتجسد هذه الاحداث في دولة فان الروح تكون قد دخلت مـــرحلة وعيها ورأت صورتها منعكسة في مرآتها، لان الدولة كيان ثابت تلحق به جميع مظاهر النشاط البشرى من تشريع وقانون ودين وفن وعلم وأدب وفلسفة.

وإذا كانـــت الروح تتقدم تدريجيا نحو مرحلة وعيها بذاتها خلال مسار التاريخ فانهـــا تجـــتاز ذلـــك على مراحل تشكل كل مرحلة مبدأ محدداً يتخذ طابع عبقرية قومية، إذ تتجلى روح الأمة أو شخصيتها في ثقافتها وأنظمتها.

ولا يقـــال أن الفلسفة أو الشعر أو غيرهما كائن في كل أمة أو انه يمكن إيجاد أوجـــه شـــبه بيـــن مظاهر الثقافة في مختلف الأمم، بين فكرة التاو (الواحد) لدى الصينيين وبين أحادية بارميندس من اليونان ثم بين وحدة الوجود لدى سبينوزا من المحدثين، ذلك أنه مع ذلك يبقى فارق جوهرى هو أن الحرية تتخذ تجليات متباينة بالنسبة لكل أمة.

التاريخ تطور الروح في الزمان كما أن الطبيعة تطور الفكرة في المكان، وأن نظــرة عابرة على التاريخ العالمى تطلعنا على وجود تغير وعن ألوان من الثقافات والحضـــارات والدول والإفراد، والتغير يعنى وجود انحلال تنبثق عنه نهضة كما يخـــرج الحى من الميت، ولكن الروح حين تعبر عن ذاتها بهذه التجليات انما تمر بفـــترة معانـــاة تستهلك فيه ذاتها لتجدد حياتها وتستكمل نضجها، ولكن كيف تنبثق النهضـــة من الانحلال في دولة ما ؟ انه إذا ما بلغ الشعب ما مرتبة أداء دوره في الـــتاريخ عبر عن شخصيته القوية وتصدر مسرح التاريخ العالمى، ويتم ذلك حين تـــتحد الذاتـــية والموضوعية في روحه اتحاداً تاماً، فلا هوة بين الفكر والعمل ،بل يتلاشـــى التـــناقض بيـــن الامكانـــيات التـــي تعبر عن الوجود بالقوة وبين الواقع الموضـــوعى المعبر عن الوجود بالفعل، حينئذ يكون المبدأ العالمى للروح قد منحه امكانه من الوعى بالحرية، ولكن روح الأمة كحياة الفرد حين يجتاز مرحلة النضج إلـــى الشـــيخوخة، فذلك يعنى أنه اجتاز مرحلة امكانياته فتصبح أفعاله عادات اى تصـــبح آلـــية، إذ العادة فعل ليس له معارض ومن ثم فان الديمومة في العادة آلية شكلية، كذلك تفنى الأمة حينما يصبح نشاطها الوعى آليا، ولكن في فناء أمة، ميلاد شـــعب جديـــد إذ تنبثق الروح التي تجلت في الأولى في مجال جديد، وذلك حينما يكون شعب آخر قد وصل إلى مرحلة التحقق الذاتى وتهيأ ليتصدر مسرح الأحداث ،مبدأ التطور التاريخي إذن عبقرية امة، وفي كل مرحلة توجد أمة يقع على عاتقها مســئولية تحمل رسالة العالم، هكذا يتم ارتقاء الروح من صورتها المحدودة للحرية ممـــثلة فـــي شـــعوب الشرق القديم حيث الحرية للفرد الواحد إلى أن تبلغ الحرية مرحلة وعيها الكامل، وقد بلغته لدى الشعب الجرمانى حيث الكل حر.

ومع أن التاريخ يدرس الماضى الا أن البحث الفلسفي يركز الاهتمام بالحاضر ومـــن ثم فان الروح في اجتيازها لهذه المراحل عبر تاريخ الأمم الماضية لا تتعلق بالماضى لانها خالدة، أنه لاماضى لها ولا مستقبل، أما أنه لا ماضى لها فذلك لان الصـــورة الحاضرة للروح قد استوعبت كل خصائص الماضى وأما أنه لا مستقبل لها فذلك لانه لا مستقبل في التاريخ.

هـــذا هـــو تـــاريخ تاريخ العالم بصورة المتغير كما تقدمه حولياته التي تحتل مراحل تطور الروح، هذه هى الربوبية الحقة، تبرير فعل الروح – أو بالاحرى الله – فـــي الـــتاريخ، أن هذه الفلسفة التي تعبر عن بصيرة نافذة في أعماق مجراه هى وحدهـــا التي تفسر مسار الروح في التاريخ العالمى، هذا هو ما حدث في التاريخ

وماهو حادث اليوم ليس فحسب لا يمكن تفسيره بدون الله بل أنه في جوهره يشكل صميم فعل الله[١٢] .

خامساً: الاتجاه المادي (المادية الجدلية ويمثلها كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)

ظهرت إرهاصات المعرفة المادية عند أرسطو[١٣] ؛ فأرسطو[١٤] أول من تحدث عن قدم المادة وأزليتها وأسبقيتها على الفكر وجميعهم عرضوا الفكر باعتباره انعكاسا للواقع المادى الذي افرزه.

وقد سلك أرسطو في تفكيره مسلكاً دقيقاً، واتخذ لنفسه منهجاً علمياً مبطناً يبدأ بتحديد الموضوع المراد بحثه مستعرضاً لآراء السابقين ومتناولاً إياها بالنقد والتحليل، ثم يستخلص رأيه في ذلك، ورأي العلم يدرس ماهية الأشياء، لذا كانت دراسته تنصب على الصفات العامة الجوهرية التي تتسم بالثبات، فالعلم في نظره يدرس الماهية، أو المعاني الكلية.

حأول أن يكشف العلاقة بين القياس المنطقي، والبرهان الرياضي، وفطن إلى ذلك، فجوهر القياس عنده مأخوذ من التفكير الرياضي، بل إن القياس في مضمونه ليس إلا إحدى مراحل البرهان الرياضي.

وبديهى أن تنعكس تلك المعرفة على المؤرخ اليونانى الأشهر ثيكوديديس الذي يعد رائدا في مجال التفسير المادى التاريخ

كما ان تطور المعرفة في العصور الرومانية بما يجارى الواقع التاريخي نفسه حيث كان الرومان أصحاب حضارة عولت على التجريب والواقعية الأمر الذي انعكس على تصورات الكثيرين من مؤرخي الرومان من أمثال "ديو كاسيوس" على سبيل المثال.

١٢- أنظر، أحمد محمود صبحي: المرجع السابق، ص٢١٥.

١٣- أنظر، محمود اسماعيل: قراءة نقدية، ص١٠١ - ١٠٦.

١٤- فيلسوف يوناني. تلميذ أفلاطون. وأستاذ الإسكندر المقدوني، كان والده طبيباً للملك أمنتاس الثاني ملك مقدونيا وجد الإسكندر الأكبر. وبعد وفاة والده رباه أحد أصدقاءه. والتحق بأكاديمية أفلاطون في أثينا، ولم يغادرها لمدة عشرين عاماً، إلا بعد موت أستاذه أفلاطون عام ٣٤٧ ق.م. استدعاه فيليب ملك مقدونيا، في عام ٣٤٣ ق. م، لتعليم وتربية ابنه الإسكندر الأكبر. وفي عام ٣٣٤ ق. م .ولما تولى الاسكندر الحكم، اختلف أرسطو معه فترك مقدونيا، وعاد إلى أثينا، وأنشأ مدرسته المعروفة باسم الليسيوم. وبعد موت الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق. م اتهم الأثينيون أرسطو بعدم احترام الآلهة، فهرب إلى مدينة كلسيس، خوفاً من الحكم عليه بالإعدام، مثلما حدث لسقراط. وبعد عام واحد مات فيها .ويعتبر أرسطو أول من أرسى قواعد الفلسفة للعلوم، ومؤسس علم المنطق .

وبرغم ضآلت معلوماتنا عن الحضارات الشرقية (الصينية والهندية خصوصاً) نستطيع أن نجزم بوجود تصورات مادية تضع حدا للرؤية المتواترة الخاطئة عن الشرق الفنان والروحى والغرب العقلانى المادى ومن تشكك فيما نقول فعليه بالرجوع إلى كتاب البان ويدجرى عن التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبى في العالم الإسلامي قدمنا محاولة تثبت انطواء بعض الآيات القرآنية على تصور مادى للتاريخ ومن يراجع تلك الآيات يجد مصداقا(١٥) .

في أوروبا العصور الوسطي Medieval ارتبطت المعرفة عموماً والتاريخ خصوصاً بالدين وبله بالخرافة والكرامة والصدفة والمعجزة وفي الغالب ومع ذلك نجد رؤى شمولية عند القديس أوغسطين.

وفي أوروبا العصر الحديث نجد نزعات مادية في فلسفات هوبز(١٦) ولوك(١٧) وكوندرسيه وغيرهم قبل كارل ماركس بل نجد الكثيرين من علماء الاجتماع يكتبون في التاريخ من أمثال فولتير ومونتسكيو وكونت وسبنسر وفيبر وماركس نفسه(١٨) .

١٥- المرجع نفسه.

١٦- ولد توماس هوبز في إنجلترا عام ١٥٨٨ ودخل أكسفورد وهو في الخامسة عشرة، واتضحت معالم فلسفة هوبز عام ١٦٤٠ خلال نشره كتاب (مبادئ القانون الطبيعي السياسي)، بعدها بعشر سنوات نشر هوبز كتاب (لاوثيان) أو المجتمع الكنيسي والموثي مادته وصورةُ وسلطةُ تأثرت فلسفة هوبز بالثورة البرجوازية في القرن السابع عشر، فمن خلالها يرى البعض إن هوبز فيلسوفاً مادياً إنكليزياً. فضلاً عن ذلك كان هوبز معلماً للملك شارل الأول، وقد دافع في كتابه المشار اليه (لاوثيان) عن الحكم المطلق وكان يؤيد بذلك حكم آل ستيوارت في إنجلترا.

١٧- جون لوك (١٦٣٢- ١٧٠٤) (John Locke) فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي. ولد في عام ١٦٣٢، ولعب دوراً خطيراً في الأحداث السياسية العظيمة التي وقعت في إنجلترا ما بين سنة ١٦٦٠ وسنة ١٦٨٠. لعبت علاقة لوك باللورد آشلي دوراً كبيراً في نظرياته السياسية الليبرالية. وكان اللورد آشلي يتمتع بنفوذ كبير في إنجلترا إذ كان يمثل المصالح السياسية لرؤوس الأموال التجارية في لندن، وتحت تأثير اللورد آشلي كتب لوك في عام ١٦٦٧ مقالاً خاصاً بالتسامح (On Toleration) راجع فيه أفكاره القديمة الخاصة بإمكانية تنظيم الدولة لكل شؤون الكنيسة. اعتقد الكثيرون لمدة طويلة ان لوك كتب اشهر مقالتين سياسيتين نشرتا في عام ١٦٩٠ بعنوان "مقالتان عن الحكومة" (on Government Two Treatises) تأييداً لثورة ١٦٨٨ الكبرى. وهناك وجهة نظر تقول إن المقالتين موجهتان ضد فيلمر (Filmer) وليس ضد هوبس كما كان يفكر البعض. وهاجر لوك إلى هولندا عام ١٦٨٣ بسبب ملاحقة البوليس له، وذلك لاتصالاته الوثيقة باللورد آشلي، الذي كان معارضاً للقصر وبقي هناك حتى عام ١٦٨٩، وفي هولندا كتب لوك عدة مقالات منها: مقال خاص بالفهم البشري (Essay Concerning Human Understanding) وبعض الأفكار عن التربية وأخرى عن التسامح. وعندما جاءت الثورة الكبرى، استطاع لوك العودة إلى إنجلترا. وقد رفضت الجامعات القديمة فلسفته الحسية وآراءه الليبرالية. ومع ذلك فقد عاصر شهرته الكبرى التي انتشرت في أنحاء العالم. وتوفي عام ١٧٠٤ م.

١٨- محمود اسماعيل، المرجع نفسه.

ومـــا كـــان من الممكن لكارل ماركس ان يكتشف نظريته لولا هيجل ونيتشه وشوبنهاور وعلماء الاقتصاد السياسي الإنجليز فضلا عن ديدور لفرنسي ومدرسته المادية المتطورة.

لكـــن المؤرخيـــن الأوروبييـــن التقليدين وقفوا في صراع مع أصحاب الرؤية الاجتماعية فاتهموهم بكونهم اصطلاحيين تجريدين يتجاهلون الزمان والمكان يتجلى ذلك في المحاورات الطريفة بين "سينوبوس" المؤرخ وسيميانيد عالم الاجتماع الذي اتهم المؤرخين بانهم جامعوا حقائق تنقصهم الخبرة.

وقـــد علـــق بـــروديل فـــيما بعد على هذا الحوار بأنه أشبه ما يكون بحوار الطرشان

وعـــند مـــاكس فيبر على وجه الخصوص نجد تفسيرا ماديا للتاريخ بل للدين نفسه وفق أدوات تحليل أطلق عليها[١٩] ideal types.

وعلـــى يد علماء الاجتماع المعاصرين تمت نقلة هامة في مجال سوسيولوجية المعـــرفة كمـــا تعاظم تأثير أعلام الوضعانية الاجتماعية من أمثال بريل وبلوندال وهاليفاكس وموس وغيرهم فيما يتعلق بارتباط الفكر بالواقع لكن يغلب على هؤلاء رفضـــهم مصـــطلح الطبقة واستبداله بمصطلح الوعي الجمعي وعند كارل مانهايم نجده يضع اعتباراً للواقعية الاجتماعية برغم اهداره قيمة التاريخية.

أمـــا المدرســـة البنيوية فقد عارضت الكثير من قوانين المادية التاريخية وقال معظـــم أعلامهـــا بالثـــبات والسكون والسلام الاجتماعي وان حأول البعض منهم الاعـــتراف بسوســـيولوجية المعرفة بل نجد بنيويا مثل رايت ميلز يعترف صراحة بوجاهـــة المادية التاريخية اما التوسير فلم يجد مناصا من تطعيم البنيوية بالصراع الطبقى بل ان المؤرخين تقليدين من أمثال وولش وكولنجوود اعترافا باهمية المادية التاريخية[٢٠] .

وفـــي الـــتاريخ المعاصر وبرغم الصراع الايديولولجى فان مدرسة الحوليات اعترفت بأهمية التاريخ الاجتماعي يظهر ذلك واضحاً فيما الفه لوسيان فيفر ومارك بلـــوك وانتشـــرت هـــذه المدرســـة في الشرق والغرب وعول أتباعها على دراسة مفـــردات الـــتاريخ الاقتصـــادي والاجتماعي وعند بروديل تجسدت رؤية المادية

١٩- المرجع نفسه.

٢٠- المرجع نفسه.

التاريخ على اعتبار ان الفرد جزء من حقيقة كبرى هى المجتمع هذا برغم اهتمامه أصـــلا بـــتاريخ الذهنيات. ومع تقديرنا لاهتمامات هذه المدرسة التي أطلقت على نفسها مدرسة التاريخ الجديد الا انه يؤخذ عليها فقدان الإطار النظري العام الأدوات المفاهيمية السيكيماتا كما ذهب بحق خلدون النقيب(٢١) .

ونضـــيف إلـــى ما ذهب إليه عدم الاهتمام بالتفسير والتنظير وبدونهما تصبح المعرفة معرفة ناقصة على حد تعبير مؤرخ معاصر

ولعل ذلك كان من اسباب ظهور مدرسة التاريخ الشامل ومن أعلامها ميتلاند وفيـــنوغرادوف وماكلويـــن وهنرى بيرين ويحسب لها الاعتماد على سائر المناهج المتاحة بما فيها المنهج المادي التاريخي على أساس أن كل منهج يكشف عن جانب مهـــم مـــن الحقـــيقة التاريخـــية الملغزة لنحاول الآن تقويم جهود بعض المؤرخين المحدثين والمعاصرين الذين عولوا على التفسير الاجتماعي(٢٢) .

بالنســـبة للماركســـية فـــي الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية سابقا نرى انهم ينقســـمون إلـــى تياريـــن الأول من المؤرخين الدوجمائيين الذين حاولوا اعتساف التفسير للمجتمعات العربية الإسلامية تحت تأثير الإيديولوجيا الماركسية ومعلوم ان مـــاركس وانجلـــز نفســـهما لـــم يتوصلا إلى صيغة علمية محددة حول الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لهذه المجتمعات اللهم الا وضع تصورات أولية تتجسد فيما عرف بنمط الإنتاج الإسيوى متاثرين في ذلك بمعلومات تاريخية شحيحة ومشوهة عـــن العالم الإسلامي الوسيط لذلك جرت مراجعات لهذا التصور أفضت في النهاية إلـــى القول بان هذا العالم الإسلامي يخضع في صيرورته لنفس القوانين الأساسية للماديـــة التاريخية وقد عقد ستالين فيعام ١٩٣٩ مؤتمرا للمؤرخين السوفيت انتهوا فـــيه إلـــى القول بإقطاع إسلامى كما جرت نقاشات خصبة فيما بعد بين المؤرخين الماركســـيين لـــم تتوصـــل للأســـف لصـــيغة معيـــنة تحدد نمط الإنتاج في العالم الإسلامي(٢٣) .

ومـــن هـــنا يمكن تصنيف دراسات هؤلاء المؤرخين إلى صنف يحاول اتباع مـــناهج انتقائـــية لاعتســـاف تفســـيرات اجتماعية مبالغ فيها إلى حد كبير لبعض

٢١- المرجع نفسه.
٢٢- المرجع نفسه.
٢٣- المرجع نفسه.

الحـــركات الفكـــرية والسياســـية في التاريخ الإسلامي ويمثل هذا الاتجاه المؤرخ السوفيتي بلبائيف الذي تتسم دراساته بالسطحية والأدلجة.

وهناك تيار آخر أثرى التاريخ والفكر الإسلامي بفضل المسح التاريخي الشامل الاســـتقرائى لواقـــع المجـــتمعات الإسلامية وتقديم دراسات جد هامة في الكثير من الموضـــوعات الـــتاريخ والفكـــر الإســـلامي الشائكة في هذا الإطار نضع دراسات بطروشوفسكى وبارتولد وكراتشكوفسكى الهامة والمثيرة والموضوعية إلى حد كبير.

وكذلـــك نقـــيم دراسات بعض المؤرخين الكتلة الشرقية خصوصاً من الألمان والبولنديين من أمثال هوفمان وموتايلنسكى ولويسكى وغيرهم[٢٤] .

كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) والتنظير

فيلســـوف ألمانـــي، سياسي، ومنظّر اجتماعي. قام بتأليف العديد من المؤلفات أهمها "رأس المال" والبيان الشيوعي

وســـلط مـــاركس الضـــوء علـــى أبنية المجتمع التي تتوزع ما بين أبنية تحتية وفوقـــية، تتواصـــل بعلاقات طبقية لها حتمية القانون. هذه العلاقات وضعت الكاتب داخـــل بناء اقتصادي سياسي اجتماعي، وأنزلته من علياء الفاعل المفارق إلى واقعية المنفعل المشارك، داخل بناء محدد، أصبح الكاتب معلولا له ونتيجة من نتائجه، حتى في مبادراته الخلاقة وأفعاله الفردية. وترتب على ذلك أن أصبح الكاتب ابن عصره، وانعكاســـا حتميا له، بمعنى أنه أصبح محصلة تفاعل العلاقات الاقتصادية الاجتماعية التي تشكل وعيه ورؤيته لمجتمعه وموقفه من (أو موقعه في) صراع واقعه[٢٥] .

– الفلسفة الجدلية المادية Dialectical Materialism

وهذه الفلسفة تعتمد على على المرتكزات محددة وهي الجدل (الديالكتيك)[٢٦] Dialecticو النظريات العلمية.

والديالكتـــيك (الجدل) مشتقة من الكلمة اليونانية (ديالكو) التي تعني المناظرة. وكـــان اليونانيون القدماء يعنون بها "فن الوصول إلى الحقيقة من خلال النقاش عن طريق كشف التناقضات في اقوال الخصم ودحضها".

٢٤– المرجع نفسه.

٢٥– جابر عصفور: فضاء النقد الأدبي. مجلة العربي، عدد ٤٤٦، ١ – ١ لسنة ١٩٩٦م.

٢٦– تـــأتي كـــلمة ديالكتيك من Dialigo الاغريقية، المجادلة، المناقشة. في العصور الغابرة كان الديالكتيك فن التوصل إلى الحقيقة عن طريق كشف التناقضات في مجادلة الغريم والتغلب على هذه التناقضات.

وتعتمد الجدلية على فكرة محددة هي "ان المجتمع البشري يتطور بسلسلة من التناقضـــات التـــي تشـــمل جميع مناحي الحياة: السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، والثقافية والفنية" وللجدلية قوانين ثلاثة رئيسية:

الأول: قانون وحدة وصراع الأضداد :

لـــيس العالم جزئيات منعزلة قائمة بذاتها، ولكن كل ظاهرة تشكل وحدة عضوية يكمـــن التـــناقض فـــيها إذ هى لا تتغير بسبب علل خارجية عنها بل يكمن التناقض والصـــراع فـــي أعماقها وذلك هو سر التطور، فالتناقض هو القوة المحركة للتاريخ الطبـــيعى والإنسانى معا، وأنكار ذلك يعنى افتراض سكون الكائنات وموتها، بل أن الحـــركة الألـــية البسيطة لا تتم إلا بوجود الاضداد، فعل ورد فعل، جذب ودفع، قوة طـــرد مركـــزية وقـــوة جذب مركزية، بل حتى داخل الذرة: نواة موجبة والكترون ســـالب، ومـــا يصدق على عالم الطبيعة هو أشد وضوحا في الحياة العضوية، فهضم الغـــذاء وتمثيله معناه أن شيئاً هو كذا فأصبح غيركذا، بل أن هناك جوانب متناقضة فـــي العلوم العقلية كالرياضيات والمنطق فالمنحنيات المتناهية في الصفر تنطبق على المســـتقيمات والجذور التربيعى لكمية سالبة يشتمل على تناقض لأنه كمية لا معقولة، ويستخدم المستدل في المنطق التحليل والتركيب معا وهما عمليتان متضادتان.

وليســـت هـــذه العملـــيات المتضادة منعزلة بعضها عن بعض ولكنها متداخلة متفاعلة ويتعذر العزل بينهما الا في التصور الذهنى فقط، إذ من المستحيل في عالم الواقـــع الحصـــول على طرف دون وجود الطرف الآخر، ذلك أن طرف التناقض يســـتمد كـــل مـــنهما وجوده من الآخر، وصراع الجانبيين هو المضمون الداخلى للحـــركة والـــتطور، وأن المتناقضين يتعايشان في حقيقة واحدة، كالحياة والموت، والملاك والفلاحين، والبرجوازيين والبروليتاريا، والاستعماريين والمستعمرين، كلا الجانبيـــن المتناقضـــين يمـــيل فـــي ظروف معينة إلى الانتقال إلى الجانب الآخر، فالبروليـــتاريا الـــثائرة تصـــبح حاكمة بعد أن كانت محكومة، وينقلب الملاك إلى مستأجرين لا أرض لهم بينما يصبح المستأجرون صغار الملاك.

هـــذا القانون في اطاره الصورى هو فكرة صراع الاضداد لدى هيجل ويصفه بأنـــه الـــروح التي تبعث الحياة في العالمين المادى والروحى على السواء، صراع باطنى داخلى هو مصدر الحركة والحياة والتطور(٢٧) .

٢٧- أنظر، أحمد محمود صبحي: المرجع السابق، ص٢٢٢.

الثاني: قانون الانتقال من التغيرات الكمية (quantity) إلى التحولات الكيفية (quality).

إن التغـــير الحادث في جميع الظواهر الطبيعية والإنسانية هو التغير من الكم إلى الكيف، ويتم ذلك التغير طفرة إذ لا يعرف حد فاصل في تدرج التغيرات الكمية عندما يستحيل الكيف إلى كيف آخره، فانتقال الماء إلى ثلج أو إلى بخار بانخفاض أو ارتفـــاع تدريجى في درجة الحرارة انما يتم طفرة دون تدرج في عملية التحول، فالتغير التدريجى في الكمية لا يصاحبه تغير تدريجى في الكيف، كذلك تحول مادة كيمائـــية إلى أخرى ذات خصائص متباينة في عملية التفاعل الكيمائى ،ونفس الشئ فـــي انصهار المعادن وفي تحول الحركة إلى حرارة أو الحرارة إلى حركة، فهناك دائما طفرة في التحول من كيف إلى آخر.

أن هـــذا الـــتحول المفاجئ ليس في عالم الطبيعة فحسب ولكنه كذلك في عالم الإنســـان، بـــل أن ظهور الإنسان نفسه طفرة، أى أن هناك تحولا جذرياً كيفيا في تطـــور الكائـــنات الحية الذي يبدو من الناحية الكمية تدريجياً، ولقد سبق أن أشار أرســـطو إلـــى أن تغيرا تدريجيا طفيفاً تستحيل عنده الفضيلة إلى رذيلة، ولقد اشار نابلـــيون إلـــى أن اثنيـــن مـــن المماليك يغلبان ثلاثة من الفرنسيين ولكن ألفا من الفرنســـيين يهزمون ألفا وخمسمائة من المماليك، أن هذا التغير المفاجئ أو الطفرة فـــي تطـــور المجتمع هو ما نسميه باسم "الثورة" فهى من ناحية حصيلة تغير كمى تدريجى ولكنها من ناحية أخرى تغير كيفي مفاجئ نحو الوضع الجديد حيث تختفي الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية القديمة لتبرز فجأة أوضاع جديدة.

وانطـــباق هـــذا القـــانون على عالم الطبيعة وعلى عالم الإنسان لا يعنى رد الظواهـــر الاجتماعية خلال عملية التطور التاريخي إلى ما هو فيزيقى ولكن قانون الطفرة سمة عامة في جميع مظاهر الكون: الطبيعة والإنسان.

ولقد سبق أن أشار هيجل إلى هذا القانون فيما أسماه معدل الكمية النوعية أى أن التغيرات الكمية إذا ما بلغت حدا معينا استحالت إلى تغيرات كيفية[٢٨] .

الثالث: قانون نقض النقيض

يشتمل[٢٩] سير التطور في عالمي الطبيعة والإنسان على سلسلة من نفي النفي ،كـــل مرحلة تنفي سابقتها ثم مرحلة ثالثة تنفيها وهكذا، وليس النفي فناء وانما هو

٢٨- أنظر، أحمد محمود صبحي: المرجع السابق، ص٢٢١.

٢٩- نفسه، ص٢٢٣.

هــدم وبناء ،تخريب وتجديد، بالموت والتخريب ينبثق ما هو افضل وأكثر تنوعا. حــبة الشــوفان حين تنمو ويظهر ساقها تتلاشى وتندثر لتظهر حبات كثيرة لا حبة واحــدة هــذا في عالم النبات وهكذا في سائر المجالات لا يتم التطور الا بتخريب مســتمر وتجديد دائم بل كذلك الأمر في الرياضة فان سلب (أ) هو (– أ) فإذا نفينا هــذا النفــي أى (– أ × – أ) كان الناتج مضاعفة (٢) أى العدد الاصلى الموجب ولكن بعد أن تضاعف أى في درجة أعلى، كذلك العدد الأصلى الموجب ولكن بعد أن تضــاعف أى فــي درجــة أعلــى ،كذلك الأمر في التاريخ الاقتصادى: بدأت الحضارة بالملكية العامة التي كانت شائعة في العصور البدائية ولكنها أصبحت في مــرحلة التطور الزراعى عائقا دون الانتاج فتلاشت أو ألغيت لتستحيل إلى ملكية خاصة ولكن يتطور الزراعة إلى مرحلة أعلى وبعد ظهور الصناعة وتعقدها أصبح هناك تناقض بين الانتاج وتخصص العمال وكثرتهم في جانب وبين الملكية الفردية في جانب آخر، وأصبحت الملكية الخاصة عائقا دون تطور الانتاج، فكان لابد من العــود إلــى الملكية العامة لا في صورتها القديمة البدائية بل في إطار أقدر على استغلال الاختراعات الحديثة وأكفا على مواجهة تعقد الانتاج وزيادة التخصص في العمل.

كذلــك نفــي النفي في الفلسفة كانت الفلسفة القديمة مادية ،ولكنها مادية بدائية ســاذجة تعتــبر المادة مصدر كل شئ فلم تستطع أن تفسر العلاقة بين العقل والمادة فجــاءت فلسفة روحية تقول بسيطرة الروح أو النفس على الجسم والاهتمام بخلود النفس، فالمادية قد نفتها الروحانية – كما نفت المثالية الواقعية – ولكن هذه بدورها قد نفتها المادية الحديثة، ولكن ليس بالعود إلى المادية القديمة إذ قد أضيف إلى هذه تــراث الإنسانية الفكرى في ألفي عام، ومن ثم فان المادية الحديثة تحطم الفلسفات الســابقة ولكــنها تحطمها لتقيم صورة جديدة اكثر خصوبة بعد الافادة من التراث الماضى للفلسفة من جهة وتقدم العلوم الوضعية من جهة أخرى.

وهكــذا لا تختلف قوانين الجدل الماركسى عن الديالكتيك الهيجلى ولكن حين يــتعدى الأمــر المــنهج إلى المذهب يصبح الاختلاف بينا، إذ يستحيل المثالية إلى مادية ويصبح الكشف الفعلى عن مسار الروح في التاريخ كما قال به هيجل يصبح سعيا إلى فك أسار الإنسان من غربته عن ذاته، تلك الغربة الناتجة عن تحكم أنظمة اجتماعــية واقتصادية وسياسية، وان كان الإنسان ذاته هو الذي أصطنعها الا أنها اســتبدت به فأنكرته أو بالأحرى اغتربت عنه أو أصبح هو يشعر بالغربة ازاءها

كمـا لو لم يكن هو الذي أنجبها، كذلك لم تصبح خاتمة مطاف مسار التاريخ وعي الـروح بذاتهـا وسـعيها نحو حرية ميتافيزيقية وانما تسخير الانظمة الاجتماعية لصـالح الإنسـان لتحقق الحرية العملية - سياسية واقتصادية واجتماعية - في لا طبقية الشيوعية ذلك كله يتعلق بالمذهب لا بالمنهج.

ج- فكـرة التطور: تتخذ طابعا تصاعديا ومستمرا وبدورات (حلقات مقفلة) تتحدد بعلاقة الكم مع الكيف، وان هذا التطور لايجري بشكل مستقيم وخطي، فمفهوم نقض النقيض نفسه يعبر عنه بالشكل الحلزوني المتعرج الذي يسير فيه التطور. وقـد اقيم نصب فني في المعرض العالمي الثالث في موسكو ١٩١٩ يوضح الرمزية للتطور الاجتماعي حسب فكرة التطور هذه.

تقوم على عدة أساسيات منها:

- أن المادة تسبق الفكرة.
- الرؤية المادية هى أقصر الرؤى الاجتماعية علمية وقدرة على أستيعاب الفكر الإنسانى وتنظيره.
- تـنطلق مـن مـبدأ ضرورة ارتباط الفكر بالواقع وكذلك مبدء الاقتصاد هو المحرك الأول للشعوب والأفكار.
- كذلـك مبدأ التغير من الكم إلى الكيف وتدخل الاضداد وصراعها وقانون نفي النفي ولديه أن التناقض والصراع في أعماقهما سر التطور.
- ونفـي النفي عند ماركس ليس فناء وإنما هو هدم وبناء ويقول بأن كل مرحلة تنفـي سابقتها ثم تأتى مرحلة ثالثة وتنفي الثانية ثم تأتى مرحلة أخرى تنفي ما قبلها وهكذا.
- يقول بوجود علاقة جدل دائم تتبادل فيه الابنية الفوقية والتحتية للمجتمع التأثير والـتأثر المسـتمر والجدل عند ماركس يجيب على طبيعة الاشياء لا طبيعة الفكر مثل هيجل.

  ولذلـك كـان مـاركس يـرى أن جـدل (ديالكتيك هيجل) واقفا على رأسه (والديالكتـيك) لدى ماركس هو علم القوانين العامة الشاملة للحركة والتطور بالنسبة للطبيعة والمجتمع والفكر على السواء.
- ويـرى مـاركس أن نمط الانتاج المادى يشترط صيرورة الحياة الاجتماعية والطبيعية والفكرية إلخ.

- كمـــا يرى ضرورة الوقوف على الأوضاع الطبقية وضرورة معرفة الأساس الاقتصادى وبالتإلى سهولة إدراك حقيقة الفكر.
- ويـــرى مـــاركس أن ماديته تختلف عن سائر المذاهب المادية بل أنه رفضها علـــى أساس أنها أستاتيكية (ثابتة) ولا تجعل للتطور أعتباراً، أما ماديته فيرى أنها ديناميكية (متطورة).
- ويرى أن الديلكتيك وحده الذي يصلح للعلوم بمختلف أنواعها.
- ويرى أن أى تغير في الظروف المادية لا بد أن يجلب معه تغيرات هامة في الأنظمة السياسية والتشريعية والإيدلوجية.
- وتسير جدليته وفقا قانون (القضية وناقضها والمركب بينهما)

ويـــرى أن طبـــيعة الاشـــياء تحدد وفقا لنمط الانتاج وأن الايدلوجية أنعكاساً لمصلحة الطبقة

يقـــول ماركس: "ان اسلوبي الديالكتيكي لا يختلف عن الديالكتيك الهيجلي وحسب، بل هو نقيضه المباشر. فهيغل يحول عملية التفكير، التي يطلق عليها اسم الفكرة حتى إلى ذات مستقلة، انها خالق العالم الحقيقي، ويجعل العالم الحقيقي مجرد شكل خارجي ظواهري للفكرة.

إن الديالكتيك في جوهره هو النقيض المباشر للميتافيزيق[٣٠]

١- ان المعالم الاساسية للاسلوب الديالكتيكي الماركسي هي كما يلى:

أ - علـــى العكس من الميتافيزيق، لا يعتبر الديالكتيك الطبيعة تراكما عرضيا من الاشـــياء، أو الظواهر، لا ترتبط احداها بالاخرى، أو منعزلة ومستقلة احداها عـــن الاخـــرى، بـــل يعتبرها كيانا كليا مرتبطا ارتباطا لا ينفصم تكون فيه الاشياء والظواهر مرتبطة ارتباطا عضويا وتعتمد احداها على الاخرى وتقرر احداها الاخرى.

ب- وعلـــيه فـــان الاســـلوب الديالكتيكي يعتبر انه لا يمكن فهم اية ظاهرة طبيعية إذا اخـــذت بذاتهـــا، منعزلة عن الظواهر المحيطة بها، إلى حد ان اية ظاهرة فـــي اي مجـــال من الطبيعة قد تصبح عديمة المعنى لنا اذا لم تدرس بالترابط مـــع الظـــروف المحيطة بها، بل بالانفصال عنها، وانه على العكس من ذلك يمكـــن تفهـــم ايـــة ظاهرة وتوضيحها اذا درست في ارتباطها الذي لا تنفصم

٣٠- أي ما وراء الطبيعة.

عراه مع الظواهر المحيطة بها، كظاهرة تقررها الظروف والظواهر المحيطة بها.

ج- علـى العكـس مـن الميتافيزيق، يعتبر الديالكتيك ان الطبيعة ليست في حالة سـكون وعـدم حـركة وجمود وعدم تغير، بل في حالة حركة دائمة وتغير مستمر، حالة تجدد وتطور مستمرين، حيث ينشأ شيء ما جديد ومتطور على الدوام وشيء متفسخ وزائل على الدوام.

وعلـيه فـان الاسـلوب الديالكتيكي يتطلب دراسة الظواهر ليس فقط من وجهـة نظـر علاقاتهـا المتبادلة واعتماد بعضها على البعض، بل كذلك من وجهة نظر حركتها وتغيرها وتطورها، من وجهة نظر نشوئها وزوالها.

يقـول انجلز: "الطبيعة كلها من اصغر الاشياء إلى اكبرها، من حبة الرمل إلـى الشـمس، مـن البروتيستا إلى الإنسان، هي في حالة دائمة من النشوء والزوال، في حالة تغير متواصل، في حالة حركة وتغير لا يتوقفان".

وعلـيه يقول انجلز ان الديالكتيك "ياخذ الاشياء وصورها المحسوسة بالجوهر في ترابطها المتبادل، في تسلسلها، في حركتها، في نشوئها وفي اختفائها".

د – على العكس من الميتافيزيق، لا يعتبر الديالكتيك عملية التطور انها عملية نمو بسـيطة، حيـث لا تتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية، بل على انها تطـور يجـتاز مـن تحولات كمية تافهة غير محسوسة إلى تحولات اساسية مكشـوفة، إلـى تحولات كيفية، يعتبرها تطورا لا تحدث التغيرات الكيفيه فيه بصـورة تدريجية، بل بصورة سريعة ومفاجئة، تتخذ شكل طفرة من حالة إلى حالة اخرى، لا تحدث بصورة عرضية بل نتيجة طبيعية لتراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية .

وعلـيه فـان الاسلوب الديالكتيكي يعتبر ان عملية التطور يجب تفهمها ليس كحـركة في دائرة، ليس كتكرار بسيط لما كان قد حدث فعلا، بل كحركة إلى امام وإلـى الأعلـى، كـتحول من حالة كيفية قديمة إلى حالة كيفية جديدة، كتطور من البسيط إلى المركب، من الادنى إلى الاعلى.

يقول انجلز: "ان الطبيعة اختبار الديالكتيك، ويجب ان يقال لصالح العلم الطبيعي الحديـث انه قد زودنا بمواد غنية جدا ومطردة الازدياد يوميا لهذا الاختبار، انه اثبت بهـذا ان عملـية الطبيعة بالتحليل الاخير ديالكتيكية وليست ميتافيزيقية، على انها لا تتحرك في دائرة ازلية الانسجام تتكرر على الدوام، بل تجتاز غبر تأريخ حقيقي. هنا

يجـــب ان نذكـــر بالاســـاس داروين الذي وجه ضربة شديدة للفكر الميتافيزيقي عن الطبـــيعة بـــبرهانه على ان العالم العضوي المعاصر، النبات والحيوان، وعليه كذلك الإنسان، كله نتاج عملية تطور كانت في تقدم ملايين السنين".

لقـــد وجـــد ماركس وانجلز أن هيجل "واقف على رأسه"، لذا، فقد عدلا (كما اعـــتقدا) وقفـــته وأقاماه على رجليه. وبينما نجد أن هيغل قد أصر على أن كل ما يحصـــل من تغير في العالم المادي الحقيقي إنّما هو مجرد انعكاس لا إرادي لتقدم وتطور "روح العالم"، نجد أن ماركس قد أكد حقيقة العالم الخارجي، وبين أن المثل العلـــيا والأفكار عند بني الإنسان، إنّما هي نفسها نتاج البيئة الاقتصادية المادية وما يحصـــل فـــيها من تغير، لذلك فليس لها وجود خاص بها. وإن صراع الطبقات لا يحصـــل فـــي عالم الأفكار كما ادعى هيغل، وإنما في عالم أحوال الناس الواقعي، بواســـطة ما يحصل في الكيان الاقتصادي للمجتمع من تغير".[٣١] وفي رسالته إلى ف. انـــتكوف، "يؤكـــد ماركس مسألة استبعاد الحرية الإنسانية في صياغة واختيار "القوى الإنتاجية" التي يراها أساس الأبنية التاريخية والحضارية". [٣٢]

ومـــن أبرز ما قاله النقاد في النظرة المادية للتاريخ: "يعتقد ماركس أن أفكار واتجاهـــات عصـــر ما، إنّما هي نتاج مرحلة التطور الاقتصادي التي تمَّ التوصل إلـــيها، ولذلك لا يوجد قانون مطلق أو أخلاق مطلقة في هذا العالم، وإنما هذه كلها انعكاســـات لأســـلوب الإنتاج. ولكن في هذه النظرية تناقضاً خطيراً.. فماركس لا يـــرى من ناحية شيئاً أبدياً، ومن ناحية أخرى يعرض فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة، وهذا تناقض واضح لم يستطع أحد من تلامذته أن يزيله. فنحن إذ نعتقد أن فلســـفة عصر ما ناتجة عن بيئته المادية، فهذا ينطبق أيضاً على الماركسية نفسها.. فأفكـــار مـــاركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة، لأنها هي أيضاً انعكاس للعصر الذي عاش فيه.. فلا بد أنه قد كان في ذهن ماركس ظروف المجتمع في ذلك العصر، وكل ما جاء به ربّما كان ملائماً لزمنه هو، ولا يمكن بعد زمانـــه ذلك أن يكون صالحاً للعصور التي تلته.. فمع تغير الزمان، لابدَّ لفلسفته أن تتغير، ولكن، لا يوجد ماركسي واحد مستعد لأنَّ يقبل بهذا، فهم يعتقدون أن نظراته صـــحيحة فـــي كـــل الأزمان، أي أنها قيم دائمة للمجتمع الإنساني لا تتغير". [٣٣]

٣١- عماد الدين خليل: المرجع السابق، ص ٤٢.
٣٢- نفسه، ص ٢٧.
٣٣- عماد الدين خليل: المرجع السابق، ص ٦٠.

(لاحظ أن هذا النقد كتب قبل أن تنهار، في أوائل التسعينات من القرن الماضي، الأنظمة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وحليفاته).

سادساً: الاتجاه النفسي [٣٤] (مدرسة التحليل سيجموند فرويد)

كان الفيلسوف اليوناني أرسطو أول من كتب في النفس وكشف الكثير عن غوامضها، والأفلاطونية المحدثة بطابعها الإشراقى الغنوصى انطوت على أبعاد نفسانية واضحة.

والعالم الإسلامي شهد فلسفات اعتمدت دراسة النفس وتحليلها بصورة تدعو للدهشة؛ صحيح هناك اختلافات بين فلاسفة الإسلام حول مفهوم "النفس" تتراوح بين الروح والعقل.

ولكن إسهامات الفاربى وابن سينا وإخوان الصفا[٣٥] في دراسة النفس لا يمكن جحودها والفلسفة الباطنية والتصوف الإسلامي تكاد تكون صياغتهما تعتمد على التحليل النفسي في الأساس.

بديهي أن يعكس الفكر الفلسفي تأثيره على رؤى المؤرخين فعند ثيوكيدديس نلمح تفسيرات نفسانية واجتماعية ومادية للتاريخ وما كتبه بلوتارك عن سير مشاهير الرومان من منظور نفسي استمر يلون كتابات تاكيتوس وبوليبيوس والقديس أوغسطين وإجينهارد.

٣٤- استفدنا كثيراً في عرض هذا الاتجاه من الأستاذ الدكتور محمود اسماعيل: قراءة نقدية في الفكر العربي. ط١، مصر العربية للمشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٨ م، ص ٩٥ - ١٠٠.

٣٥- اخوان الصفا هي فرقة فكرية عُرفت باسم "إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء"، اشتهرت بتصنيفها مجموعة من الرسائل في مختلف فروع الفلسفة والعلوم الإنسانية. وقد عرفت هذه الرسائل رواجا كبيرا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما يظهر من خلال العدد الكبير الذي وصلنا من نسخها المخطوطة، ومنها نسخة أُنجزت في بغداد عام ٦٨٦ هـ، تزيّنها منمنمتان بديعتان تختصران جمالية فن التصوير العباسي الخاصة بفن الكتاب.، اختلفت الآراء في تحديد مذهب هذه الجماعة ودورها في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، والثابت أن اسم الجماعة خرج إلى النور في القرن العاشر الميلادي حيث "اضطربت أحوال الخلافة، ولم يبق لها رونق ولا وزارة، وتملّك البويهيون، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم"، على ما كتب ابن الطقطقي في "الفخري في الآداب السلطانية". وكان البويهيون من الشيعة الذين اتبعوا مذهب الزيدية، وهي من أقرب الفرق إلى آراء مذهب السنّة، ذلك أنها لا تحصر الإمامة في سلالة الإمام الحسين بن علي، كما أنها لا تشارك غيرها من الفرق الشيعية في ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان (رض)، والقدح في الصحابة الذين لم يبايعوا الإمام علي بالخلافة بعد وفاة الرسول (ص). الأعوان على الخير، يجزم الكثير من البحالة بتشيّع إخوان الصفاء، إلا أنهم يختلفون في تحديد الفرقة التي ينتمون إليها، فمنهم من يحسبونهم من الإسماعيليين، ومنهم من يرجّح انتماءهم إلى الإثني عشرية، ومنهم من يربط بين مذهبهم ومذهب الزيدية، لمزيد من التفاصيل أنظر دراسة الأستاذ الدكتور محمود اسماعيل عن هذه الجماعة.

والــتراث العربـــي الإسلامي حافل برؤى نفسية واضحة. فالقرآن الكريم طالما تحدث عن النفس الإمارة بالسوء والحديث النبوي ربط بين تغير الواقع وتغير النفس.

ونعـــتقد(٣٦) – دون مـــبالغة أن ابـــن حزم في كتابه طوق الحمامة كشف عن الكثير من خبايا النفس، بدرجة تجعله رائدا في هذا المجال حيث توصل إلى الكثير مما توصل إليه فرويد فيما بعد.

كل ذلك وغيره كثير نلمس أصداءه في كتابات مؤرخي الإسلام خصوصاً في مجـــال كتابة السير وكتابة الطبقات. وعند ابن خلدون نجد نقلة هامة في هذا الصدد عـــندما تحـــدث عن نظرية الأمزجة التي تشكلها ظروف البيئة والطقس والحرارة والـــبرودة .... والتي أثبتنا أخيراً انه نقلها عن إخوان الصفا وإذا كان تلاميذ فرويد تحدثوا عن سيكولوجية الجماعات فنجد عالماً مسلما مثل صاعد الأندلسى في كتابه طبقات الأمم يحوز قصب السبق في هذا المجال لقد كشف بامتياز في كتابه هذا عن ســـيكولوجية الشـــعوب كالعـــرب والفـــرس والـــترك والبربر والهنود واليونانيين والصينيين !!!! وهو موضوع سبق إليه إخوان الصفا أيضاً.

وفـــي مجـــال تطبيق الرؤية النفسية للتاريخ يظهر اسم ابن عذارى المراكشى الـــذي أرخ للأمير إبراهيم بن احمد الأغلبى ففسر أعماله المشتطة بحالة ميناخوليا انتابـــته فـــأقدم على قتل خاصته وجواريه ورجاله. وحتى أولاده وبناته وعند ابن الأثـــير نجـــد تفســـيراً نفســـانياً لا يخلو من وجاهة عندما أرجع إقدام المغول على التخريب والشطط في سفك الدماء إلى ما يمكن أن يسمى موكب النقص الحضاري اســـتطردنا فـــي ذكر تلك الأمثلة وغيرها الكثير لإثبات حقيقة تأثيرات التراكمات المعرفية السابقة في صياغة نظرية فرويد.

المؤسس: (سيجموند فرويد)

ولـــد ســـيجموند فرويد في عام ١٨٥٦م في مدينة فريبورج بمقاطعة مورافيا بتشيكوسلوفاكيا الحالية من والدين يهوديين.

الأسس النظرية:

- لأســـس الثلاثة التي تركز عليها المدرسة التحليلية هي: الجنس – الطفولة – الكبت. فهي مفاتيح السيكولوجية الفرويدية.

٣٦– الكلام ما يزال للدكتور محمود اسماعيل .

- نظرية الكبت: هي دعامة نظرية التحليل النفسي وهي أهم قسم فيه إذ إنه لا بد مـــن الرجوع إلى الطفولة المبكرة وإلى الهجمات الخيالية التي يراد بها إخفاء فاعلـــيات العشق الذاتي أيام الطفولة الأولى إذ تظهر كل الحياة الجنسية للطفل من وراء هذه الخيالات.

يســـتمد الـــنقد النفســـي معالمه من النظريات النفسية التي يعتمد عليها، وهذه النظريات هي آراء سيجموند فرويد، وجوستاف يونج، ومدرسة الجشطالت النفسية.

أ – فرويد :

تهدف إلى تحديد شخصية الفرد ودراستها من خلال التحليل النفسى

- الـــنظرة التجزيئـــية Analatic View وفيها يقوم فرويد بتجزئة عملية الادراك إلى مراحل، وتتولى مسؤولية كل مرحلة طبقة من طبقات العقل والتي هى:

الوعى Conscious.

ما دون الوعى Subconscious.

ما قبل الوعى Preconscious.

اللاوعى Unconscious.

كما قام بتشريح الشخصية الفكرية إلى مستويات ثلاثة يقوم على اساسها تفسير العمل الأدبي أو الفني وهى:

الأنا (Ego): تساهم في تحديد العملية الشكلية.

الأنـــا العليا (Superego): مسؤولة عن التطلعات الروحية التي تطرح ايديولوجيات أو الاساس الفكري للعمل.

الطاقـــة الجنسية (Libido): يستقي منها الفنان أو الأديب طاقته، رؤيته الغامضة، ولا عقلانيته.

- تفسير الرؤية والرموز وهي تفسير فرويد لرموز اللاوعي التي يقوم بإرجاعها إلى الطاقة الجنسية، في عمليات التحليل النفسي للأحلام، فقد استعار النقاد منه الفرضـــيات الأساسية في عمل اللاشعور والتعبير عن الرغبات الكامنة بعملية التداعي association وكيفية تشكل الرؤية في الأحلام بعمليات مثل.

- الخلـــط المكانـــي displacement وتتمثل في عدم القدرة على التمييز في الحلم بين اليمين واليسار، والفوق والتحت.

- الخلــط الكلامي condensation ويحصل عند اختلاط الأفكار فينتج عنه تعبير ملتوي تحاشيا لإيقاظ العقل الواعي.
- الفصـــل (الفصم splitting) وهو استقلال بعض التجارب عن الوعي وعملها منفصلة عنه في بعض الأحيان.

أمـــا القصور الفرويدي في التفسير النقد الفني والأدبي فانه يتمثل في إصراره علـــى إرجـــاع العمل إلى القوى المكبوتة، وتفسير الحقائق المرئية على أنها تمثل حقــائق أخرى (أي دراسة الدور الدلالي دون الاهتمام به كظاهرة جمالية مستقلة)، إضـــافة إلـــى الطـــابع الفردي لطروحاته التي تتعامل مع الفرد بشكل أساسي دون ارتباطه بالمجموع.

ب- كارل يونج :

يونـــج هو احد تلامذة فرويد، الا انه خالفه حول مبدأه في الطاقة الجنسية التي تـــرجمها إلـــى "دفقـــة حيوية" وليس "طاقة جنسية"، كما تعلمل يونغ مع اللاشعور الجمعـــي واســـتنبط منه فكرة النماذج العليا التي حلّت محل الرموز الفرويدية في تفسير اللاوعي الفردى.

- الـــنظرة الشاملة: يقارن يونغ عملية التحليل النفسي بالتشكيل الشعري بارجاع الاثنيـــن إلى رواسب نفسية لا شعورية وجماعية، أي رواسب تكمن في ذاكرة الجماعة وليس الفرد.
- الطـــابع الجمعي للرموز (النماذج العليا): هي صورة ابتدائية، لا شعورية، لا تحصـــى، شـــارك فيها الاسلاف في عصور بدائية، ولذا فانه يعتبرها نماذج اساسية قديمة لتجربة انسانية مركزة، وهي تقع في جذور كل شعر او اثر فني ذي ميزة طابعية خاصة.
- ملاحظـــة: ان المبادئ التي تبتها طروحات يونغ تتضمن اخطارا لما فيها من ميل إلى اعلاء شأن اللاعقلانية والتصوف وذاكرة العِرق race وهذا ما جعلها مرغوبة في اوساط المفكريين النازيين والفاشيين.

ج – مدرسة الجشطالت Gestalt النفسية:

اعتمدت البُنية النفسية بنظرة شاملة تقوم على ادراك صفـــة الكليات Entities.

وتُعـارض الـتوجه التجزيئي الذي يبدأ من دراسة الاجزاء الأولية على اعتبار ان تجمـيعها الآلي يؤدي إلى فهم الكل (كما في مدرسة فرويد) بينما في هذه المدرسة تطـورت رؤية بنيوية تبدأ من شموليه البنية النفسية حيث لا تلعب الاحاسيس دورا يتعدى كونها مجرد مفردات لهذه البنية. ان من اهم شروط البنية الجشطالتية هي:

- ان لايتـناقض أي جزء مع الصفة العامة للمجموع، كي لا يتشوه النظام العام الذي يشتمل على تنويعات متعددة ضمن صفة عامة واحدة.
- مـبدأ الصفة او العلاقة؛ القانون العام الذي ينظِّم الشكل ويربط اجزاءه سوية، قد يكون نظاما شكليا او تعبيرا تشترك اجزاء العمل في ايحائه.

واعتمد النهج التالي:

١- كشف اسرار اللاشعور للكاتب ومن ثم تفسير آثاره.

٢- تسليط الضوء على تداعي الافكار اللاارادية تحت بُنى النص الارادية.

٣- القـيام بعملية تنضيد النصوص، وهي عملية تشبه عملية التحليل النفسي، أي تحليل المحتويات الشعورية بغرض كشف علاقات خفية تزداد او تخف درجة لا شعورها.

٤- اظهار شبكة التداعيات ومجموعات من الصور الملحة (ربما اللاارادية)، وهو استيهام دائم يضغط بصورة مستمرة على شعور الكاتب.

٥- ايضاح العوامل الاجتماعية التي تلعب دورها في تكوين الشخصية الاسطورية للكاتب، وخاصة مرحلة الطفولة.

- تأثـير الـنقد النفسي الجماعي (يونغ): طرح يونغ فكرته بصدد عملية الخلق الفنـي فـي مقـال له "في العلاقة بين التحليل النفسي والفن الشعري"، فالناقد يبحـث هـنا عن النماذج العليا في الادب او الفن على حد سواء ويقارن بينها وبيـن العمـل الـذي بين يديه لاي اديب او فنان وبينت نماذج عليا لديه من الاعمـال لعـة كُـتّاب محأولا ايجاد "القاسم المشترك الاعظم" الذي يرى فيه هؤلاء النقاد النفسيون الرمزية الثابتة.
- تأثـر الـنقد الادبـي بنظرية الجشطالت :كان لهذه النظرية اثر كبير في النقد الادبـي اذ قدمـت منهجية في الادراك البصري على اساس فهم السمة العامة

للكليات الادبية او الفنية مما يعتبر في صلب عملية التذوق الفني للعمل، وتتلخص الفكرة في هذه النظرية بما يلي:

١. تجريد الشكل إلى معالمه الاساسية، ضمن الصورة العامة.
٢. الخروج بصفة عامة مميزة كقانون شكلي.
٣. استنتاج التعبير المتضمن والذي يعتبر بمثابة الصفة المميزة للصورة الشمولية.

إن هذا التوجه نحو الدراسة النفسية للتاريخ وشخصياته تجد مبررها في المرحلة التاريخية التي امتازت من الناحية الاجتماعية ببروز الطبقة الوسطى، ومن الناحية الفكرية بظهور الاتجاه الليبرالي، وسياسيا بتبني شعارات الحرية والديمقراطية وأدبيا بتبني الاتجاه الذاتي في الإنتاج الأدبي والممارسة النقدية، إن هذا التوجه نحو الشخصية يرتبط بالتحولات الاجتماعية والفكرية والسياسية للمجتمع.

ورفض هذا الاتجاه بعض المفكرين[٣٧] لأسباب عدة من أهمها:

أولا: أن التفسير النفسي تفسير لا تاريخي لأنه يهمل بل يسقط بعد الزمان ويفسر الظواهر بصورة مطلقة تنتهك سطوته.

ثانيا: أنه ينطوي على تبسيط مخل وإلى قد يبدو مقنعاً من حيث الشكل لكنه عاجز عن الإيغال في كنه الظواهر التاريخية.

ثالثا: إذا جاز تطبيق هذا التفسير على الأفراد فهو لا يجوز على الجماعات بل ان عالما نفسانيا مرموقا مثل سيرل بيت يتشكك في صحته بالنسبة للأفراد أنفسهم.

رابعاً: ان هذا التفسير يعالج السلوك البشرى كله باعتباره سلوكا مرضيا في حين نجد المرضى النفسانيين استثناء بالنسبة للقاعدة العريضة من الأسوياء.

خامساً: إلحاح هذا التفسير في البحث عن الحافز الذي يتمحور أساسا في الرغبة وليس في الأسباب.

سادساً: ان الرؤية النفسية للتاريخ تختزل موضوعه ومضمونه في أفراد أبطال ليسوا أسوياء في حين أن التاريخ في الواقع ليس إلا نتاج فعاليات الشعوب السوية الناهضة.

سابعا: وفقا لهذا التفسير يصبح التاريخ نتيجة حالات استثنائية وهو امر يهدد القوانين العلمية التي تتحكم في صيرورته وحركته.

٣٧- محمود اسماعيل: قراءة نقدية، ص ١٠٠ .

ثامـــناً: تتحول البشرية في رحلتها التاريخية وفقا للتفسير النفسي إلى مجموعات من العبيد المسجونين في دائرة اللاوعى بما يناقض مفهوم الحرية التي اعتبرها فيكو هو محور وغاية التاريخ.

تاســـعا: قد يفيد هذا المذهب في تفسير نتاج أعمال المبدعين من الأدباء والفنانين لكنه فيما نرى عدم الجدوى بالنسبة للتاريخ البشرى.

عاشــرا: مـــع ذلك يمكن الإفادة من الفرويدية المجددة خصوصاً فيما يتعلق بدراسة الشخصيات ضمن مناهج أخرى ونظريات متعددة تلقى كل منهما ضوءا ما على جانب من جوانب الحقيقة التاريخية المتشابكة والمعقدة.

سابعاً: الاتجاه البيولوجي (البعد البيولوجي عند شبنجلر)

ولد اشبنجلر في مدينة بلاكنبورغ، وذلك في شهر أيار سنة ١٨٨٠. وحين شبّ درس العلـــوم الطبيعية في جامعة برلين. وبعد تخرجه رحل إلى مدينة ميونخ ليعيش بقية عمره في القراءة والكتابة، معزولاً، أو معتزلاً الناس، ومنقطعاً للبحث والتنقيب، حتى مات في شهر أيار، سنة ١٩٣٦. وقد ترك مجموعة من المؤلفات أبرزها انهيار الغـــرب الذي قُرئ كثيراً في أوروبا وأميركا، والذي تُرجِم إلى عدة لغات، من بينها اللغة العربية.

ولـــد اشبنجلر في مدينة بلاكنبورغ، وذلك في شهر أيار سنة .1880 وحين شبّ درس العلـــوم الطبيعية في جامعة برلين .وبعد تخرجه رحل إلى مدينة ميونخ ليعيش بقية عمره في القراءة والكتابة، معزولاً، أو معتزلاً الناس، ومنقطعاً للبحث والتنقيب، حـــتى مات في شهر أيار، سنة .1936 وقد ترك مجموعة من المؤلفات أبرزها انهيار الغـــرب الـــذي قُرئ كثيراً في أوروبا وأميركا، والذي تُرجِم إلى عدة لغات، من بينها اللغة العربية.

مذهب اشبنجلر :

كـــان اشـــبنجلر شديد التأثر بنيتشه، الذي يمجد القوة والسوبرمان، والذي من شأن أفكاره أن تمجد المحاربين، أو الطبقة التي تسمى عادة بطبقة النبلاء.

ففـــي عقـــيدة اشـــبنجلر أن الحضـــارة من شأنها أن تتدهور حين تنحط طبقة النـــبلاء. ولمـــا كانـــت هذه الطبقة قد انحطت بعد الثورة الفرنسية، فإن الغرب قد انهار، وهو الآن في سبيله إلى الشيخوخة والهرم.

ويؤمـــن اشـــبنجلر بـــأن الحضـــارات لا يؤثر بعضها في بعض؛ بل إن كل حضـــارة، فـــي رأيه، ليست سوى دائرة مقفلة لا يدخل إليها شيء ولا يخرج منها شيء. ومما هو صريح أن هذه الفكرة من شأنها أن تؤشر إلى التحجُّر الذي أصاب الغرب؛ والتحجر هو الاسم الآخر للانهيار نفسه.

ويعـــتقد اشـــبنجلر أن "الحضارة الفاوستية"، أي حضارة الغرب الحديث، هي أرقى حضارة عرفها التاريخ.

وهـــو يؤكد على أن الأسلوب الخاص بأية حضارة من الحضارات لا سلف له ولا خلـــف. ومـــع ذلك فإنه يتحدث عن "التشكل الزائف"، أي أن تعتمد حضارة ما علـــى أســـلوب حضـــارة سابقة فلا تكون إلا زائفة. وأبرز الأمثلة عنده على هذا التشـــكل الـــزائف هو الحضارة العربية، التي يراها عالة على الحضارة البيزنطية، كما لو أن هنالك حضارة بيزنطية فعلاً.

والغريـــب أن لباب نظرية اشبنجلر مأخوذ من مقدمة ابن خلدون التي ترجمت إلـــى الألمانية سنة ١٩١٠، أي قبل أن يكتب كتابه بسبع سنوات. يقيناً، إن اشبنجلر لا يقول فكرة صائبة واحدة تخص التاريخ حصراً إلا وهي وثيقة الصلة بنظرية ابن خلدون. ويقيناً مرة أخرى إن اشبنجلر حاقد على العرب كما لو أنه واحد من غلاة المستشرقين. وكثر هم الذين يشربون من البئر ثم يرمون فيه بحجر.

وفـــي اعـــتقاد اشبنجلر أن الحضارة الفارسية والبيزنطية والسريانية والعربية هي حضارة واحدة اسمها الحضارة "المجوسية"، التي يعتقد بأنها تشكلت سنة ٣٠٠ ق م، أي إثر تشكل الدول الهلنستية في الشرق.

وشـــبنجلر حيـــن يقول: "إنّ ثمّة تناظراً غريباً بين أثينا وباريس، وبين فتوح الإسكندر والاستعمار الأوروبي"(٣٨)

١- إن الحضارة هى الوحدة الدراسة التاريخية أو الظاهرة الأولية للتاريخ العالمى كلـــه ما كان منه وما سيكون، لأن الحضارة ظاهرة روحية لجماعة من الناس لهـــا تصور واجد عن العالم وتتبلور وحدة تصورهم في مظاهر حضارية من فـــن وديـــن وفلسفة وسياسة وعلم، وتشكل هذه الوحدة شخصية حضارية لها خصائصها الذاتية، ومن ثم لا تتماثل حضارتان.

٣٨- أنظر، أحمد محمود صبحي: المرجع السابق، ص٢٤٨ - ٢٥٣.

ويســـمى شـــبنجلر كل حضارة بأهم سمة أو مقوم لها، فالحضارة اليونانية يســـميها الابولونية وهى تتمثل فنيا في التمثال المحدود ذى الاجزاء المتناسقة، ذلك أن اليونانى قد عبر عن روحه الفنية في الجسم المنعزل الساكن، كما عبر عن ذاته سياسيا فيما هو محدود أيضاً: في دولة المدينة، وحين تصور المكان تصـــوره أقليديا أى مسطحا محدودا، أما الحضارة العربية الايرانية فيعتبرها شـــبنجلر سحرية حيث يشعر الفرد بوجوده الروحى باعتباره جزءا من روح كـــبرى، يتجاوز المسلم في هذه الحضارة ما هو محسوس إلى ما هو مجرد، فـــلان ألهـــة مجرد من التجسيم فقد تمثل طابع التجريد لديه في الفن: خطوط مجـــردة عـــن التصوير الجسمى، وانعكست وحدة الاله على تصوره السياسى والفكرى بالاجماع الذي يحول بينه وبين الضلالة، أما طابع الحضارة الغربية فهـــو الروح الفاوستية اللانهائية متمثلة في الكاتدرائيات القوطية وفي حساب اللامتـــناهى (التفاضل والتكامل)، أما روحها الفنية فقد عبر عنها الغربى في لغـــة روحـــية متحركة في موسيقى باخ، كما عبر عن اللانهائية بالاستعمار العـــالمى والهـــاتف الـــذي تغلب على المكان المحدود وكذلك المذياع، ثم في الاقتصـــاد العـــالمى ممثلا في التجارة العالمية والبنوك، هكذا تصور الغربى المكان امتدادا إذ الامتداد عنده هو كل شئ.

٢- وإذا كانـــت لكـــل حضارة شخصيتها وخصائصها الذاتية فهذا يتضمن أنها مغلقة وليســـت روحـــا مطلقة كما تصورها هيجل فهذه لا تعبر عن مساره، وانما يعبر عـــن مســـاره التعاقب الدورى للحضارات، إذ يتوإلى على كل حضارة ما يتوإلى على أى كائن عضوى حى من ولادة ونمو وشيخوخة وفناء، ويشبه شبنجلر حياة كل حضارة بتوإلى الفصول الأربعة: ربيعها في فترة البطولة: في حياة الاساطير وشـــعر الملاحـــم حيـــث التغـــنى بالبطولة كفترة هوميروس لدى اليونان وفترة العصـــور الوســـطى فـــي الغـــرب، أما صيفها فيتصف بظهور القيادات المتوثبة الطموحـــة، أنها فترة ظهور وازدهار دولة المدينة في الحضارة الابولونية، وانها عصـــر النهضة وفن مايكل انجلو وانتصارات جاليلو وأدب شكسبير في الحضارة الفاوســـتية، ويمثل الخريف مرحلة النضج الكامل للينابيع الروحية الثقافية والبوادر الأولـــى للشـــيخوخة والارهاق ،فيها الملكيات المركزة وفيها الفلسفة التي تتحدى الديـــن والقـــيم الســـائدة باسم التنوير، أنها فترة السوفسطائيين وسقراط وأفلاطون وانهـــا القرن الثامن عشر في أوربا حيث منتصف الخريف في الموسيقى موزار،

وشـــعر جوتـــه وفلســـفة كانط، ويتمثل الانتقال إلى الشتاء حين يتخذ الفن طابعاً غامضـــا ســـريا، وحيـــن تتخذ الفلسفة طابع الشك واللادرية ويسود في السياسة عصـــر الامبراطوريات والاستعمار والطغيان السياسى ،في الشتاء تفقد الحضارة روحهـــا المبدعة وتصبح مجرد مدنية يتجلى أفضل ما تقدمه في تطبيق العلم على الصـــناعة ،وتظل الامكانيات محصورة في امتداد أفقى وانتشار، وإذا أراد الشاب الفاوســـتى أن يلعب دورا بارزاً في شتاء حضارته فإنه أما أن ينخرط في الجندية أو يلتحق بمعاهد التكنولوجيا.

ليس ثمة إذن حضارة عامة وانما لكل حضارة فلسفتها وخصائصها كما أن لهـــا حـــياتها المحدودة التي لا بد أن تنتهى، وكما أن الفرد يفنى ولكن النوع يـــبقى كذلـــك محتم على كل حضارة أن تموت ولا بقاء الا للأنسانية الممثلة لمجمـــوع الحضـــارات، وإذا كانت مفاهيم الميلاد والفتوة والشيخوخة والوفاة تسرى على كل موجود عضوى.

كذلـــك هـــى بالنســـبة لكـــل حضارة، بذلك يتكون تاريخ العالم من وضع الحضـــارات العالمـــية كل منها إلى جانب الأخرى مستقلة بعضها عن بعض بوصف كل منها ظاهرة مقفلة على ذاتها تجسم روح الحضارة وتعبر عنها.

٣- غـــير أنه بالرغم من الخصائص الذاتية لكل حضارة فان المظاهر التي تكشف عـــنها الحضـــارة الواحدة تناظر تلك التي تكشف عنها سائر الحضارات، وليس التـــناظر أو التوازى الزمنى أو التعاصر الفلسفي مجرد شبه سطحى فكثير عن المؤرخيـــن يجدون أوجه شبه بين الاسكندر ونابليون أوبين بوذا والمسيح، ولكن فـــي ذلك تجاهلا للاختلاف بين الشخصيات العظيمة المتناظرة إذ ان كلا يمثل في مجرى حياته مسار حياة الحضارة التي يمثلها، وانما تعد حادثتان تاريخيتان متعاصـــرتين إذا كـــان كل في حضارته الخاصة يقوم بنفس الدور ويؤدى نفس الوظـــيفة لمناظره في الحضارة الأخرى، ويميز شبنجلر بين التماثل القائم على مجـــرد التشابه السطحى وبين التوافق الذي يدل على التساوى النسبى في الهيئة والتركيب والوظيفة، ففي الحيوانات الفقرية، من الإنسان إلى الاسماك، كل جزء مـــن أجـــزاء الجمجمة في أحد أنواعها مناظر لما في الانواع الأخرى - الرئة والخياشيم مثلا - ولما كان التاريخ يخضع للتفسير البيولوجى، فان التوافق أدق وأعمـــق من التشابه، ومن ثم فان فيثاغورث وديكارت متناظران، والاسكندرية وبغداد متعاصرتان بالنسبة للحضارة اليونانية والحضارة الإسلامية إذ أن دورها

فـــي كـــل مـــن الحضارتين متوافق متناظر بل ومتعاصر في طور كل منهما، ويمكـــن تطبـــيق مـــنهج التـــناظر الزمنى أو التعاصر على كل الظواهر الفنية والدينـــية والعلمية والسياسية والاقتصادية في جميع الحضارات في ادوار نشأتها وازدهارهـــا وتدهورهـــا وفـــنائها طالمـــا أن التركيب الباطنى متوافق في كل الحضارات، فلقد اختارت كل حضارة طابعا معينا في الفن تعبر به عن روحها وشخصـــيتها، انـــه فـــي حضارة مادية تتصور اللامحدود محدوداً واللامتناهى متناهـــيا وتجســـيم الروح تجسيماً ماديا عبر اليونان عن آلهتهم بصورة مجسمة محـــدودة فـــي النحت الذي يمثل التجسيم والتحديد، أما الحضارة الإسلامية فقد اســـتبعدت النحت والتصوير لانهما لا يلائمان روحها المجردة، وانما عبر المسلم عـــن عقـــيدته بالزخـــرفة لانها خطوط فيها جانب التجريد والمفارقة للجسمية والمـــادة، امـــا الحضـــارة الاوربية فيعد الفن التعبيرى معبراً عن خصائصها، فالموســـيقى لغـــة عالمـــية تعـــبر عن عالمية المسيحية، والموسيقى تعبيرعن اللامتـــناهى لأن الـــه المسيحية لامتناه والموسيقى لغة الروح لأن اله المسيحية روح لا جسم.

وهكـــذا اخـــتارت الحضارة اليونانية الفن التشكيلى أو النحت بينما عبر الفن الزخرفـــي أو الأرابيســـك عن روح الحضارة الإسلامية كما اصبح الفن التعبيرى ممـــثلا في الموسيقى قمة الفنون في الحضارة الاوربية، وهكذا أيضاً جميع مظاهر الحضـــارة الاخـــرى متعاصرة بين جميع الحضارات في نشأتها وتطورها وفنائها بحيـــث لا توجـــد مـــا يـــناظرها تماما في غيرها من الحضارات، فالبوذية الهندية والرواقـــية الرومانـــية متعاصـــرتان، كذلك كان انتقال الحضارة اليونانية إلى دور المدنـــية في عصر فيليب المقدونى وابنه الاسكندر، وكان هذا الدور في الحضارة الغربية في عصر الثورة الفرنسية ونابليون.

ولكن ما قيمة هذه المقارنة بين الحضارات ؟ وما أهمية التعرف على المظاهر المعتاصرة فيما بينها ؟

١- ســـيكون فـــي استطاعتنا أن نستعيد تركيب عصور مرت ولم نعد نعلم عنها شـــيئا، أن اعـــادة تركيب الماضى على هذا النحو يكشف عما عجزت الاثار والوثائق الكشف عنه.

٢- يمكـــن بمـــنهج التعاصر التعرف على ايقاع التاريخ ومساره ومغزاه ومن ثم يمكـــن أن نتجاوز حدود الحاضر للتنبؤ بالمستقبل تنبؤا علميا دقيقا، والتعرف عمــا ستكون عليه الادوار القادمة للحضارة الاوربية بعد أن أمكن تتبع سياق تطورها ومسارها.

٣- لا تــبدو الاحــداث التاريخــية بذلك مفاجئة لنا فليست الحرب العالمية الأولى حادثــا اســتثنائيا ولدته نزعات السيطرة والسيادة لدى بعض الامم او الافراد، ولا تفسر في ضوء العوامل الاقتصادية وحدها انما تمثل بذلك نقطة تحول في الحضارة الاوربية تناظر الانتقال من العصر الهيلينى إلى العصر الرومانى.

انــه ثمــة تناظر غريب بين حرب طروادة والحروب الصليبية، وبين الحرب البوليــنزية والحرب العالمية، وبين اثينا وباريس، بين أرسطو وكانط، بين النزعة العالمية نتيجة فتوح الاسكندر وبين الاستعمار الأوروبى.

ولكــن كــيف تقــوم مقولة المصير بدورها في التاريخ؟ وكيف يمكن تفسير التاريخ وفقا لمنهج الحضارات المغلقة والتعاقب الدورى للحضارات؟

ســبقت الاشــارة على أنه لابد من عوامل خارجية مستثيرة حينئذ تصبح هذه العوامل ظروفا ملائمة لميلاد حضارة جديدة إذ تنبثق فجأة وتستيقظ فيها روح جديد زاخرة بأمكانيات خصبة، وتظهر الحضارة وتخرج إلى حيز الوجود في بيئة يكون كل ما حولها في فوضى مطلقة فتمتد في خطوط رائعة في شتى المجالات لتفرض إرادتهــا بــالقوة على الفوضى المطلقة التي حولها محطمة ما يعترض سبيلها بما لديهــا من طاقات كامنة مبدعة في شتى المجالات من لغة ودين وعلم وفن، حينئذ تطــبع الإنســانية فــي حقبة معينة بطابعها، وتظل هذه الروح تطلق ما لديها من أمكانــيات على هيئة تشريع وسياسة ومذاهب دينية وفنون وعلوم ما دامت زاخرة بطاقة ذاتية كامنة فيها إذ الحضارة روح تكمن فيها القوى الخصبة المتوثبة للتحقيق تخرج إلى الوجود في بيئة خارجية في حالة فوضى مطلقة فتشيع النظام وتطبع ما حولها بطابعها.

علــى أنه يحدث أحيانا حينما تتلاقى حضارتان وتكون أحداهما أشد قوة ولكن الأخرى أعظم أبداعا وأكثر عراقة أو على الأقل مساوية لها، أن تضطر المهزومة أن تــتلاءم ظاهــريا مع الحضارة الغالبة ما دامت لا تستطيع أن تنمو معبرة عن طبيعتها الخالصة، وتتشكل مظاهر هذه الحضارة في القوالب الفارغة التي فرضتها

علـيها الحضـــارة الاجنبـية، ويظن الناظر إلى السطح أن الحضارة المغلوبة على أمـــرها قـد أختفت بينما هى كامنة خلف الفترة الخارجية التي فرضت عليها، أن حضارة لها خصائصها المميزة انبثقت في منطقة شرق البحر المتوسط ولكنها ظلت مطمورة بعدما فرض الأسكندر الأكبر الحضارة الهيلينية على مصر وجنوب آسيا فانتحلـــت أوجه النشاط الفكرى والثقافي في هذه المنطقة صورة هيلينية لمدة تقرب مـــن ألف سنة ولكن ظلت الحضارة الهلينية قشرة خداعة تحجب الحقيقة الجوهرية، وقد ظهرت ردود فعل شرقية متعاقبة ضد المنحنى الهيلينى التقليدى لا في المجالين الحربى والسياسى فحسب وانما الثقافي كذلك ممثلا في الدين، فحين أصبحت الدولة الرومانية مسيحية اتخذت هذه الحضارة مذاهب مخالفة لمذهب الكنيسة الرومانية إذ انتشـــر مذهبا اليعاقبة والنساطرة، ثم استجابت هذه الحضارة سريعا للأسلام بمجرد ظهوره فانحسر نفوذ الحضارة اليونانية الرومانية.

وحيـــن سيطرت الحضارة الإسلامية على حضارة الفرس العريقة دان الفرس بمذهب التشييع مخالفين بذلك مذهب الخلافة القائمة كما ظلوا محتفظين بلغتهم، وقد تنـــبأ شبنجلر بانتفاضات في الدول الافريقية وخلع مظاهر الحضارة الأوربية عنها بمجرد جلاء المستعمرين الاوربيين.

ويســـمى شبنجلر تلك الحالة التي تضطر فيها حضارة عريقة إلى الخضوع والتلاؤم الظاهرى مع حضارة مسيطرة بالتشكل الكاذب للحضارة pseudo - morphosis.

وهـــناك حالـــة ثالثة إلى جانب الحالتين السابقتين: حالة ميلاد حضارة جديدة وانطلاقهـــا بعـــد أن اســـتثارتها قوى أجنبية، وحالة التشكل الكاذب للحضارة حين تضـــطر حضارة عريقة إلى الخضوع لحضارة أقوى ماديا، أما الحالة الثالثة فحين تلـــتقى حضـــارة أشد قوة وأكثر عراقة وأعظم خصوبة وخلقا وابداعاً بحضارة لا زالـــت في المهد فتختنق الاخيرة كالحضارة المكسيكية وحضارة الهنود الحمر في الامريكتين فقد قضت عليهما الحضارة الغربية الحديثة.

هذه هى الحالات الثلاثة التي تتعرض كل حضارة لاحداها إذا شكلت حضارة أجنبـــية قـــوة ضاغطة عليها، وإذا كانت الحالة الأولى تمثل ميلاد حضارة جديدة، وإذا كـــان كـــل حضارة لها دورة حياتها من ميلاد إلى فتوة وشباب إلى شيخوخة يعقبها فناء، فما عوامل شيخوخة الحضارة وما مظاهر هذه الشيخوخة ؟ كيف تنتقل الحضارة من مرحلة ازدهارها إلى تدهورها؟

أن الحضـــارة كما سبقت الاشارة روح زاخرة بالأمكانيات التي تنطلق إلى أن تســتنفذ الحضـــارة امكانــياتها الخلاقة وروحها المبدعة أنها كالشجرة التي فقدت عصـــارتها ونضب منها معين الحياة، أنها حققت صورتها النهائية، ولا يعنى ذلك أنها تموت فجأة ولكنها تمر بخريف عمرها الذي لا بد أن يعقبه شتاغء، أنه لم يعد فـــي استطاعتها أن تعلو على الحد الذي آلت أليه بعد أن حققت في الخارج كل ما تحتوى عليه من امكانيات باطنة حينئذ ينضب معينها وتخور قواها ويتحجر كيانها فتصبح مدنية بعد أن كانت حضارة، ولكنها مازالت قادرة على البقاء كالشجر التي استنفذ الزمن عصارتها لا تزال قائمة وان اصبحت أغصانها فريسة السوس.

ولقـــد اجتازت الحضارة الاوربية مرحلة الخلق والابداع إلى مرحلة المدنية إذ ســكنت السورة الحيوية التي كانت تمدها بالابداع، ان كانط يمثل نقطة التحول من الحضـــارة إلى المدنية إذ حدد الصيغة النهائية للفكر الفلسفي فمالت الفلسفة من بعده إلـــى الجانـــب العملـــى المعـــبر عن طابع المدنية، كذلك كان أرسطو في الفلسفة اليونانـــية، فجـــاءت مـــن بعده الرواقية والابيقورية، كما تمثلت النزعةالعملية في الحضـــارة الأوربية في الفلسفة البرجماتية، ان النزعة الكلاسيكية في أواخر القرن الثامـــن عشر في أوربا تعبير عن شعور الروح بالحزن لاقتراب شيخوختها، وفي الشـــيخوخة يتملك المرء الحنين إلى الماضى ــ إلى الطفولة ــ ثم عبرت الحضارة الأوربـــية عن جزع أشد في النزعة الرومانيكية، فيها نزعة صوفية غامضة تعبر عن جزع الحضارة على اقتراب نهايتها.

يقـــول جيته – وقد كان شبنجلر شديد الاعجاب به – كل تقدم فكرى لا يقابله تسام روحـــى فهـــو خطر، فحين يسود العقل ،بأحكامه كل مظاهر التفكير فذلك دور تحول الحضـــارة إلـــى مدنية، لقد أصبح كل شئ خاضعاً لمنطق العلة والمعلول، لقد استحال الكـــيف إلـــى كم، أن عصراً تسود فيه الآلية البحتة وينعدم فيه الابتكار الفنى والفلسفي وتسيطر عليه الاتجاهات اللادينية لهو عصر تدهور واضمحلال ،لقد استحالت الوسائل إلـــى غايات ،وقد تمثل ذلك في مجالين: النقد والآلة، لقد كان النقد وسيلة للتبادل ولكنه اســـتحال إلـــى غايـــة فأصـــبحت قيمة كل شئ تقاس بالنقد وأصبحت السياسة يحركها الاقتصـــاد، وبعـــد أن كان الإنسان ثريا لانه قوى أصبح قويا لانه ثرى، وبعد أن كان الـــريف مظهر الحياة أصبحت المدنية لأنها سوق المال، ولقد وجدت الألة لتكون وسيلة لســـعادة الإنســـان ولكـــنها بدورها استحالت إلى غاية فخضع كل شئ للألية وأصبحت الآلـــية طـــابع المدنية الحديثة، وأصبح كل شئ يقاس بقوة الآحصنة لا بالقوة الروحية،

وأصـــبح الإنســـان تابعـــاً للألية وكان لابد عن رد الفعل، وجاء ذلك في صور مذهب اللامعقول في الادب والفن تمردا من الإنسان على الألية.

أن المخترعات من أهم أسباب تفوق أوربا، ولكن هذه قد دهمها خطر الشعوب الملونة في شكل بعثات جاءت تتعرف على سر تفوق الاوربى، وأجور العمل لدى هـــذه الدول أقل، كما أن حضارتها لا تجعل منها عبيدا للآلة، أنها تريد الآلة ولكنها تستنكر الخضوع لها، تريدها فقط للانتصار على الأوربى.

ان تـــلازم عصر تنتشر فيه المذاهب اللادينية مع التوسع الاستعمارى العالمى يعـــنى أن ذلك عصر تدهور واضمحلال، ويستحيل تجديد شباب هذه الحضارة كما يـــتعذر استرجاع شباب الكائنات العضوية، ولا يمكن أن نفعل شيئا إذا كنا قد ولدنا فـــي أول شتاء هذه الحضارة، وأنها ليست أزمة طارئة ولكنهامأساة لا يمكن تجنبها إذ لا مفر من هذا المصير(٣٩) .

ثامناً: الاتجاه الحضاري (البعد الحضاري عند توينبي)

أرنولـــد جوزيف توينبي ولد عام ١٨٨٩ في لندن وتوفي في عام ١٩٧٥. أهم أعماله "دراسة للتاريخ" وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

ودرَسَ اليونانية واللاتينية في أكسفورد، وتقلّب في عدَّة مناصب، منها: أستاذ الدراســـات اليونانيَّة والبيزنطيَّة في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية؛ وتُوفِّيَ في عام ١٩٧٥.

يُعتـــبرُ تُوينبـــي أحدثَ وأهمَّ مُؤرِّخ بحَثَ في مَسألة الحضارات بشكلٍ مُفصَّلٍ وشـــامل، ولاســـيَّما في موسوعته التاريخيَّة المُعنونَة "دراسة للتاريخ" التي تـــتألَفُ مـــن اثـــنـــي عشرَ مُجلَّدًا أنفق في تأليفها واحدًا وأربعين عامًا. وهو يَرى، خلافًا لمُعظـــم المؤرِّخين الذين يعتبرون الأُمَم أو الدُول القوميَّة مَجالاً لدراسة التاريخ، أنَّ المُجـــتمعات (أو الحضـــارات) الأكثر اتِّساعًا زمانًا ومكانًا هي المجالات المعقولة للدراســـة التاريخيَّة. وهو يُفرِّقُ بين المُجتمعات البدائيَّة والحَضاريَّة؛ وهذه الأخيرة أقـــلُّ عـــددًا من الأولى، فهي تبلغُ واحدًا وعشرين مُجتمعًا اندثرَ مُعظمُها، ولم يبقَ غـــيرُ سبع حضارات تمرُّ ستٌ منها بدَور الانحلال، وهي: الحضارة الأرثوذكسية المســـيحية البيزنطية، والأرثوذكسية الروسية، والإسلامية، والهندوكية، والصينية،

٣٩- أنظر، أحمد محمود صبحي: المرجع السابق، ص٢٥٧.

والكوريـــة – اليابانية؛ أمَّا السابعة، أي الحضارة الغربية، فلا يُعَرف مصيرُها حتّى الآن.

ويُفسِّرُ تُوينبي نشوءَ الحضارات الأولى، أو كما يُسمِّيها الحضارات المُنقطعة، مـــن خـــلال نظريَّـــته الشهيرة الخاصَّة بـــ"التحدِّي والاستجابة"، التي يعترفُ بأنّه اســـتلهمَها مـــن علم النَفس السلوكيّ، وعلى وَجه الخصوص من كارل يونغ Carl Jung (١٨٧٥–١٩٦١). ويقـــول هذا العالم إنَّ الفَرد الذي يتعرَّضُ لصدمةٍ قد يفقدُ توازُنَـــه لفـــترةٍ ما، ثمَّ قد يستجيبُ لها بنوعَين من الاستجابة: الأولى النكوص إلى الماضي لاستعادته والتمسُّك به تعويضًا عن واقعه المُرّ، فيُصبح انطوائيًّا؛ والثانية، تقـــبُّل هـــذه الصدمة والاعتراف بها ثمَّ مُحاولة التغلُّب عليها، فيكون في هذه الحالة انبســـاطيًّا. فالحالة الأولى تُعتَبرُ استجابةً سلبيَّة، والثانية إيجابيَّة بالنسبة لعلم النفس. (لاحـــظْ أنَّ ذلك ينطبقُ على حالة العرب، فإنّهم تعرَّضوا لصدمة الحضارة، فلجأوا إلى النكوص إلى الماضي دفاعًا عن النفس).

كـــيف طبَّق تُوينبي هذه النظريَّة على نشوء الحضارات؟ يقول في تفسير ذلك إنَّ المجـــتمعات البدائـــيَّة لـــدى مُواجهـــتها تحدِّياتٍ بيئيَّة أو بشريَّة مُعيَّنة تستجيبُ اســـتجاباتٍ مُخـــتلفة، أي إنَّها تُواجه ذلك الحافزَ بردُودِ فعلٍ تختلفُ من جماعةٍ إلى أُخرى، بعضُها سلبيَّة وبعضها إيجابيَّة.

وعلـــى هذا المنوال يُفسِّر ظهورَ الحضارات الأصليَّة الأولى في كلٍّ من وادي الرافديـــن ووادي النيل، فيقول: كان السهل الأفروآسيويّ (أي جنوب شبه الجزيرة العربيَّة وشمال إفريقيا) يتمتَّع بجوٍّ مُعتدل ومَراعٍ شاسعة ومياهٍ غزيرة، خلال نهاية الفـــترة الجلـــيديَّة الأخيرة، كما ذكرنا سابقا. وكانت الشراذمُ البشريَّة المُنتشرة فيه تعـــيشُ عيشةً راضية على الصَّيد والقنص وجمع الثمار والبذور. ولكن حدثَ تغيُّرٌ مناخيّ تدريجيّ في الفترة المُعتدلة أو الدفيئة الأخيرة التي نعيشها الآن، الأمر الذي ســـبَّب انحباسَ الأمطار وانتشارَ التصحُّر وجفافَ الأنهر. (كما يحدث الآن وبشكلٍ مُســـتمرّ فـــي بعـــض أجزاء إفريقيا الوُسطى حيث تمتدُّ الصحراء الكُبرى وتتّسعُ باستمرار).

وهـــذا هـــو نَمطُ التحدِّي الذي واجهَته تلك المجتمعات، فاستجابت له بأساليبَ مُختلفة: إذْ تحوَّل بعضُها إلى قبائلَ رُحَّل تسعى وراءَ الكلأ والماء، وترعى أنعامَها التـــي تقـــتاتُ علـــيها. وانحدر الجزءُ الثاني إلى الجنوب نحو المناطق الاستوائيَّة

المُشابهة للبيئة السابقة إلى حدّ بعيد، فظلّ مُحافظًا على نَمط مَعيشته البدائيَّة السابقة إلـــى يومـــنا هذا. ورحَل قسمٌ ثالث إلى دلتا النَيل، حيثُ وَاجه أحوالاً طوبوغرافيَّة جديدة تتمثّلُ بوجود هذا النهر العظيم وتلك البيئة المُختلفة، فكافح عوائقها وسخَّرها لأغراضه، بعد أن اكتشف الزراعة، الأمر الذي أدَّى إلى إنشاء الحضارة المصريَّة الرائعة. كما إنّ انتقالَ بعض الجماعات من شبه الجزيرة العربية إلى أهوار جنوب العــراق والفرات الأسفل تمخَّض عن انبثاق حضارات ما بين النهرين، كما أسلفنا. وبعـــبارةٍ أُخـــرى فـــإنّ هذه الجماعات قد استجابت إلى التحدّي الطبيعيّ بأساليبَ مُخـــتلفة: مـــنها بالـــبقاء في أرضها وتحوُّلها إلى قبائل بدويَّة، أي كانت استجابتُها سلبيَّة، ومنها بالرحيل إلى مناطقَ جديدة مُختلفة قريبة من الأنهار، حيث أسَّست تلك الحضارات الأولى، أي كانت استجابتُها ديناميكيَّة حضاريَّة، تعتمد على الحركة أو الهجرة، ثم التغيير والتطوير والإبداع.

أمَّا فيما يتعلّق بنُموّ الحضارة، فيُعيدها تُوينبي إلى الدافع الحيوي Elan Vital، وهي الطاقة الكامنة لدى الفَرد والمُجتمع التي تنطلق بغرض التحقيق الذاتيّ. ويعني ذلـــك كما يقول: "أنّ الشخصيَّة النامية أو الحضارة تسعى إلى أن تصيرَ هي نفسُها بيئةَ نفسها، وتحدِّيًا لنفسها، ومجالَ عمل لنفسها. وبعبارةٍ أُخرى إنّ مقياس النموّ هو الـــتقدُّم في سبيل التحقيق الذاتيّ." ويكون ذلك "عن طريق المُبدعين من الأفراد، أو بواسطة الفئة القليلة من هؤلاء القادة المُلهَمين"، إذ تستجيبُ لهم الأكثريَّةُ عن طريق المُحاكـــاة الآليَّة mimesis التي تُمثّلُ الطريقةَ الغالبة في عمليَّة الانقياد الاجتماعيّ. وتـــقود هـــذه المُحاكاةُ في الجماعة البدائيَّة إلى حركة سلفية تـــنزعُ إلى مُحاكاة القُدَماء، بينما هي في المُجتمعات الحضاريَّة النامية حركةٌ تقدُّميَّة تُؤدّي إلى مُحاكاة الطليعة الخلاّقة.

وعلى صعيد سقوط الحضارات يرى تُوينبي أنّه يعودُ إلى ثلاثة أسباب:

١- ضعف القوَّة الخلاّقة في الأقلّـــيَّة المُوجِّهة وانقلابها إلى سلطة تعسفية؛
٢- تخلّي الأكثريَّة عن مُوالاة الأقلّـــيَّة الجديدة المُسيطرة وكفّها عن مُحاكاتها؛
٣- الانشقاق وضياع الوحدة في كيان المُجتمع.

وتوينبـــي مـــن المفكريـــن الإنجليز الذين سبروا أغوار التاريخ وتابعوا تشكل كـــياناته وانفـــراده بأدوات معرفية لم يصبها غيره. فلقد استخدم في تفسير التاريخ ونشـــوء الحضـــارات (كمـــادة خـــام جمـــيع مـــا يتوفر من دراسات أنثربولوجية

وميثولوجية وبيولوجية، ودراسات مقارنة للمجتمعات البدائية، بما في ذلك عقائد دورات الخصب الزراعي والطوطمية والطابو وطقوس الزواج والمحضورات التقليدية، بالإضافة إلى استخدام كل ما توصل إليه علماء التاريخ والحفائر والجغرافيا، والجغرافيا البشرية ومحأولات جميع المفكرين والفلاسفة لاستخلاص عوامل حركة التاريخ والكشف عن قوانينه.

كما أن منهج توينبي الرئيسي في فكره هو أنه من غير الممكن دراسة كل حادثة أو واقعة بمعزل على سياق التاريخ كله، فلا بد من ربطه بالأحداث المتعاقبة في سياقه الزمني ولو من بعيد.

إن توينبي في نظريته الشهيرة (التحدي والاستجابة) (جاء من ناحيته بتفسير ضخم للحضارة يلعب فيه العامل الجغرافي دوراً أساسياً. غير أنه يدخل هذا العامل الجغرافي في ضمن مذهبه المتمثل فيما يدعوه (بالتحدي Lefi)، حيث أن الحضارة ونشوءها عند توينبي تكون من (ردٌ) معين يقوم به شعب لمواجه تجدٌ معين.. وهذا الرد أو الاستجابة التي تمثل الإرادة الإنسانية وقدرته الفكرية تمثل الأس الأساس لتكوين الحضارة وشكلها.

هذا التحدي يأخذ جبهتين: الأول من الطبيعة، والثاني الجنس البشري.

ومع الجبهتين يلعب العامل الجغرافي دوره في فرض نوع من التحدي الطبيعي والبشري، ومع أن مالك بن نبي اعتبر العامل الجغرافي له أثر فقط مع التحديات الطبيعية مع أنه يمتد إلى الجنس البشري. فالتحديات التي تخرج على شكل الغزوات والاعتداء الخارجي على الكيانات الحضارية يجلبها الوضع الجغرافي، كما أن التتار بحكم متاخمتهم للدول الإسلامية.. والطرق التي تربطهم بها والوضع المناخي الذي سمح بخوض هذا الاتجاه غرباً، هو الذي كان عاملاً مهماً في توجههم إلى بغداد وترك أوربا بما يفصلها عنهم من سلاسل جبلية وطقس لا يسمح للجيش القديم بهذا إضافة إلى دواعي أخرى. وعلى أساس نظرية آرنولد توينبي يكون النشوء والانهيار يتوجه بأنه (حسب مستوى التحدي وفعالية (الرد) عليه من طرف الشعوب المواجهة به، فإن حضارتها تكون بين احتمالات ثلاثة:

فهي إما أن تقوم بوثبة إلى الأمام، وإما أن تصاب بالتوقف والجمود، وإما أن يلفّها الفناء بردائه)، وأخذ على النظرية أنها غير مضطردة في البناء الحضاري،

فـــإذا حأولنا استعمالها (لتفسير واقعة تاريخية محددة – ولتكن الحضارة الإسلامية على سبيل المثال – فإننا نجد أنها لا ترضينا تمام الرضى).

ويعتـــبر توينبـــي الصـــعاب والأزمـــات مصدراً لحث الإنسان على التكامل، والتحضـــر، والنهوض، كما أن الدعة والترف ورقة العيش تكون حائلاً دون انبثاق حضـــارة، وهذا يلتقي مع نظرية المترفين الإسلامية. وما شوهد في حركة التاريخ الإســـلامي السياســـي، وكذا هي عينها من وجهة ابن خلدون في الطور الثالث من دورة دولـــته، وكـــذا فيها انسجام مع كلمة السيد جمال الدين المعروف بالأفغاني: (الأزمة تلد الهمة)، وتتسق مع كثير من المفكرين سيما إسلامياً يطول الامتداد بهم. وبالـــرغم من ضرورة تعرض الحضارات للتحدي باعتباره شرطاً أساسياً لنهوضها وارتقاءهـــا عـــند توينبـــي. إلا أنه من الضرورة الأخرى للنهوض ينبغي أن تكون التحديات بأنماط متوسطة العنف لتكون حافزاً على مضيها في الطريق الصاعد أي أن لا يعلوا طاقة الإنسان الحقيقية وقدراته التي لو استثمرها لارتقى. وصلب الفكر هـــنا.. فـــي أن كثير من قدرات الإنسان تكون كامنة ولا يغور لها باذلاً جهداً في اســـتثمارها.. لكـــن الـــتحديات تمـــثل في هذا الإطار عاملاً قسرياً لاستخراج تلك القـــدرات مـــن مكامـــنها، فتنتصب حضارة أمامه. فإذا (كان التحدي فإنه عندئذ لا يكـــون حافـــزاً ارتقائياً وكذلك إذا كان التحدث عنيفاً هائلاً في وطأته فإن الحضارة عـــندئذ قـــد تعجز عن تحقيق استجابة ملائمة له فيصيبها الانحلال ثم الدثور، هذا الـــتحدث الوســـط بيـــن الطرفين: طرف الإفراط وطرف التفريط هو الوسط الذي يدعـــوه توينبـــي بالوسط الذهبي الذي يضمن دفع الحضارات المستجيبة في طريق الإرتقاء والإبداع والبقاء).

علـــى هـــذا يعتبر توينبي التاريخ سلسلة من التحديات والاستجابة، أما عملية التشـــكل مـــن الاســـتجابة. فالمفروض أن لا تقتصر على مظهر واحد من مظاهر الحضـــارة، وإنمـــا لا بـــد أن تملك صفة الخصوبة والتنوع من الدين والعلم والفن والفلســـفة والأدب وغـــيرها مما يفرض الواقع كحاجة مطروقة. ويميز توينبي بين تحدييـــن، إحداهما خارجي والآخر داخلي، فيرى أن الاستجابة البرانية لا تسهم إلا بشـــيء ضئيل من الصعود، أما الاستجابة الجوانية فهي التي تملك الدور الأساس، وهـــو مـــا يفرضـــه الواقـــع الاجتماعي وطلباته من استفزاز وحث لمكامن العقل البشـــري، وهذا ما يتسامى بالطاقة الروحية والفكرية للمجتمع بأعلى مستوى ممكن تبعاً لنوع التحدي ومستواه.. ومستوى الاستجابة وكفاءتها.

وتـنص هـذه الـنظرية علـى أن نشـوء الحضارات، يعتمد على التحدي، والاستجابة، ويفسر الأحداث التاريخية على أساس الجانب المادي، والروحي.

وإن هـذه الـنظرية لا تخلـو من مناقشة، حيث تفقد لبعض مقومات الحدث التاريخي، إضافة إلى الفهم المشوش لعناصر الحدث.

ويرى البعض (توينبي) ان قيام الحضارات الإنسانية مرده إلى – فعل التحدي – الـذي يفرض (مبني للمجهول) على الإنسان من هنا او على الشعوب من هناك، ففعـل الـتحدي الطبيعـي هو الذي فرض على الإنسان في بداية التاريخ ان يقيم وينشئ الحضارات، ثم ما تلبث ان تتبلور التحديات الإنسانية لتحل محل فعل تحدي الطبـيعة للانسـان، فيصبح الإنسان – بمنافعه ومصالحه ونظراته واهدافه ....– تحديـا للانسـان الاخر، وهكذا فكلما كان التحدي اعظم واكبر كلما كانت الحوافز وردود الفعـل اسرع واعمق للمتلقي الاخر، وربما كان التحدي (مميتا) فعندئذ تفقد عناصـر المقاومة اخر انفاسها الحضارية لتسقط امام فعل التحدي ذاك، وربما كان نوع التحدي أخف وطأة من عملية الدمار الشامل، فحينذاك تكون المحفزات وردود الفعـل لعملـية ا لتحدي اكثر تطورا واعمق حركة من متحديها لتنتصر على هذا التحدي اخيرا ؟.

وعلـيه فهناك تحديات تمثلها الحضارة المعاصرة بفعل التحدي الخارجي كما ان هـناك تحديـات داخـل اطـار كل حضارة وتتمثل بالتحدي الداخلي (تحديات بروليتاريا داخلية وتحديات بروليتاريا خارجية .... توينبي).

يـتحدث توينبي عن نشوء الحضارات ونموها وسقوطها.. فهو يرفض دافعي العـرق (الأبـيض خاصـة) والجغرافيا لنشوء الحضارات[٤٠] ، ويرى أن الحافز الأساسـي لنشـوء الحضارات هو التحدي والاستجابة، وأن نشوء الحضارات هو نتـيجة التفاعل الخلاق بين عدة عوامل، فتحقيق الاستجابة الظافرة للتحدي المقلق.. الـتحدي مـن قبل جماعات بشرية داخلية أو خارجية، أو من قبل بيئة مناسبة فيها واحـد أو أكـثر من الدوافع الخمسة الآتية: دافع الأراضي الصعبة، دافع الأرض البكر، دافع النكبات، دافع الضغط، ودافع العقوبات[٤١] .

---

٤٠ – عماد الدين خليل: المرجع السابق، ص ٧٢.

٤١ – نفسه، ص ٧٤.

ويـــرى توينبـــي أن الـــنمو الحضاري كله لا يكون إلا بواسطة المبدعين من الأفـــراد، أو بواســـطة الفئة القليلة من هؤلاء القادة الملهمين[٤٢] . ويدحض توينبي الأسباب الحتمية) الخارجة عن قدرة الإنسان وإرادته) في السقوط الحضاري، مثل: صـــيرورة الكـــون إلى الشيخوخة فالعدم، والعجز عن صد الاعتداءات الخارجية، والنقص في الميادين العلمية والتقنية. وهو يرى أن للسقوط الحضاري أسباباً ثلاثة: أولهـــا ضعف القوة الخلاقة في الأقلية الموجهة وانقلابها إلى سلطة تعسفية، وثانيها تخلـــي الأكـــثرية عن موالاة الأقلية الجديدة المسيطرة وكفها عن محاكاتها، وثالثها الانشقاق وضياع الوحدة في كيان المجتمع كله[٤٣] .

ومن أبرز الذين نقدوا نظرية توينبي في تفسير التاريخ، العالمان بترم سوروكن وبيـــتر جـــيل. أمّا سوروكن فيرى أن النظرية متهافتة في مبدأين أساسيين.. أولهما اعتـــبار الحضارة وحدة معقولة للدراسة التاريخية. وثانيهما اعتبار الأدوار الحضارية مـــن النشـــوء إلى النمو إلى السقوط والانحلال أساساً لفلسفته التاريخية. ويأخذ جيل على توينبي سوء تطبيقه للمنهج العلمي في أبحاثه التاريخية.. فقد انتخب من مجموع الظاهـــرات مـــا يناســـب فرضـــه، وعرض شواهده المختارة بالطريقة التي تلائمه، وفســـرها تفسيراً مواتياً للفكرة العامة الجاهزة التي بدأ منها. كذلك، فإن إخفاق توينبي (حسب جيل) في تحقيق الفرض بالتجربة الحاسمة، وعزله الأجزاء بحيث لم تعد ذات دلالة معينة في بناء الكل، يقوضان دعائم المنهج التجريبي الذي حاول أن يعتمده في تفســـيره. لذلـــك، فإن ما استنتجه توينبي من القوانين العامة لا يصح اعتباره كذلك، وإنما هي نظرات في تفسير الأحداث قد تكون صائبة وقد لا تكون[٤٤] .

ويعـــتقد توينبـــي بـــأن الحروب هي السبب الجوهري لانهيار المجتمعات أو الحضـــارات. وهو يأخذ المجتمع الآشوري القديم مثالاً على ذلك. يقول: "لقد هوت آشور جثة هامدة، ولكنها مدججة بسلاحها. ومن المعلوم أن تسليح آشور هو أقوى تســـليح فـــي غـــرب آسيا خلال القرن السابع قبل الميلاد. ومع ذلك، فقد انهارت بســـرعة قصوى أمام هجمة الميديين والبابليين." وههنا يستشهد توينبي بقول السيد المسيح (عليه السلام): "من يأخذ بالسيف، فبالسيف يهلك."

٤٢- نفسه، ص ٨٠.

٤٣- نفسه، ص ٨٣.

٤٥- نفسه، ص ٨٩.

ولا يوافــق توينبـــي على مذهب اشبنجلر القائل بأن الغرب قد أخذ بالانهيار. وهو يعتقد بأن حضارة الغرب لم تستنفد بعد إمكاناتها، وأن الغرب مازال شاباً وأنه قد لا يضمحل، أو قد يستمر في الوجود لآلاف السنين.

ولا يغفــل "توينــبى أهمية التاريخ في الحاضر، على اعتبار العبرة الواضحة التـــي يقدمها الماضي في سبيل إغناء الأحكام في العصر الراهن، ومن هذا يتجلي التماثل بين الماضي والمستقبل. ومن خلال منهج الاستقراء كان التطلع نحو دراسة الـــتاريخ انطلاقـــاً مـــن الاعـــتماد على الوحدة الحضارية الكاملة، مقصياً في ذلك القومـــية. لان حـــركة التاريخ لايمكن أن تقوم على فاعلية عنصر بعينه، بقدر ما تســتند علـــى التفاعل الاجتماعي المفضي إلى الحضارة(٤٥) . وهكذا كانت انطلاقة "توينبي" نحو التاريخ العالمي، متخطيا الرؤية العرقية العنصرية التي تأثرت بالتقدم الـــذي بلغه الغرب. وهو في تطلعه نحو هذا المسعى رفض فكرة خضوع التاريخ للـــروح التي نادى بها "هيغل" على اعتبار أن الروح التاريخية لاتكمن في الفرد بل فـــي المجـــتمع. وعليه لابد من الخضوع الكامل لارادة المجتمع الذي تمثله الدولة. وبالمقابل لم يأخذ بالمقولة المستندة إلى أن الروح تكمن خارج سياق التاريخ، لأنها تخضـــع الـــتاريخ للتفسير الخاطيء على اعتبار أن الحقيقة ستكون خارج التاريخ حيـــث العالم(٤٦) الآخر. كذلك رفض دور المصادفة في حركة التاريخ على اعتبار خضـــوعه لقـــوى غـــير منظورة في صيرورة المجتمعات، ولم يأخذ بفكرة الدورة الحضارية التي نادى بها "شبنجلر".

كانـــت الأبحـــاث التـــي إشـــتغل عليها "توينبى" قد أوصلته إلى تحديد خمس حضارات قائمة من أصل إحدى وعشرين وهي؛ الغربية، الأرثوذكسية، الإسلامية، الهـــندية، الـــبوذية (الشـــرق الأقصى). محدداً العامل الرئيس في نشوئها إلى الدين ولـــيس إلـــى الدولـــة. على اعتبار أن الدين يعد الأس الأهم في تفعيل المجتمعات لمواجهـــة المشاكل. في حين أن الدولة تكون الوسيط الذي تعيش في كنفه جرثومة الا نحـــلال والتفســـخ، وباعتـــبار تطلـــع النخبة لاستنفاد موارد المجموع. باعتبار الأســـبقيات التاريخـــية يمكـــن الإشـــارة إلـــى أن المجـــتمعات أسبق للظهور من الحضـــارات، ومن خلال التماثل يمكن المقارنة بين الحضارات، مع الوعي الجاد

---

٤٦ – نعوم شو مسكي، الغزو مستمر، ترجمة النبهان، دار المدى، دمشق ١٩٩٩، ٣٨٣..

٤٦ – عبد الرحمن بدوري، اشبنجلر، ص ١٨٠..

والدقـــيق بأن التاريخ لا يعيد نفسه[٤٧]، أو القول بالوحدة الحضارية، لأنه ينطوي علـــى كثـــير من العسف، لأن هذا يصب بالمحصلة في نتيجة مغلوطة قوامها أن الحضـــارة الغربـــية هـــي إلاوريثة الحضارات العالمية السابقة. وللتأكيد على هذه الفكـــرة يشـــير "توينـــبى" أن الحضارة الفرعونية لم يكن لها أب ولم يكن لها ابن يورثهـــا. كذلك عمد إلى نقض العامل البيئي في نشأة الحضارة من خلال الاستدلال بمـــنهج المقارنة مع البيئات المختلفة. وعليه خلص إلى نتيجة مؤداها يقوم على؛ أن العســـر هـــو المكمن الذي يحفز التحدي في الإنسان من أجل التكيف وخلق المناخ الملائـــم لمســـيرة حياته. وإذا ما عجز الإنسان عن مواجهة التحديات الطبيعية[٤٨] والبشرية في استجابة سلبية فأن مصيره المحتوم سيكون الخذلان والفشل.

من هنا كانت نظرية "التحدي والاستجابة" في صنع الحضارة.. انطلاقاً لجملة من التفسيرات الجمعية والفردية، حيث الإشارة إلى العديد من عباقرة التاريخ الذين اندفعـــوا لســـد النقص الكامن فيهم، لاسيما من ذوي العاهات ما بين العمى والعرج والعبودية. أو التحدي الذي واجهته المسيحية إزاء الدولة(٤٩) الرومانية.

وهكـــذا تعرضـــنا لأهم اتجاهات تفسير التاريخ ولمن يريد المزيد فليرجع إلى قائمة المراجع المرفقة بآخر الكتاب.

وننتقل الآن إلى أهم المذاهب النقدية.

٤٧- منح خوري، التاريخ الحضاري عند توينبي، بيروت ١٩٦٠، ص ١٠٣...

٤٨- احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص ٢٣٥..

٤٩- عبد العزيز الدوري، فلسفة التاريخ، ص ٣٨٠..



٤

الفصل الرابع

مذاهب نقدية

إذا نسيت المنهج فإنه لن ينساك

الفصل الرابع
مذاهـب نقديـة

وهناك مذاهب نقدية لتفسير التاريخ ومن أهمها:

١ – الظاهراتية phenomenologia ويمثلها ايدموند هوسيرل:

بـــدأت أسس هذه المدرسة في بدايات القرن التاسع عشر وتم تطويرها في القرن العشـــرين والظاهرتـــية تعني دراسة المعرفة بمعزل عن التراكمات الابستمولوجية (المعرفية).

ويـــرى الدكتور محمود اسماعيل أنها تصلح أكثر في حالة الدراسات الوصفية والنقد الظاهري

والمـــنهج الظاهراتي، انبثق من الوجودية مع جان بول ساتر(J. P. Sartr) ، ثم تـــبلور في فلسفة إدموند هوسرل (١٨٥٩/١٩٣٨م) وانتهى إلى مبدأ القطيعة المعرفية مع جاستون باشلار، ثم إلى السيميائية الصوفية مع جوليا كريستيفا.

ويـــرى هذا المنهج أنّ المعرفة أو مقاصد النصّ لا تأتي بمحأولة تحليل النصّ، وإنمـــا بتحلـــيل الذات وهي تتعرف على العالم في حال تقمّصها لعملية الإبداع، فيقوم النقاد بتحليل الوعي البشري الذي استبطن الأشياء فتحولّت إلى ظواهر قابلة للدراسة.

وأســـس ادمونـــد هوســـرل هذه الفلسفة ولكنها اتخذت شكلا ذاتيا مثاليا حأول هايدجر في الفلسفة الكلاسيكية القديمة أن يقربه إلى الواقع.

أســـاس هـــذه الفلسفة هي دراسة الحقيقة من خلال ما يظهر للمتلقي، وتعتبر الظاهر بمثابة حقيقة الموضوعات التي تكمن خلفها.

وركـــزت الظاهراتية على التعامل مع التجربة المعاشة والحياة الفعلية والواقع المـــادي الملمـــوس، فـــي حين تقوم فلسفة هايدغر بالتركيز على الكينونة والوجود الأصـــيل الذي يحققه الإنسان باختياره لأسلوب علاقته بالأركان الرباعية: الأرض، السماء، المقدسات، الإنسان، والتي هي ثوابت أساسية في كل زمان ومكان.

٢ – البنيوية Structuralism :

تعني البنيوية تكون الظواهر الكونية والموجودات المختلفة في بنية من الأجزاء والعناصر المترابطة بحكم نظام متكامل من العلاقات لأداء وظائفها الدلالية.

ويشـــمل هـــذا التحديد دراسة كل الظواهر الإنسانية من وجهة معرفية كاللغة والإنســـان والمجـــتمع والأجهزة وغيرها؛ واللسان أحد هذه الظواهر التي تخضع لنظام مخصوص.

وتتكوّن مادة اللسان من جميع أشكال التعبير، وتظهر في بنية متكاملة، وعلى اللســـانياتي أن بعمـــل على اكتشاف جزئيات وعناصر هذه البنية وحصرها وتتبّع العلاقـــات التـــي تـــربط بينها دلالياً، واستشفاف وظائفها وأسرارها[1]؛ من وجهة معرفية شمولية.

والبنـــيوية منهج فكري لا يقتصر تأثيره على النقد الأدبي، كما هو شائع، لكنه امـــتد ليشـــمل عـــدة مجالات بحثية ومعرفية أخرى كالأنثربولوجيا، وعلم النفس، والاجتماع[2].

والبنـــيوية: تقول بالاتساق بين القوى الاجتماعية وتناغمها لتلعب دوراً وظيفياً يؤدى إلى التكامل الاجتماعى وترى البنيوية ضرورة الاعتماد على العلم التجريبى ونتائجه التي توظف في ربط المنجزات المتعلقة بالواقع.

وكـــان اللجوء إلى فكر البنيوية باعتبارها وسيلة لتنظيم علاقة الشكل الداخلية من جهة، وعلاقات الشكل بمحيطه وبالمتلقي من جهة أخرى.

وتتمـــيز البنـــيوية باستعمالها للغة استعارياً اذ تؤكد "ضرورة وجود لغة ذهنية واحدة في طبيعة الانظمة البشرية التي تُدرك جوهر الامور على نحو متماثل وتعبّر عـــنها باشـــكال مـــتعددة. وتكشف هذه اللغة الذهنية نفسها بصفتها القدرة البشرية الشاملة بتركيب البُنى واخضاع طبيعتها لمتطلبات البناء".

كمـــا انهـــا تـــرى ان استجابات الإنسان للبيئة المحيطة به تتم وفق طرق معينة للـــتعامل معها لي ان ما يعترف به الإنسان حقيقة وما يفعله، امران متطابقان. فعندما يـــدرك الإنســـان العالم فانه يدرك بدون علمه الشكل الذي يفرضه ذهنه، ولن تكون للكيانات معان الا بقدر ما تجد لها مكانا ضمن هذا الشكل.

ان عنصـــر الادراك له اهمية مضاعفة في النظرة البنيوية والتي تقوم بتفسير المواضيع تبعا إلى تفاعلها مع ذات المدرك أو المتلقى.

١- دي سوسير: دروس في الألسنية العامة . ت/ صالح القرمادي، ص ٢٤.

٢ - سمير عبدالفتاح: البنيوية: اتجاه في النقد الأدبي الحديث . مجلة العربي عدد ٤١٩ لسنة ١٩٩٣.

البنـــيوية هـــي منهج فكري إجرائي، معارض لكثير من الفلسفات القديمة، لا ســـيما الفلســـفة المثالية، والوجودية، وغيرهما من الفلسفات الفردية والميتافيزيقية الأخرى[٣] .

والبنـــيوية تـــرى أن استجابات الإنسان للبيئة المحيطة به تتم وفق طرق معينة للتعامل معها الي أن ما يعترف به الإنسان حقيقة وما يفعله، أمران متطابقان. فعندما يـــدرك الإنســـان العالم فانه يدرك بدون علمه الشكل الذي يفرضه ذهنه، ولن تكون للكيانات معان إلا بقدر ما تجد لها مكانا ضمن هذا الشكل.

وقـــد تـــبلورت البنيوية في منهج نقدي بعد الستينات من القرن العشرين، حين تراجعـــت كثـــير مـــن المـــناهج النقدية السياقية كالظاهراتية والتاريخية والنفسية؛ فاخترقـــت البنـــيوية الســـاحة الأدبية مع رومان ياكوبسون (R. Jacobson) وإميل بنفســـت (E Benveniste) اعتماداً على أعمال فردينان دي سوسير. وكان لمقالات كلود ليف ستراوس (C. Levi - Strauss) الأثر الكبير في إبراز هذا التوجه[٤] .

ويوجـــز بنفنســـت المنهج البنيوي في قوله: (إن اللسان يشكل نسقاً تتحدّ أجزاؤه ضـــمن علاقـــة من التضامّ والارتباط، ويقوم بتنظيم وحدات هي عبارة عن علامات متمفصـــلة تخـــتلف عن بعضها وتحدد بعضها بالتناوب.. ويعلمنا المنهج البنيوي بأنّ النســـق يسيطر على نظام العلامات، ويهدف إلى استخلاص البنية من خلال العلاقات القائمة بين العناصر)[٥] .

وهـــذا لا يعني أن المنهج البنيوي عديم الجدوى في البحث التراثي، بل يمكن من خلاله الإفادة في الكشف عن مكنونات النصوص ومحتواها ليس إلا[٦] .

ولعـــل هـــذا مـــا جعل منهج التحليل البنيوي يستخدم من قبل مفكرين اهتموا بقضـــايا متباعدة مثل"سوسير" عالم اللغة، و"ميشال فوكو" المؤرخ و"رولان بارت" الناقد، و"لاكان" عالم النفس، "وشتراوس "الانثروبولوجي[٧] .

تعـــتمد هذه الاتجاهات الفلسفية الأساس الموضوعي المتمثل في التقبل الجمالي للعمـــل الفنـــي، أي بعـــبارة أخرى تعتمد الصفات الشكلية الكامنة في العمل وليس

---

٣ – سمير عبدالفتاح: البنيوية اتجاه في النقد الأدبي الحديث.

٤ – جان إيف تاديه: النقد الأدبي في القرن العشرين. ت/ قاسم المقداد، ص ٢٦٧.

٥ – النقد الأدبي في القرن العشرين، ص ٢٦٨.

٦ – محمود اسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث. رؤية للنشروالتوزيع، ط١ ،القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٥٧.

٧ – عبدالله إبراهيم، معرفة الآخر، المركز الثقافي العربي بيروت، ١٩٩٠، ص٣٩.

صـــفات تفرضها "ذات" المتلقي. فهي تهتم بالغايات والوسائل الشكلية للعمل ضمن مفهـــوم "الفـــن للفـــن"، الا انها لا تتهم بعدم مصداقيتها لا عتمادها على الجماليات الشكلية التي تتسم بطابع التجريد ويتسبب بعزل العمل عن محيطه.

كان اللجوء إلى فكر البنيوية باعتبارها وسيلة لتنظيم علاقة الشكل الداخلية من جهة، وعلاقات الشكل بمحيطه وبالمتلقي من جهة أخرى.

٣- السيميوطيقا (السيميائية) (semiotics) :

وتعنـــي دراسة حياة العلامات اللغوية وغير اللغوية في النصّ دراسة منتظمة، ويـــنطلق من التركيز على العلاقة بين الدّال والمدلول، وهو من هذه الوجهة لا يكاد يخـــتلف عـــن المنهج البنيوي سوى في أنه يهتمّ بالإشارات غير اللغوية التي تحيل على ما هو خارج النصّ بما في ذلك الدال والمدلول والمرجع.

ويعرفها البعض بأنها علم توظيف الدلالات والرموز لكشف حقائق أو بيانات لم يكـــن يرغب من يكتبها في الإفصاح الكامل عنها، وهى مشتقه من كلمة يونانية بمعنى (دل) والمتولدة هي الأخرى من كلمة بمعنى العلامة.

والتغـــير الدلالـــي هو التغير في المعنى، والقيمة الدلالية لكلمة تكمن في معناها ومن هنا فالسيميائية تولي أهمية لدراسة الرموز والإشارات وأنظمتها حتى ما كان منها خارج اللغة التي تشكل الحيّز الداخلي للخطاب.

ويعود التفكير السيمائي إلى عصور سحيقة، منذ أيام الرواقيين، بوصفهم أول مـــن كشـــف عن وجهي العلامة (الدال والمدلول) فقد تنبهوا إلى أن الاختلاف بين أصـــوات اللغـــة، إنما هو، في حقيقته ،اختلاف شكلي ظاهري لمعان أو مرجعيات متشابهة في الجوهر(٨) .

ولكـــن؛ لـــم يظهـــر الاتجاه السيميائي بوصفه منهجاً نقدياً؛ إلا مع الستينات من القـــرن العشرين؛ وذلك بعدما أخذت البنيوية في الانحسار نتيجة انغلاقها على النصّ، وإلغائها لكل الملابسات والسياقات المتصلة بفضائه الخارجي. وقد ساعد على بروزه عدّة عوامل كان أهمّها ظهور جماعة "كما هو (Tel.. quel) "التي تأسست في باريس سـنة ١٩٦٠م على يد الباحث فليب سولرز(F/Sollers) ، وتمثلت في منطلقها الاتجاه الماركســـي ثمّ انتهت إلى التصوف والتفكير الديني. كما تبلورت مع ظهور "الجمعية

٨ – غريب اسكندر: الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي . المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٧ .

الأدبـــية للســـيمياء" ســـنة ١٩٦٩م، حين أصدرت مجلتها الدورية "سيمياء" بباريس، واستقطبت نخبة من الباحثين أمثال جوليا كريستيفا (J/Kristeva) من فرنسا، وأمبرتو إيكـــو (Umberto Eco) مـــن إيطالـــيا، ويـــوري ليتمان (Y. Lotman) من روسيا، وسيبوك (sybock) من أمريكا وغيرهم.

أما سوسير، بوصفه ممثلا لتيار السيمياء المعاصرة، فقد استعمل السيميولوجيا، علـــى أنها العلم العام بدراسة جميع الأنظمة الدالة التي تشكل اللسانيات (lingustics) فـــرعا منه، وإن كانت أهم فروعه، يقول سوسير يمكننا أن نتصور علما موضوعه دراســـة حـــياة الإشـــارات فـــي المجتمع، مثل هذا العلم يكون جزءا من علم النفس الاجـــتماعى وهـــو بـــدوره جزء من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم الإشارات (semioilgy) السيميولوجيا ،ويوضح علم الإشارات ماهية مقومات الإشارات وماهية القواعـــد التي تتحكم فيها، ولما كان هذا العلم لم يظهر إلى الوجود، إلى حد الآن، لم يكـــن التكهـــن بطبيعـــته وماهيته، ولكن له حق الظهور فعلم اللغة هو جزء من علم الإشـــارات العام والقواعد التي يكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة ويحتل العلم الأخير مكانة محددة بين كتلة الحقائق الانثروبولوجية.

فالســـيمياء، إذن، بمفهومها العلمى الواسع تعنى بالعلامة، وتتم عنايتها هذه في مستويين:

المســـتوى الأنطلوجى (ontological) الذي يعنى بماهية العلامة ووجودها وطبيعتها وعلاقتها بالأشياء الأخرى.

المستوى التدأولى (pragmatics) الذي يعنى بفاعلية العلامة وبتوظيفها في الحياة العملية.

ويكتشـــف هـــذا التصنيف أن السيمياء اتجهت اتجاهين لا يناقض أحدهما الأخر، ونســـتطيع القول بأنهما متكاملات، فالأو يحأول تحديد ماهية العلامة ودراسة أركانها ومكوناتهـــا ويعـــد بيرس أصلا لهذا الاتجاه، وبينما أنصب اهتمام الاتجاه الثاني على دور العلامة في عمليات الاتصال الذي يعد سوسير اصله الأساسى.

لا مـــراء فـــي أن هذا التصنيف قد أبرز الطبيعة التكاملية لهذين الاتجاهين وفي الوقـــت نفسه كشف عن اختلافهما على صعيد وظيفة كل اتجاه، فطبيعة عمل بيرس الشاملة تقوم، على تأكيد كل أنواع العلامات الموجودة في الحياة، وقدبين أنه كل فكرة إنما هى علامة موسعا بذلك، من مفهوم العلامة إلى سائر ميادين الفكر الإنسانى، أما سوسير فتنطلق سيميولوجيته في تصور نظام جديد للحقائق البشرية تتشكل اللسانيات

بوصــفها العلــم الذي يعنى بدراسة العلامات اللغوية فرعا منه . لكن له خصوصيته وأهميته الناشئة من أهمية اللغة ودروها في الأنظمة السيميائية المختلفة . فما هو ثابت أن التفكير السيميائى قد اقترن منذ البداية بالعلامة اللغوية. فباللغة واللغة فقط، نستطيع تفســير كــل الأنظمـــة السيميائية ،كما تقول بنفست، محددا النظام السيميائى اللغوى، ويقــوم، وأيضــا بتقديم تحديد آخر للنظام السيميائى العام مشترطاً القدرة على كون الدلالة Gignificance سمة معيارية تجتمع عندها جميع الأنظمة السيميائية، فالنظام السيميائى يتميز عنده بالخصائص الآتية:

كيفـــية تأدية الوظيفة، أى الطريقة التي يعمل بها النظام، ولا سيما الحواس التي يخاطبها.

مجـــال صلاحيته، أى المجال الذي يفرض النظام نفسه فيه بحيث التعرف عليه وإتباعه.

طبيعة علاماته وعددها، التي ترتهن بالشروط السالفة.

نوعية توظيفه، ونلاحظ ذلك من خلال العلاقة التي تربط بين العلامات فتمنح كل علامة وظيفة فارقةdistinctive أو مستقلة عن الآخريات .

وتنقسم السيميوطيقا الي عدة اقسام منها:

– علم الدلالة (Semantics):

الذي يعنى بدراسة العلاقة التي تربط ما بين العلامات والموضوعات التي تطبق عليها هذه العلامات .

– علم التركيب (Syntectics):

أو دراسة علاقة الكلمات بالكلمات الأخرى والرموز بالرموز الأخرى، فعلى هذا الـــنحو يشـــمل علم التركيب – بحسب موريس – القواعد (grammar)، والتركيب (Syntex)، والمنطق (Logic)، بعبارة ثانية كل قواعد الأنظمة الرمزية.

– التدأولية (Pragmatics):

وهـــى دراســـة العلاقة التي تربط الكلمات والرموز الأخرى والسلوك الإنسانى متضمنة أثر وفاعلية هذه الكلمات والرموز على الكيفية التي نعمل بها.

٤ – التفكيكية Deconstruction ويمثلها جاك دريدا :

"التفكيكـــية" مصــــطلح ينتمــــي لعائلة من المصطلحات المتدأولة في الدراسات الـــنقدية المعاصرة، وهو مصطلح مثير للجدل بسبب ما يتضمنه معناه – كما سيرد – من مفاهيم معادية للغيبيات (الميتافيزيقا). وقد تمحور الاهتمام في التفكير النقدي العربي حول هذا المصطلح أمثاله بعد أن توقفت جهود كانت تستهدف إبداع نظرية نقدية عربية.

ظهـــرت التكفيكية في مجال الاهتمام العام أول مرة خلال اوائل السبعينيات بين نقاد الأدب في امريكا، كان الوصف يقتصر على مجموعة من النقاد ولدوا خلال فترة مـــا بيـــن الحربيـــن العالميتين، ومنهم هارولد بلوم ويروجنييو دوناتو وبول دى مان وجيفرىهارتمان و ج . هيليس ميللر وجوزيف ريدل.

وفـــي أواسط السبعينات برزت جماعة من النقاد الأصغر، ومعظمهم ممن ولدوا بعد عام ١٩٤٤ م ووصفوا بأنهم تفكيكيون، ومن قادة هؤلاء النقاد التفكيكيين شوشانا فـــيلمان وباربارا جونسون وجيفرى ميلمان وجياترى شاكراورتى سبيفاك ويمكن أن نذكـــر أسماء عشرات من النقاد الأصغر هنا، وكان معظم هؤلاء التفكيكيين صغارهم وكـــبارهم يرتبطون في وقت أو آخر بجامعة جون هوينكز أو جامعة بيل أو كلتيهما، وعـــندما تـــرك ميللر ودى مان جامعة هوبكنز في أوائل السبعينيات لينضما إلى بلوم وهارتمان نشأت "مدرسة بيل" التي استمرت حتى أواسط الثمانينيات ومن بين الزملاء الأصغر للنقاد الأربعة في بيل وطلابهم نجد فيلمان وجونسون وغيرهما.

ولـــم تقتصـــر التفكيكية على جامعة واحدة أو اثنتين لمدة طويلة، لأنها انتشرت بســـرعة وعلـــى نطـــاق واسع في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، كما أنها لم تقتصر على جماعة صغيرة من دستة من النقاد أو نحو ذلك.

والشخصـــية الرئيســـية في تأسيس التفكيكية هو الفيلسوف الفرنسى جاك دريدا وتعـــرض لهـــا في ثلاثة كتب أصدرها ١٩٦٧[٩] ، وقد بدأ دريدا نظريته بنقد الفكر البنـــيوي الذي كان سائدا آنذاك بإنكاره قدرتنا على الوصول بالطرق التقليدية على حل مشكلة الإحالة، أي قدرة اللفظ على إحالتنا إلى شئ ما خارجه.

ويـــرى دريدا أن تاريخ الفكر الغربي يستند على مجموعة ثنائيات متعارضة (الرجل – المرأة، الخير – الشر، العقل – الجنون، الخطاب – الكتابة، ...) ويشكل

٩ – محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، ط٢. دار لونجمان،، ١٩٩٧، ص ١٣٢.

الطـــرف الثانـــي نقداً، وجانباً سلبياً للطرف الأول، ولا يستثني دريدا أي نص من احتوائه على ميراث تلك الثنائيات المتعارضة، وتسهم تلك الثنائيات – حسب دريدا – بإطالـــة أمـــد بلـــوغ المـــرحلة النهائـــية للترجمة الفورية للنص، بهدف كسب المعنى(١٠).

ويُمـــثل التفكـــيك نظـــرية نقديـــة شاملة تبغي إعادة قراءة النصوص الفلسفية والمعرفـــية والثقافية والإبداعية المتنوعة، ويرى أنّ تلك النصوص تخضع لعمليات معقـــدة ناتجـــة مـــن علاقات النصوص المتناصة بعضها مع بعضها الآخر، ويُعد تـــراجع البنيوية ناتجاً عن فشلها في تحديد السمات الكلية لحركة الدوال، ومراهنتها علـــى تموضـــع البنى في أنساقٍ تحيل إلى مدلولات متعددة نهائية، وتوصف بأنّها محددة، فضلاً عن عدم إعطائها منزلة فاعلة للمتلقي، لأنّ النص عندها هو من يقدم المعـــنى إلى متلقيه، ويمارس دور الفاعل والمفعول في الوقت نفسه، فكسب المعنى مـــن جانـــب المتلقي، مرهونٌ بما يتيحه النص ببنائه وتعدد أنساقه وحركة بنياته، وانتظام تراكيبه(١١) .

ووجَّـــه دريـــدا، نقداً جوهرياً إلى المقولات الفكرية التقليدية، وسعى جاهداً لقهر التقسيم التقليدي بين الخطاب الفلسفي والخطاب الجمالي، وتستند رؤيته في هذا الأمر إلـــى كشفه: إن الحضارة الغربية نهضت حول العقل والمنطق، وكانا معياراً حاسماً لـــتقويم أهمية كل شيء وأصالته، ويجترح دريدا إحدى مقولاته الأساسية للتعبير عن ذلـــك. وهـــي «الـــتمركز حول العقل – Logocentrism»، وتتحدد استراتيجية هذه المقولـــة فـــي الـــبرنامج التفكيكـــي الهادف إلى نقد سلطة العقل والمنطق في الفلسفة الغربـــية، إلـــى فحص الميتافيزيقيا التي تبطل جميع المعاني التي لا تتطابق والنماذج العقلية المتصورة، وعلى الضد مما تذهب إليه الميتافيزيقا الغربية في تجلياتها الفكرية والمعرفـــية، يدعـــو دريدا إلى دور حر للغة، بوصفها متوالية لانهائية من اختلافات المعنى، ولا يمكنه تقرير أرجحية أمر، إلا استناداً إلى قرائن تعوّمها القراءة الحفرية. إذ لا معـــنى يظـــل حبـــيس دوالّه، ويُفسر على أنه ذو مغزى محدد بصورة نهائية. المعانـــي تنـــتجها القـــراءة، قادته توصلاته هذه، إلى توجيه نقد قاسٍ إلى نظام الفكر الغربي، كما تشكّل معرفياً، ابتداءاً من سقراط وأفلاطون وأرسطو، ومروراً بديكارت وكانـــت، ووصولاً إلى معلميه المباشرين، هيدغر وهوسرل، رغم أنه يقرر، بأنهما،

١٠– محمد سالم سعد الله: فلسفة التفكيك عند دريـــدا . مجلة التراث الأدبي، عدد ٤١٧، لسنة ٢٠٠٦، ص ٤٢.

١١– محمد سالم سعد الله: فلسفة التفكيك عند دريـــدا . مجلة التراث الأدبي، عدد ٤١٧، لسنة ٢٠٠٦، ص ٤٢.

كانـــا مؤثريـــن في مشروعه النقدي، ويؤكد أن علاقته بهيدغر خاصة، لا تتمثل في الجانـــب المنهجـــي، إنمـــا في المفهوم المشترك للوجود، وبالذات مقولة هيدغر في أنطولوجيا الحضور ونقد الأفلاطونية، وقضية العلاقة بين اللغة والوجود[١٢] .

وكمـــا هو الحال في معظم مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية مثلت قضية الســـياق الذي تنشأ فيه الأفكار وتنمو وتتطور قضية خلافية بين من يرون الظاهرة الإنســـانية تتطور وفق قوانين ثابتة لا تتأثر بالسياق الحضاري الذي تنشأ فيه، ومن يرون كل فعل وفكرة انعكاسا لرؤية حضارية تتضمن بالضرورة – بشكل ظاهر أو مضـــمر – تصورات عن الذات والآخر والكون وما وراء الكون. وعلى كل حال فـــإن واقـــع الدراسات النقدية العربية مشغول بمدارس النقد ذات المنشأ الغربي من ظاهرية وبنيوية وتفكيكية و....

وسواء كان دافع الانشغال الخوف من تبعية ثقافية تطرق الأبواب مترافقة مع تبعـــية اقتصـــادية وسياسية وإعلامية تعطي مشروعية لهذه المخاوف أو كان دافعه الرغبة في اللحاق بقطار يتحرك بالفعل وفي رحلته محطات عديدة، فإن من المفيد إدارة نوع من الحوار الإيجابي حول هذه الأفكار والمدارس النقدية.

وأول مظاهـــر الجـــدل هـــو مـــا دار حـــول المقابل العربي للفظ الإنجليزى Deconstruction، فبينما يرى الدكتور محمد عناني أن استخدام مصطلح التفكيكية هو استخدام موفق، فالتفكيك الذي اشتق منه المصدر الصناعي هو فك الارتباط أو حتى تفكيك الارتباطات المفترضة بين اللغة وكل ما يقع خارجها[١٣] .

وقـــد صورت سوزان سليمان التفكيكية على أنها جزء من الفرع التأويلي لنقد اســـتجابة القارئ، وتحولت التفكيكية إلى ظاهرة تذكر بالنقد الجديد الذي احتل منذ جـــيـــل مضـــى صدارة مجال الدراسات الأدبية مما جعل المدارس منافسة له تبدو هامشـــية لبعض الوقت بالمقارنة معه، ذلك لأن التفكيكية استطاعت تحفيز النقاد من كـــل المشـــارب تـــراوحاً مـــن غلاة المحافظين إلى الراديكاليين، ومن الإنسانيين التقليديـــن إلى الماركسيين الملتزمين، ومن التجريبيين البراجماتيين والماديين إلى المثاليين والصوفيين في الفلسفة، وليس مما يدهش أن التفكيكية لقبت "بالنقد الجديد"،

12- Jacques derrida, writing and difference U. S. A: The university of chicago press 1978 p 6.

١٣- محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، ط٢. دار لونجمان،، ١٩٩٧، ص ١٣١.

لأنهـــا أيضـــاً احتلت مكانة الصدارة، ونشط قادتها من جامعة ييل، وفضلت كذلك المدخل النقدى المتوجه للنص[١٤] .

١٤- محمد شبل الكومي: المذاهب النقدية الحديثة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٤ م، ص ٣١٤.

الملاحـــق

ملحق رقم (١)
نماذج من مصادر هامة
السير والتراجم

محمد بن عبدالرحمن السخاوي	الضوء اللامع لأهل القرن التاسع
ابن قنفذ	كتاب الوفيات
جلال الدين السيوطي	الغرر في فضائل عمر
إبن فندق البيهقي	لباب الأنساب
إبن شاكر الكتبي	فوات الوفيات
إبن ماكولا	الإكمال
ابن قتيبة	عيون الأخبار
جلال الدين السيوطي	الروض الأنيق في فضل الصديق
ابن بشكوال	كتاب الصلة
الإمام النسائي	طبقات النسائي
جلال الدين السيوطي	نظم العقيان في أعيان الأعيان
ابن رجب الحنبلي	ذيل طبقات الحنابلة
الإمام الجزري	غاية النهاية في طبقات القراء
إبن قطلوبغا	تاج التراجم في طبقات الحنفية
الحافظ ابن حجر العسقلاني	طبقات المدلسين
أبي إسحاق الشيرازي.	طبقات الفقهاء
المطهر بن طاهر المقدسي	البدء والتأريخ
جلال الدين السيوطي	طبقات المفسرين
جلال الدين السيوطي	طبقات الحفّاظ
أبو يعلى الحنبلي	طبقات الحنابلة
علي بن محمد الهندي	زَهْرُ الخَمَائِل في تَرَاجم عُلمَاء حَائِل
الواقدي	كتاب المغازي
عبد الرحمن الجبرتي	عجائب الآثار في التراجم والأخبار
جلال الدين السيوطي	لب اللباب في تحرير الأنساب
أحمد بن علي القلقشندي	نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب
الإمام الجياني الأندلسي	ألقاب الصحابة والتابعين

أبو نعيم الأصبهاني	حلية الأولياء
الحافظ ابن حجر العسقلاني	الإصابة في تميز الصحابة
ابن الأثير	أسد الغابة في معرفة الصحابة
ابن عبد البر	الاستيعاب في معرفة الأصحاب
الإمام الذهبي	سير أعلام النبلاء
الزبير بن بكار	المنتخب من كتاب أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم
محمد بن أحمد المقدسي	العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية
أبو نعيم الأصبهاني	معرفة الصحابة
ابن عساكر	فضائل أبي اسحاق سعد بن أبي وقّاص
وكيع	أخبار القضاة
ابن عساكر	الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين
د .علي بن عبد الله الصيَّاح	من سير علماء السلف عند الفتن
الدكتور أحمد فريد	الإمام النووي
ابن قاضي شهبة	طبقات الشافعية
الإمام النسائي	خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
محمد رضا	سيرة عثمان بن عفان (ذو النورين)
محمد رضا	أبو بكر الصديق رضي الله عنه
أبو الحسنات الدمشقي	الشذا الفياح في ترجمة أبي عبيدة بن الجراح
ابن شاهين	فضائل سيدة النساء
جمال بن محمد السيد	ترجمة العلامة ابن قيم الجوزية
الكاندهلوى	حياة الصحابة (رضي الله عنهم)
الشوكاني	البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع
الحافظ ابن حجر العسقلاني	إنباء الغمر بأبناء العمر
ابن خلكان	وفيات الأعيان
أحمد الأدنروي	طبقات المفسرين
ياقوت الحموي	معجم الأدباء
القاضي عياض	ترتيب المدارك وتقريب المسالك
الحافظ ابن حجر العسقلاني	رفع الإصر عن قضاة مصر
ابن بلبان	تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق

جلال الدين السيوطي	تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك
الصفدي	الوافي بالوفيات
الإمام السبكي	طبقات الشافعية الكبرى
جلال الدين السيوطي	تاريخ الخلفاء
خير الدين الزركلي	الأعلام
سلمان بن فهد العودة	إمام أهل السنة

الملل والنحل

عبد القاهر بن طاهر البغدادي	الفرق بين الفرق
الألوسي	أخبار الشيعة وأحوال رواتها .. للألوسي
الدكتور عبدالوهاب المسيري	موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية
الشهرستاني	الملل والنحل
ابن حزم الأندلسي	الفصل في الملل والنحل

الأدب العربي والثقافة

ابن سيده	شرح المشكل في شعر المتنبي
اليوسفي	المحاضرات في اللغة والأدب
أبو أحمد العسكري	المصون في الأدب
الواحدي	شرح ديوان المتنبي
الحُصري	زهر الآداب وثمار الألباب
الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني	الإكليل من أنساب اليمن وأخبار حمير
النويري	نهاية الأرب في فنون الأدب
السمعاني	الأنساب
الوطواط	غرر الخصائص الواضحة
الإمام ثعلب	مجالس ثعلب
أبو حيان التوحيدي	الإمتاع والمؤانسة
ابن عبد البر	بهجة المجالس وأنس المجالس
أبو منصور الثعالبي	الإعجاز والإيجاز
بديع الزمان الهمذاني	مقامات بديع الزمان الهمذاني
الحريري	مقامات الحريري
ابن المقفع	الأدب الصغير و الأدب الكبير

أبو القاسم الآمدي	المؤتلف والمختلف
ابن السكيت	إصلاح المنطق
محمود توفيق سعد	نظرية النظم عند عبد القاهر وقراءة الشعر
أبو العباس عبدالله بن المعتز	البديع
عز الدين ابن الأثير	المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر
أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري	مبادئ في نظرية الشعر والجمال
د . عبد الرحمن العشماوي	مجموعة قصائد د . عبد الرحمن العشماوي
د /نجيب الكيلاني	مدخل إلى الأدب الإسلامي
عمر رضا كحالة	معجم قبائل العرب القديمة والحديثة
ابن فضل الله العمري	مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
عبد اللطيف عبد الرحمن السعيد	الكامل في اللغة العربية
لسان الدين بن الخطيب	ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب
أبو فارس باكرموم	مختصر الانساب الحضرميه
منصور بن الحُسين الآبيّ	نثر الدر
أبو علي الهجري	التعليقات و النوادر
أبو بكر محمد بن يحيى الصولي	أدب الكتاب
ابن الأبار القضاعي البلنسي	إعتاب الكتاب
ابن المعتز	طبقات الشعراء
ابن الشجري	الأمالي الشجرية
ابن المغربي	أدب الخواص
شوقي عبد الحليم حمادة	الأدب العربي في الميزان
أبو القاسم الزجاجي	الأمالي
المبرد	التعازي والمراثي
الصفدي	نصرة الثائر على المثل السائر
أبي حيان التوحيدي	كتاب المقابسات
أحمد شوحان	رحلة الخط العربي من المسند... إلى الحديث
ابن قتيبة	كتاب المعارف
ابن الجوزي	المنثور
محمد بن أبي بكر التلمساني	الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة
أبو زيد القرشي	جمهرة أشعار العرب
أبو الفتح البستي	عنوان الحكم

ابن حزم الأندلسي	جمهرة أنساب العرب
إبن الكلبي	جمهرة النسب
الوزير المغربي	الإيناس بعلم الأنساب
المغيري	المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب
الحازمي	عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب
المبرد	نسب عدنان وقحطان
أحمد بن علي القلقشندي	قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان
أبو الحسن القرطبي	التعريف بالأنساب والتنويه بذوي الأحساب
عثمان بن جني الموصلي	المبهج
لابن سلام الجمحي	طبقات فحول الشعراء

التاريخ الإسلامي

ابن ثغري بردي	حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور
أبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمود	المختصر في تاريخ البشر
ابن بطوطة	تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
خليفة بن خياط	تاريخ خليفة بن خياط
كمال الدّين بن العديم	بغية الطلب في تاريخ حلب
أبو زرعة	تاريخ أبي زرعة الدمشقي
الأزرقي	أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار
ابن شبة	تاريخ المدينة المنورة
الواقدي	فتوح الشام
ابن الجوزي	تاريخ بيت المقدس
يحيى بن معين	تاريخ ابن معين
زكريا بن محمد القزويني	آثار البلاد وأخبار العباد
الحافظ ابن كثير	النهاية في الفتن و الملاحم
البلاذري	فتوح البلدان
الإمام الذهبي	العبر في خبر من غبر
يعقوب بن سفيان الفسوي	المعرفة والتاريخ
ابن الخطيب الأندلسي	الإحاطة في أخبار غرناطة
الحميري	صفة جزيرة الأندلس

عبد العلي بلامين	مواقف المرابطين في دفع بغي السلاطين
الادريسي	نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
عبد الواحد بن علي المراكشي	المعجب في تلخيص أخبار المغرب
أبو حيان القرطبي	المقتبس من تاريخ الاندلس
عبد الرحمن بن عبد الله القرشي	فتوح مصر وأخبارها
أبو نعيم الأصبهاني	ذكر أخبار إصبهان
عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي	شذرات الذهب في أخبار من ذهب
أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
المقريزي	اتعاظ الحنفا
ابن الجوزي	المنتظم في تاريخ الملوك والأمم
الإمام ابن جرير الطبري	تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)
ابن عساكر	تاريخ دمشق
الإمام الذهبي	تاريخ الإسلام
ابن خلدون	تاريخ ابن خلدون
الجرجاني	تاريخ جرجان
ابن الأثير	الكامل في التاريخ
الحافظ ابن كثير	البداية والنهاية
ابن خلدون	مقدمة ابن خلدون
الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد

ملحق رقم (٢)
مواقع بحث هامة

مكتبة الكونجرس	http://www.loc.gov/index.html
الجامعة الأمريكية بالقاهرة	http://www.aucegypt.edu/
الموسوعة البريطانية	http://www.britannica.com
المكتبة البريطانية	http://www.bl.uk/
مكتبة الإسكندرية	http://www.bibalex.org/arabic/index.aspx
مكتبة الملك عبد العزيز العامة	http://www.kapl.org.sa/
مكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز	http://www.uqu.edu.sa/lib/favo.php?do=1
دائرة المعارف الإسلامية	http://www.encyclopediaofislam.com/

مواقع أخرى

www.altavista.com
www.almeshkat.net
www.ayna.com
www.saaid.net
www.ask.com
www.islamonline.com



المراجـــع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المراجع العربية

- أحمـد رمضـان أحمد: تطور علم التاريخ الإسلامي، المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.
- أحمـد سـعيد سـعيدان: مقدمـة لتاريخ الفكر العلمى في الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٣١ لسنة ١٩٨٨م.
- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ط١، دار المعارف ١٩٨٣.
- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية.
- السـيد محمـد تقـي المدرسي: المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه، دار البيان العربي – بيروت، لبنان.
- توبـى هـف: فجر العلم الحديث، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس ٢٠٠٠سنة، عدد ٢٦٠.
- جابـر عصـفور: فضـاء النقد الأدبي. مجلة العربي، عدد ٤٤٦٠، ١– ١ لسنة ١٩٩٦م.
- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جـون ب ديكنسـون: العلـم و المشتغلون بالبحث العلمى في المجتمع الحديث، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١٢.
- حسن عثمان: منهج البحث التاريخي – دار المعارف – ط٤ – ١٩٨٠.
- ابن خلدون: المقدمة. ج١، تحقيق علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العانة للكتاب ٢٠٠٦م.
- روبـرت يـانج: أساطير بيضاء، ترجمة أحمد محمود، الهيئة المشصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م.
- سعيد اسماعيل علي: فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة عالم المعرفة عدد، ١٩٨، يونيو، ١٩٩٥.
- سمير عبدالفتاح: البنيوية: اتجاه في النقد الأدبي الحديث. مجلة العربي عدد ٤١٩ لسنة ١٩٩٣.

- شاخت وبوزورث: تراث الإسلام (الجزء الثاني) ترجمة حسين مؤنس و إحسان صدقي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٤، الكويت أغسطس ١٩٧٨م.
- عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، مؤسسة ابن خلدون، ٢٠٠٢.
- عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، الهيئة العامة قصور الثقافة، كتاب الثقافة الجديدة ١٢، ٢٠٠٥.
- عبد الرحمن بدوى: دور العرب في تكوين الفكر الغربي، دار الآداب – بيروت.
- عبد الرحمن بدوى: شلنج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١.
- عبد الرحمن بدوري، اشبنجلر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- عبدالله إبراهيم، معرفة الآخر، المركز الثقافي العربي بيروت، ١٩٩٠.
- عبد المنعم الجميعى: حركة التأليف التاريخي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة إصدارات خاصة، ٢٠٠٦.
- عبد المنعم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي. ط٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م.
- علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار المعرفة الجامعية.
- علي محسن جمجوم: السيميوطيقا ومشكلات الفلسفة. الهيئة المصرية العامة للكتاب (لسلة المكتبة الثقافية عدد ٥٠٠)، القاهرة ١٩٩٤م.
- عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٥م.
- غريب اسكندر: الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م.
- غريب سيد أحمد: تاريخ الفكر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.
- قاسم عبد قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، دار المعارف، ١٩٨٥.
- قاسم عبده قاسم: تاريخنا... هل من الضروري إعادة كتابته؟. مجلة العربي عدد ربيع الأول سنة ١٤٢٧هـ.
- كولنجود: فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، محمد عبد الواحد خلاف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨.
- كلايد كلوكهون: الإنسان في المرآه، ترجمة شاكر مصطفي سليم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بغداد، نيويورك ١٩٦٤.

- ماهــر عــبد القادر علي: المنطق ومناهج البحث، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٥م.
- محمد سالم سعد الله: فلسفة التفكيك عند دريدا. مجلة التراث الأدبي، عدد ٤١٧، لسنة ٢٠٠٦.
- محمــد شــبل الكومي: المذاهب النقدية الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.
- محمد زيان عمر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.
- محمــد علــي ســعيد: علامات الترقيم، مجلة الشرق، عدد ١، السنة العشرون، مارس ١٩٩٠.
- محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، ط٢. دار لونجمان، ١٩٩٧.
- محمــود أحمد دواه: الاتجاهات المختلفة في تفسير التاريخ، مجلة الفكر العربي، عدد ٥٨ لسنة ١٩٨٩م.
- محمود اسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث. رؤية للنشروالتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤.
- محمود زيدان: الاستقراء والمنهج العلمي، دار النهضة العربية ٢٠٠٣.
- محمــود الطــناحى: وآخــرون، فن تحقيق التراث، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية.
- محمود عباس حمودة (دكتور): دراسات في علم الكتابة العربيّة، مكتبة غريب.

ثانياً المراجع الأجنبية

- Allen, A. H.: suggestion on the preparation of Manuscript. (Philadelphia: lefax, 1919).
- Brinton, W.C. Graphic Methods of presenting Facts (New York Engineering Magazine Co., 1919).
- Campbell, W. G.: A From Book for thesis Writing (Boston: Houghton - Miffin Co., 1939).
- Cole, A. H. and Bigelow. K. W.: A Manual For thesis, writing.
- Dimnet, E.,: The Art of thinking. (New York: simon and Schuster, 1928).
- Jacques derrida, writing and difference U. S. A: The university of chicago press 1978.
- Johnson, A.: the Historian and Hostorical Evidence (Charles Scribner's Sons, 1928).
- Mudgett. B. D.: statistical Tables and Graphs (Boston: Houghton Miffin Co., 1930).
- Seward, S. S.: Note - Taking (Boston: Allyn and Bacon 1910).
- Seyfried j. E.: principles and Michanics of Research. (The university of New Mexico press 1935).
- Valline, G. H.: Good English and How to write in (PAN - Books, London, 1951).
- Whitney. F.L.: Elements of Research. (New York. Prentic - Hall, Inc., 1937).

أعمال المؤلف ونشاطه العلمي

١ - كتاب زيارة جديدة للاستشراق، مكتبة الأنجلو المصرية .
٢ - كتاب الطريق إلى صدام الحضارات، مكتبة الأنجلو المصرية .
٣ - كتاب معجم مصطلحات التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية .
٤ - كتاب فن كتابة الأبحاث، دار الفكر العربي .
٥ - حاصل علي جائزة الأستاذ الدكتور عبد الحميد العبادي من الجمعية التاريخية ٢٠٠٥ .
٦ - تكريم من الدولة في عيد العلم أعوام ١٩٩٦- ٢٠٠٤- ٢٠٠٥
٧ - مشرف تنفيذي لمشروع تطوير قدرات أعضاء هيئة التدريس بجامعة عين شمس.
٨ - عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
٩ - مقرر سمينار التاريخ الإسلامي والوسيط بكلية التربية – جامعة عين شمس.
١٠- نشر فى مجلات ودوريات (الوعى الإسلامى – العربى أدب ونقد إلخ).

